

العقيدة
الإسلامية

في

دروس
تمهيدية

علي الشيرواني

تعريب:

خضر آتش فراز (ذوالفقاري)

الحمد لله
الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا
هدايتنا



الحمد لله

- سیرنامه:
عنوان قرارداد: عنوان و نام پدید آور:
مشخصات نشر:
فروست:
فروست اصلی:
فروست فرعی:
شابکه:
وضعیت فهرست نویسی:
یادداشت:
یادداشت:
موضوع:
موضوع:
موضوع:
موضوع:
شماره افزوده:
رده بندی کنگره:
رده بندی دیویی:
شماره کتابشناسی ملی:
- شیرونی، علی، ۱۳۴۳ -
درسنامه عقاید عربی
دروس تمهیدیه فی عقیده الاسلامیه درسنامه عقاید/ علی شیرونی
مترجم خضر آتش فرزا (ذوالفقاری)
قم: مرکز بین المللی ترجمه و نشر المصطفیٰ ﷺ، ۱۳۹۳.
مرکز بین المللی ترجمه و نشر المصطفیٰ ﷺ
مرکز بین المللی ترجمه و نشر المصطفیٰ ﷺ ۱۳۹۳/۶۹/۳۳
پژوهشگاه بین المللی المصطفیٰ ﷺ ۳۵
۹۷۸-۹۶۱-۱۹۵-۸۵۱-۳-۳
- فیبا
عربی
کتابخانه
اسلام -- عقاید
شیعه امامیه -- عقاید
اصول دین
اسلام -- عقاید -- جنبه های قرآنی
آتش فرزا، خضر، ۱۳۳۹ - مترجم
۱۳۹۳/۴۳/۴۴۱ BP
۲۹۷/۴۱
۳۵۲۱۶۹۲

دروس تمهيدية في العقيدة الإسلامية

علي الشيرازي

تعريب:

خضر آتش فراز (ذوالفقاري)



مركز الصطفى ﷺ العالمي
للترجمة والنشر

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

دروس تمهيدية في العقيدة الإسلامية

المؤلف: علي الشيرواني

تعريب: خضر آتش فراز (ذوالفقاري)

الطبعة الاولى: ١٤٣٥ هـ / ١٣٩٣ ش

الناشر: مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة والنشر

المطبعة: نارنجستان ● السعر: ١٢٥٠٠٠ ريال ● عدد النسخ: ٣٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة للناشر.

مراكز التوزيع:

- ايران: قم، ساحة شهداء شريع معلم الغربي (شروع الحبيبة) رفق ١٨ هاتف: +٩٨ ٢٥٣٧٨٣٩٣٠٦
- ايران: قم، شارع معتمد الأمين، تقاطع سألرته هاتف: +٩٨ ٢٥٣٢١٣٣١٠٦ فاكس: +٩٨ ٢٥٣٢١٣٣١١٦
- ايران: طهران، شارع انقلاب، بين شارع الوصال وشارع الشيرازي الرقم ١٠٠٣ هاتف: +٩٨ ٢١ ٦٦٩٧٨٩٢٠
- ايران: مشهد المقدسة، شارع الإمام الرضا ﷺ، شارع دانش الشرقي، بين قري ١٧ و١٥ هاتف: +٩٨ ٥١١ ٨٥٢٣٠٥٩

pub.man.ac.ir map@pub.man.ac.ir

تشكر أعضاء المركز الذين تابعوا مراحل الطبع والنشر حتى مراحله الأخيرة.

- مدير مركز النشر: محمد سعيد بناهي
- مدير الإنتاج: تورج روحاني
- المشرف على الإنتاج: جعفر قاسمي الدين
- المشرف الفني: محمدباقر شكري
- مصمم الغلاف: مسعود مهديوي
- المشرف على الطباعة: نعمت الله يزداني
- الإعداد الفني: السيد محسن عمادي
- الإخراج الفني: محمد خسروبيگي
- تنويم النص: عادل الأسدي
- المعاينة الفنية: محمد خسروبيگي

مقدمة الناشر

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا ونبينا محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

وبعد، إنّ التطوّر المعرفي الذي يشهده عالمنا اليوم في مختلف المجالات، بخاصّة بعد ثورة الاتصالات الحديثة التي هيأت فرصاً فريدة للاطلاع الواسع، ودفعت بعجلة الفكر والثقافة والتعليم إلى آفاق واسعة.

وغدا الإنسان يترقّب في كلّ يوم تطوُّراً جديداً في البحوث العلمية، وفي المناهج التي تنسجم مع هذا التطوّر الهائل، ومع كلّ ذلك بقيت بعض المناهج الدراسية حبيسة الماضي ومقرراته.

وبعد أن بزغ فجر الثورة الإسلامية المباركة بقيادة الإمام الخميني قدس سرّه، انبثقت ثورة علمية وثقافية كبرى، ممّا حدا برجال العلم والفكر في الجمهورية الإسلامية أن يعملوا على صياغة مناهج دراسية جديدة لمجمل العلوم الإنسانية، الإسلامية بشكل خاصّ، فأحدث هذا الأمر تغييراً جذرياً وأساسياً في الكتب الدراسية في الحوزات العلمية والجامعات الأكاديمية.

وفي ظلّ إرشادات قائد الجمهورية الإسلامية الإمام الخامنّي (مدّظله)؛ أخذت

المؤسسات العلمية والثقافية على عاتقها تجديد الكتب الدراسية وتحديثها على مختلف الصعد، بخاصةً مناهج الحوزة العلمية، التي هي ثمرة جهود كبار الفقهاء والمفكرين عبر تاريخها المجيد.

من هنا بادرت جامعة المصطفى عليه السلام العالمية إلى تبني المنهج العلمي الحديث في نظامها الدراسي، وفي التأليف، والتحقيق وتدوين الكتب الدراسية لمختلف المراحل الدراسية ولجميع الفروع العلمية، ولشتى الموضوعات بما ينسجم مع المتغيرات الحاصلة في مجمل دوائر الفكر والمعرفة.

فقامت بمخاطبة العلماء والأساتذة، ليساهموا في تدوين كتب دراسية على الأسس المنهجية الحديثة للعلوم الإسلامية خاصةً، ولسائر العلوم الإنسانية: كعلوم القرآن، والحديث والفقه، والتفسير، والأصول، وعلم الكلام والفلسفة، والسيرة والتاريخ، والأخلاق، والآداب، والاجتماع، والنفس، وغيرها، حملت هذه المناهج طابعاً أكاديمياً مع حفاظها على الجانب العلمي الأصيل المتبع في الحوزات العلمية في مدرسة أهل البيت عليه السلام الرسالية.

ومن أجل نشر هذه المعارف والعلوم، بادرت جامعة المصطفى العالمية عليه السلام إلى تأسيس «مركز المصطفى عليه السلام العالمي للترجمة والنشر» لتحقيق، وترجمة، ونشر كل ما يصدر عن هذه الجامعة الكبيرة، مما ألفه أو حققه العلماء والأساتذة في مختلف الاختصاصات وبمختلف اللغات.

والكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ، دروس تمهيدية في العقيدة الإسلامية هو مفردة من مفردات هذه المنظومة الدراسية الواسعة، قام بتأليفه الأستاذ الفاضل علي الشيرواني وترجمه الدكتور خضر آتش فراز (ذوالفقاري) من اللغة الفارسية إلى العربية. ويحرص مركز المصطفى العالمي على تسجيل تقديره لمؤلفه الجليل على

ما بذله من جهد وعناية، كما يشكر كلَّ من ساهم بجهوده لإعداد هذا الكتاب وتقديمه للقراء الكرام.

وفي الختام نتوجّه بالرجاء إلى العلماء والأساتذة وأصحاب الفضيلة، للمساهمة في ترشيد هذا المشروع الإسلامي بما لديهم من آراء بناء وخبرات علمية ومنهجية، وأن يبعثوا إلينا بما يستدركون عليه من خطأ أو نقص يلزم الإنسان عادة، لتلافيهما في الطبعات اللاحقة، نسأله تبارك وتعالى التوفيق والسداد، والله من وراء القصد.

مركز المصطفى ﷺ العالمي

للترجمة والنشر

مقدمة قسم المناهج الدراسية

وضعت الحوزات العلمية - عبر تاريخها المجيد - مهمة التربية والتعليم على رأس مهامها و جزءاً من رسالتها الأساسية، الأمر الذي ضمن إيصال معارف الإسلام السامية وعلوم أهل البيت عليه السلام إلينا خلال الأجيال المتعاقبة بأمانة علمية صارمة، وفي هذا الإطار جاء اهتمام تلك الحوزة العلمية بالمناهج الدراسية التعليمية.

ومما لا شك فيه، أن التطور التكنولوجي الذي شهده عصرنا الحالي وثورة الاتصالات الكبرى أفرزتا تحولاً هائلاً في حقل العلم والمعرفة، حتى أصبح بمقدور البشرية في عالم اليوم أن تحصل على المعلومات والمعارف اللازمة في جميع الفروع بسرعة قياسية وبسهولة ويسر، فقد حلت الأساليب التعليمية الحديثة والمتطورة محل الأساليب القديمة والموروثة كماً ونوعاً، وسارت هذه التطورات بسرعة نحو تحقيق الأهداف التعليمية المنشودة.

وبرزت جامعة المصطفى عليه السلام العالمية في هذا الخضم كمؤسسة حوزوية وأكاديمية تأخذ على عاتقها مسؤولية إعداد الكوادر العلمية والتعليمية الأجنبية في مجال العلوم الإسلامية، حيث تعكف أعداد غفيرة من الطلبة الأجانب الذين يتمتعون إلى جنسيات مختلفة على مواصلة الدراسة في مختلف المستويات التعليمية وضمن العديد من فروع العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية التابعة لهذه الجامعة.

وبطبيعة الحال، أن العلوم والمعارف الإسلامية التي يتوافر عليها الطلبة الأجانب تمتاز بتمايز البلدان والأصقاع التي ينتمون إليها، مما يدفع جامعة المصطفى (عليه السلام) العالمية إلى تدوين مناهج حديثة تستجيب لطبيعة التمايز الذي يفرضه تنوع البلدان وتنوع حاجات مواطنيها.

لظالما أكد أساتذة الحوزة ومفكرها ولا سيما الإمام الخميني (عليه السلام)، وسماحة قائد الثورة الإسلامية (دام ظلّه) على ضرورة أن يستند التعليم الحوزوي للأساليب الحديثة المستلهمة من مناهج الاستنباط في الفقه الجواهري، وأن يتمّ سوجه نحو مسارات التألق والازدهار، وفي هذا السياق نشير إلى مقطع من الكلمة المهمة التي ألقاها سماحة قائد الثورة السيّد الخامنّي (دام ظلّه) في عام ٢٠٠٧م، مخاطباً فيها رجال الدين الأفاضل:

بالطبع، أن حركة العلم في العقدين القادمين ستشهد تعجلاً متسارعاً في حقول العلم والتكنولوجيا مقارنة بما مرّ علينا في العقدين المنصرمين ...، وفيما يتعلّق بالمناهج الدراسية يجب علينا توضيح العبارات والأفكار التي تضمّنها تلك المناهج إلى الدرجة التي تنزاح معها كلّ العقبات التي تقف في طريق من يريد فهم تلك الأفكار، طبعاً، دون أن نُهبط بمستوى الفكرة.

في الحقيقة، لقد استطاعت الثورة الإسلامية المباركة في إيران - ولله الحمد - أن تسند المحافل العلمية والجامعات بطاقات وإمكانات هائلة لتفعيلها وتطويرها. ومن هذا المنطلق، واستلهاماً من نمير علوم أهل البيت (عليهم السلام)، وبفضل الأجواء التي أتاحتها هذه الثورة العظيمة لإحداث طفرة في النظام التعليمي، أناطت جامعة المصطفى (عليه السلام) العالمية مهمة ترجمة وطباعة ونشر المناهج الدراسية التي تنسجم مع النظام المذكور، إلى مركز المصطفى (عليه السلام) العالمي؛ وذلك بالاعتماد على اللّجان العلمية والتربوية الكفوءة، وتنظيم هذه المناهج بالتركيز على الأهمية الإقليمية والدولية الخاصة بها.

وللحقيقة فإنّ جامعة المصطفى (عليه السلام) العالمية تملك خبرة عالية في مجال تدوين

المناهج الدراسية والبحوث العلمية، حيث حققت تحولاً جديداً في ميدان انتاج المعرفة، وذلك من خلال تجربتها في تدوين مجموعة المناهج الخاصة بالمؤسستين السابقتين التي انبثقت عنهما، وهما: «المركز العالمي للدراسات الإسلامية» و«مؤسسه الحوزات والمدارس العلمية في الخارج».

وكانت حصيلة الفعاليات العلمية لهذه الجامعة في مجال تدوين المناهج، إصدار أكثر من مئتي منهج دراسي لداخل البلاد وخارجها، وإعداد أكثر من مئتي منهج وكراسة علمية، والتي نأمل بفضل العناية الإلهية وفي ظل رعاية الإمام المهدي المنتظر^ع أن تكون قد ساهمت بقسط ولو قليل في نشر الثقافة والمعارف الإسلامية المحمدية الأصيلة.

وبدوره يشدّ مركز المصطفى^ص العالمي على أيدي الرواد الأوائل ويشتمن جهودهم المخلصة، كما يعلن عن شكره للتعاون البناء للجان العلمية التابعة لجامعة المصطفى^ص على مواصلة هذه الانطلاقة المباركة في تلبية المتطلبات التربوية والتعليمية من خلال توفير المناهج الدراسية طبقاً للمعايير الجديدة.

والكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم هو ثمرة تأليف الاستاذ الفاضل الشيخ علي الشيرواني وترجمه من اللغة الفارسية إلى العربية الدكتور خضر آتش فراز (ذوالفقاري).

ويحرص مركز المصطفى العالمي على تسجيل تقديره وشكره للمترجم المحترم على ما بذله من جهد وعناية، كما يشكر كل من ساهم بجهوده لإعداد هذا الكتاب.

كما لا يفوتنا أن نتوجّه بالرجاء إلى العلماء والأساتذة وأصحاب الفضيلة أن يعثوا إلينا بإرشاداتهم، وبما يستدركونه عليه منه خطأ أو اشتباه، لتلافيه في الطباعات اللاحقة.

نسأله تعالى التوفيق والسداد، والله من وراء القصد.

الفهرس

المدخل.....	٢٥
الفصل الأول: علم الكلام والدين	
الدرس الأول: علم الكلام.....	٢٩
وظائف علم الكلام.....	٢٩
تعريف علم الكلام.....	٣٠
موضوع علم الكلام.....	٣١
وجه التسمية.....	٣١
تاريخ علم الكلام والعوامل المؤثرة في نشوئه.....	٣٢
الكلام الجديد.....	٣٣
الدرس الثاني: الدين.....	٣٧
تعريف الدين.....	٣٧
الدين في القرآن الكريم.....	٣٧
المعنى الاصطلاحي للدين عند المتكلمين.....	٣٨
الدرس الثالث: الأبعاد المختلفة للدين.....	٤١
١. العقائد.....	٤١
٢. الأخلاق.....	٤١
٣. الأحكام.....	٤٢
تنبيه.....	٤٢

٤٣	 خلاصة البحث
٤٥	 الدرس الرابع: ضرورة الدراسة الدينية
٤٦	 تقرير البرهان ببيان آخر
٤٩	 الدرس الخامس: ما ينتظره الانسان من الدين
٥٣	 الدرس السادس: توقّع الدين من البشر
٥٥	 الدرس السابع: عوامل النزوع الديني
٥٦	 ١. نظرية الخوف
٥٦	 ٢. نظرية الجهل
٥٧	 نقد النظريتين
٥٩	 ملاحظات
٦١	 الدرس الثامن: عوامل العزوف الديني في أوروبا
٦١	 ١. قصور مفاهيم الكنيسة
٦٢	 ٢. العنف الكنسي
٦٣	 ٣. قصور المفاهيم الفلسفية
٦٥	 ٤. عدم نضوج المفاهيم الاجتماعية والسياسية
٦٦	 ٥. إبداء النظر من قبل غير الإخصائين
٦٧	 ٦. الفصل بين العبادة وبين السعادة الدنيوية
٦٩	 ٧. الفساد الأخلاقي والعملية

الفصل الثاني: مباحث التوحيد

٧٥	 الدرس الأول: أهمية معرفة الله
٧٦	 من هو الله؟
٧٧	 الله عند سقراط
٧٧	 الله عند أفلاطون
٧٧	 الله عند أرسطو
٧٨	 الله لدى الكنيسة في العصور الوسطى
٧٩	 الله عند غاليليو
٨٠	 الله عند نيوتن

٨٣	الدرس الثاني: الله في النظرية الإسلامية.....
٨٣	الله في القرآن الكريم.....
٨٩	الدرس الثالث: الجميع يعرفون الله.....
٨٩	بداهة وجود الله في القرآن الكريم.....
٩٠	بداهة وجود الله في سائر الكتب السماوية.....
٩١	الله في العصر الجاهلي.....
٩١	الاعتقاد بوجود الله لدى قوم نوح وعاد وثمود.....
٩٥	الدرس الرابع: الله والفطرة.....
٩٥	المعنى اللغوي.....
٩٦	الفطرة في القرآن الكريم.....
٩٧	فطرة الإنسان الإلهية.....
٩٧	إطلالة على نظرية الفطرة.....
٩٩	فطرية المعرفة الإلهية.....
١٠٣	الدرس الخامس: برهان النظم.....
١٠٤	تعريف النظم.....
١٠٤	المقدمة الأولى.....
١٠٥	المقدمة الثانية.....
١٠٥	تنتيهات.....
١٠٩	الدرس السادس: صفات الله تعالى.....
١٠٩	صفات الذات وصفات الفعل.....
١١٠	الصفات الثبوتية والصفات الفعلية.....
١١٣	الدرس السابع: العلم.....
١١٣	الشواهد القرآنية.....
١١٥	الدرس الثامن: القدرة.....
١١٥	الشواهد القرآنية.....
١١٦	تساؤل.....
١١٦	الجواب.....

١١٩.....	الدرس التاسع: الحياة.....
١١٩.....	الشواهد القرآنية.....
١٢١.....	الدرس العاشر: الإرادة.....
١٢٢.....	الشواهد القرآنية.....
١٢٣.....	الدرس الحادي عشر: الحكمة والعدل.....
١٢٤.....	العدل.....
١٢٥.....	الشواهد القرآنية.....
١٢٧.....	الدرس الثاني عشر: التوحيد.....
١٢٨.....	مراتب التوحيد.....
١٢٨.....	١. التوحيد الذاتي.....
١٢٩.....	٢. التوحيد الصفاتي.....
١٣٠.....	٣. التوحيد الأفعالي.....
١٣٠.....	آثار التوحيد الأفعالي.....

الفصل الثالث: مبحث النبوة

١٣٥.....	الدرس الأول: تمهيد.....
١٣٥.....	النبي والوحي.....
١٣٦.....	ثانياً: ما المراد من الوحي؟.....
١٣٩.....	تأثير الوحي على الأنبياء.....
١٤٣.....	الدرس الثاني: لزوم بعثة الأنبياء.....
١٤٣.....	البيان التفصيلي.....
١٤٥.....	مثال.....
١٤٧.....	الدرس الثالث: ثمار بعثة الانبياء.....
١٤٨.....	١. التعليم.....
١٤٩.....	٢. التزكية.....
١٤٩.....	٣. التذكير.....
١٥٠.....	٤. التحرير من القيود والاعلال.....
١٥١.....	٥. إقامة العدل.....
١٥١.....	٦. الأسوة والقُدوة.....

١٥١.....	الهدف الأساسي لبعثة الأنبياء.....
١٥٥.....	الدرس الرابع: عصمة الأنبياء.....
١٥٥.....	العصمة في تلقى الوحي وحفظه وإبلاغه.....
١٥٧.....	العصمة من الذنوب.....
١٥٨.....	سر عصمة الأنبياء من الذنوب.....
١٦١.....	الدرس الخامس: طرق إثبات النبوة.....
١٦١.....	١. جمع القرائن والشواهد.....
١٦١.....	٢. تنصيب النبي السابق على نبوة النبي اللاحق.....
١٦٢.....	٣. المعجزة.....
١٦٢.....	تعريف المعجزة.....
١٦٥.....	الدرس السادس: نبي الإسلام.....
١٦٥.....	لمحة تاريخية.....
١٦٦.....	طرق إثبات نبوة النبي الأكرم ﷺ.....
١٦٦.....	١. جمع القرائن.....
١٦٧.....	٢. تنصيب النبي السابق.....
١٦٩.....	٣. المعجزة.....
١٧٠.....	المعجزة القرآنية.....
١٧٥.....	الدرس السابع: ختم النبوة.....
١٧٥.....	دين أم أديان.....
١٧٦.....	النبي الخاتم.....
١٧٦.....	السّر في ختم النبوة.....

الفصل الرابع: مباحث الإمامة

١٨٣.....	الدرس الأول: الإمامة في الفكر الشيعي.....
١٨٣.....	نبذة تاريخية.....
١٨٣.....	تصورات خاطئة لتفسير الاختلاف الشيعي السني.....
١٨٤.....	النظرية السنية في الإمامة.....
١٨٤.....	النظرية الشيعية في الإمامة.....
١٨٥.....	المقارنة بين مقام الإمامة والنبوة.....

١٨٦.....	محاوّر الخلاف الأساسية في مسألة الإمامة.....
١٨٩.....	الدرس الثاني: ضرورة وجود الإمام.....
١٨٩.....	تمهيد.....
١٨٩.....	إثبات ضرورة وجود الإمام.....
١٩٢.....	علم الإمام وعصمته.....
١٩٢.....	نصب الإمام من قبل الله.....
١٩٥.....	الدرس الثالث: إمامة الإمام علي عليه السلام والأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام.....
١٩٥.....	إمامة الإمام علي عليه السلام في القرآن.....
١٩٦.....	آية الولاية.....
١٩٩.....	إمامة الإمام علي عليه السلام في السنة.....
١٩٩.....	حديث الغدير.....
٢٠١.....	دراسة سند الحديث.....
٢٠٣.....	دلالة حديث الغدير.....
٢٠٤.....	إطلالة على روايات أخرى.....
٢٠٥.....	إمامة سائر الأئمة عليهم السلام.....
٢٠٧.....	الأئمة الاثنا عشر في روايات أهل السنة.....
٢١١.....	الدرس الرابع: الإمام الثاني عشر عليه السلام.....
٢١٢.....	البيانات بظهوره عليه السلام في الأحاديث النبوية.....
٢١٣.....	الإمام المهدي عند أهل السنة.....
٢١٤.....	سر غيبة الإمام المهدي عليه السلام.....
٢١٦.....	فوائد وجود الإمام في عصر الغيبة.....

الفصل الخامس: مباحث المعاد

٢٢١.....	الدرس الأول: المعاد ومكانته في الفكر الإسلامي.....
٢٢١.....	الإيمان بالمعاد رديف الإيمان بالله.....
٢٢٣.....	الدرس الثاني: ضرورة المعاد.....
٢٢٣.....	أدلة ضرورة المعاد.....
٢٢٣.....	١. صيانة الخلقة من العبث.....
٢٢٣.....	٢. المعاد مقتضى العدل الإلهي.....

٢٢٤	٣. المعاد مقتضى الرحمة الإلهية.....
٢٢٤	أهداف وشبهات منكري المعاد.....
٢٢٩	الدرس الثالث: حقيقة الموت.....
٢٣٠	العلاقة بين الموت والنوم.....
٢٣٣	الدرس الرابع: البرزخ.....
٢٣٦	البرزخ في الروايات.....
٢٣٧	السؤال والحساب بعد الموت.....
٢٣٨	الميت يزور أهله.....
٢٤١	الدرس الخامس: القيامة في القرآن الكريم.....
٢٤١	تزلزل الأرض، الجبال، البحار.....
٢٤٢	انقلاب السماء والكواكب.....
٢٤٣	النفخة الأولى في الصور.....
٢٤٣	النفخة الثانية في الصور.....
٢٤٤	ظهور حاكمية الله وانقطاع الأسباب والأنساب.....
٢٤٥	محكمة العدل الإلهي.....
٢٤٧	يساقون أما إلى الجنة أو النار.....
٢٤٨	الجنة.....
٢٥٠	النار.....
٢٥٧	الدرس السادس: الشفاعة.....
٢٥٨	مفهوم الشفاعة.....
٢٥٨	نفي الشفاعة الباطلة وإثبات الشفاعة الحقّة.....
٢٦١	المصادر.....

مقدمة المؤلف

تمثل عقائد أي دين من الأديان الأسس والركائز التي يقوم عليها ذلك الدين، وأن جميع أوامره ونواهيه والوصايا التي يعرضها تستند إلى تلك الأسس والركائز، فكلما كانت الأسس قوية ومحكمة جعلت الإنسان المؤمن أكثر استعداداً للحركة نحو الكمال.

كذلك فساد العقيدة يوفر الأرضية المناسبة لجميع أنواع الفساد، الأخلاقي، الاجتماعي، السياسي، والثقافي. من هنا يكون المنطلق في رفع الفساد هو البدء في إعادة النظر في تلك العقائد وتصحيحها.

فإذا ما اقترنت المعرفة الصحيحة عن الإنسان، مبدأ العالم ومنتهاه، معرفة القادة والهداة الإلهيين، صفات الله، معرفة أسمائه تعالى، ومصير الإنسان في عالم الآخرة وغير ذلك من المعتقدات، بالإيمان الراسخ، حينئذٍ تعطي ثمارها المرجوة والمتمثلة بالتسليم المحض أمام الأوامر والنواهي الإلهية التي جاء بها السفراء المعصومون عليهم السلام.

من هنا تظهر أهمية الخوض في المباحث العقائدية وضرورة الدروس الكلامية للشباب المثقف والجيل الواعي بالإضافة إلى ضرورة تدوين كتب تتصف بالاتقان والعمق، وأن تطرح بأسلوب معاصر ولغة يستسيغها القارئ.

يعدّ هذا الكتاب محاولة في هذا المجال استجابة لطلب جامعة المصطفى العالمية، لمرحلة البكالوريوس في العلوم الإسلامية في أربع وحدات دراسية، وسميناه دروس تمهيدية في العقيدة الإسلامية.

نرى من الضروري هنا الإشارة إلى بعض التوصيات المساعدة في تدريس مادة الكتاب بنحو أكمل:

١. بما أنّ الكتاب وضع لمرحلة المقدّمات التي يكون الطالب فيها - عادة - من شريحة الشباب الذين لم يخوضوا - فعلاً - في غمار الأبحاث العقلية كالفلسفة والمنطق فيكون من الصعب عليه إدراك الاستدلالات المعقدة، من هنا كان من المناسب الابتعاد عن الاصطلاحات والمفاهيم المعقدة والاجتناب عن البراهين المعقدة جداً والاستعاضة عنها بعبارات مستساغة ومفاهيم واضحة وبراهين سهلة.

٢. تتمثل الخطوة الأولى في تدريس العقائد في البيان والوصف والتقرير، أمّا الخطوة الثانية فهي مرحلة الاستدلال والبرهان وإقامة الدليل، بعدها تأتي مرحلة الرد على الشبهات ودفع الإشكالات. الملاحظ في هذا الكتاب أنّه قد غلب عليه طابع المرحلة الأولى - مرحلة التوصيف وتنسيق العقائد الدينية - وإن كنّا قد ذكرنا بعض الأدلّة والبراهين الواضحة في كثير من أبحاث الكتاب.

٣. من الخصائص التي يميز بها هذا الكتاب هي أنّنا حاولنا في مجال بيان المعتقدات الشيعية الاستناد كثيراً إلى آيات الذكر الحكيم، ليستقي الطالب من أوّل الأمر أمّهات المسائل الدينية من أهمّ مصادرها الرئيسية وأتقنها. فليدرك الأساتذة الكرام أنّ هدفنا هو جعل الطالب على معرفة ودراية بمحتوى الآيات ودلالاتها لذلك نرى من المناسب أن يقوم الأساتذة الكرام بتدوين وكتابة الآيات التي تمّ الاستدلال بها على اللوحة وبيان مفرداتها وتوضيح دلالتها مع الإشارة أحياناً إلى بعض النكات التفسيرية لترسيخها في عقول الطلاب و أذهانهم ولخلق حالة من الأنس بآيات القرآن

الكريم عندهم، ولتحقيق تلك الغاية وجلب انتباه الطلاب إليها نرى من اللازم طرح بعض الآيات ضمن أسئلة الامتحان ويطلب منهم بيان مفرداتها وتوضيح دلالتها.

٤. تعرّضنا في مباحث قسم المدخل إلى مجموعة من الأبحاث الضرورية التي لم تتعرّض لها الكتب الكلامية المتعارفة، وبما أننا قد توسّعنا إلى حد ما في تلك الأبحاث نترك للأستاذ الكريم تشخيص ضرورة تدريسها أو بعضها إن لم يسعفه الوقت المقرر لتدريس المادة.

٥. حاولنا أن يكون الكتاب متوفراً على أحدث قواعد التأليف العلمي المعاصرة تدويناً وتقويماً.

٦. ذكرنا الكثير من الهوامش ليستفيد منها الأساتذة الكرام ويترك لهم تشخيص صلاحية الإشارة إليها أثناء الدرس.

٧. لتسهيل مراجعة الدرس وترسيخه في ذهن الطالب وضعنا في خاتمة كل فصل خلاصة الأبحاث المطروحة فيه، لكن هذا لا يعني الاستغناء بها عن دراسة المتن ومطالعة. في الختام أتقدم بأسمى آيات الشكر لكل الأخوة الذين غمروني بفضلهم الوافر لإخراج الكتاب إلى حيز النور، منهم:

سماحة حجّة الإسلام والمسلمين رحيميان مسؤول قسم الأبحاث وتدوين المتن الذي غمرني بثقته حينما رأيته أهلاً لمثل هذه المهمة - تأليف الكتاب - ولم يبخل عليّ في تقديم شتى أنواع المساعدة في هذا المجال، وحجّة الإسلام والمسلمين مستوفي الذي تكفل مشكوراً بمراجعة الكتاب بدقّة فائقة مع إبداء الملاحظات المهمة التي ساعدت في تعميق البحوث وتكميلها، والأخ الفاضل السيّد بابائي حيث تكفل مهمة تقويم النصّ وضبط العبارة، كما أتقدم بالشكر الجزيل للسادة أعضاء الهيئة العلمية في جامعة المصطفى التي أقرت الكتاب ضمن المتن الكلامية لمنهج الجامعة.

وفي الختام أعتذر للقراء الكرام عما في الكتاب من نقص راجياً منهم مد يد العون للتغلب عليها و آلا ينسوني من صالح دعائهم بالتوفيق في خدمة العلم والثقافة الإسلامية.

و أخيراً أتوسل إلى الباري تعالى بحرمة أوليائه الصالحين أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يرزقني كمال الإخلاص في القول والعمل والاستقامة على صراط الهدى وطريق الصلاح، وأن يعصمني من الزلل والخطل، كما أبتهل إليه تعالى أن يوفقني لخدمة العلم والدين، وأن يتقبل مني هذا القليل بفضل منه وأن يجعله ذخراً لي و زاداً ليوم فاقتي، وما توفيقني إلّا بالله العلي العظيم.

علي الشيرواني

قم - الحوزة العلمية

المدخل

نتعرّض في مباحث الكتاب إلى العقائد الإسلامية انطلاقاً من رؤية الشيعة الإمامية، و
كما معلوم بأنّ العناصر الأساسية لتلك العقائد - التي يجب على كلّ مسلم الإيمان بها -
تسمّى بأصول الدين، وعلم الكلام هو العلم المتكفّل ببيانها والدفاع عنها.
من هنا نرى من الضروري قبل الدخول في المباحث الأساسية التعرّض إلى بعض
الأبحاث التي تتعلّق بالدين وعلم الكلام.

الفصل الأوّل

علم الكلام والدين

الدرس الأوّل

علم الكلام

لا يعتبر علم الكلام من العلوم الخاصّة بالدين الإسلامي الحنيف خاصّة، بل من الممكن أن يكون لكلّ دين من الأديان علم كلام خاصّ به، وله أن يثير الكثير من المسائل الكلامية التي يريد التعرّض لها، إلّا أنّ هذا الكتاب متمحّض للبحث عن الكلام الإسلامي، من هنا كلما جاءت الكلمة مطلقة يراد منها خصوص الكلام الإسلامي.

وظائف علم الكلام

يتكفّل علم الكلام بثلاث وظائف مهمّة :

(أ) بيان عقائد الدين: من الواضح أنّ هناك حاجة ماسة لبيان العقائد الدينية وعرضها بصورة منظمة وبنسق علمي وطرحها على شكل طبقات يترتّب بعضها على البعض الآخر؛ والسبب في ذلك أنّ مصادر التشريع الرئيسية (القرآن الكريم وكلام المعصومين) لم تطرح - وفقاً لطبيعتها - تلك العقائد بطريقة منظمة وممنهجة.

فقد تعرّض القرآن الكريم للحديث عن كثير من المطالب والأبحاث في حقول معرفية مختلفة ومتنوعة منها الأبحاث السياسية، التاريخية، الاجتماعية، الثقافية، الفردية، الحقوقية، الفقهية، وغيرها إلى جانب المسائل والأبحاث العقائدية، من هنا

مست الحاجة إلى بذل الجهود العلمية لأجل استخراج و تنظيم جميع تلك الابحاث، ومن جملتها الأبحاث الكلامية، وقد وقعت مسؤولية هذه المهمة في المجال العقائدي على كاهل المتكلمين، أي: العلماء والمتخصصون في علم الكلام.

ب) شرح العقائد الدينية وتفسيرها: بعد أن ينتهي المتكلم من استخراج العقائد الدينية وبيانها يشرع في شرحها وتفسيرها، وبيان المراد منها، ثم تحليلها وإثباتها. فعلى سبيل المثال بعد أن يرجع المتكلم إلى المصادر الدينية وبراها تؤكد أن الله تعالى واحد حينئذ يسعى ومن خلال الأدلة والبراهين العقلية لتثبيت هذا المعتقد، كذلك تقع على كاهل المتكلم مسؤولية التنسيق بين المعتقدات الدينية بعضها مع البعض الآخر وحل التعارض الذي قد يبدو بينها.

ج) الدفاع عن العقائد الدينية ورد الشبهات المثارة: من المهام التي يتكفل المتكلم بها هي مهمة الدفاع عن حريم العقائد الدينية في مقابل الإشكالات المثارة والاعتراضات التي يطرحها خصوم الدين.

تعريف علم الكلام

يمكن تعريف علم الكلام - انطلاقاً من المهام التي يتكفل بها - بأنه: العلم المتكفل ببيان العقائد الدينية، تحليلها وإثباتها، والدفاع عنها أمام الشبهات والاعتراضات المثارة.^١ وقد أخذ الشهيد المطهري في تعريفه لعلم الكلام الوظائف الثلاث المذكورة أيضاً، حيث عرف علم الكلام بما يقرب من التعريف الذي ذكرناه، فقال:

علم الكلام هو العلم الباحث عن العقائد الإسلامية، (أي ما يجب الاعتقاد والإيمان به): ١. توضيحاً، ٢. استدلالاً، ٣. دفاعاً عنها.^٢

١. انطلقنا في التعريف من هدف علم الكلام والوظيفة التي تقع على عاتقه، من هنا أشبه هذا التعريف من هذه الجهة تعريف علم المنطق الذي هو آله قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير.

٢. آشنائي با علوم إسلامي: المطهري، مرتضى: ٩/٢.

موضوع علم الكلام

للكثير من العلوم موضوع واحد محدد، فموضوع علم الحساب العدد، بمعنى أن جميع مسائل هذا العلم وقضاياها تدور حول أحكام العدد، إلّا أن ذلك لا يعني بالضرورة أن ينحصر موضوع كل علم بموضوع واحد، فقد يكون للعلم أكثر من موضوع ومن تلك العلوم علم الكلام، فتارة يبحث عن الله تعالى وصفاته، وأخرى يبحث عن القيامة، ثالثة يكون مصب بحثه النبوة بصورة عامة والنبى الأكرم ﷺ بصورة خاصة.

ثم إن موضوع علم الكلام لا يحدد مسائله، بل الذي يحددها هو الوظائف والأهداف التي يتكفل بها علم الكلام.

وجه التسمية

هناك العديد من النظريات المطروحة في بيان وجه تسمية علم العقائد الاسلامية بعلم الكلام نشير إلى بعضها :

١. إنّما سمي هذا العلم بعلم الكلام؛ لأنه يمنح رواده وأصحابه القدرة على الكلام وقوة الاستدلال والمحااجة.

٢. إنه سمي بذلك؛ لأن علماء الفن والمتكلمين الأوائل كانوا يشعرون في كتبهم بكلمة الكلام في الجبر، الكلام في إثبات الصانع، وهكذا في غير ذلك من القضايا العقائدية.

٣. الوجه الثالث للتسمية، أن مسألة خلق كلام الله تعالى وعدمه لما احتدم فيها البحث والنزاع بين المفكرين الإسلاميين شكلت نقطة عطف في هذا العلم فسُمي على أثرها بعلم الكلام.

وبما أنه لا طائل من وراء الخوض في تفاصيل هذه القضية نرى من الضروري الاكتفاء بهذا القدر من الكلام.

تاريخ علم الكلام والعوامل المؤثرة في نشوئه

من الصعب جداً على الباحثين والمفكرين تحديد الانطلاقة الأولى لهذا العلم وتحديد جذوره التاريخية بنحو محدد ودقيق جداً، إلا أنه يمكن القول: بأنه قد أثيرت في الأوساط الإسلامية في النصف الثاني من القرن الأول الهجري مجموعة من الأبحاث الكلامية من قبيل: الجبر، الاختيار، العدل. وأن أول مدرسة رسمية طرحت فيها تلك الابحاث هي مجلس دروس الحسن البصري (ت: ١١٠هـ). وبمرور الزمان اتسعت رقعة البحث في المسائل الكلامية وظهر الكثير من الفرق الكلامية المختلفة، كالخوارج، القدرية، المعتزلة، الجهمية، المرجئة... إلخ. وقد أشارت كتب الفرق والمذاهب أو الملل والنحل إلى عقائدهم بنحو مفصل فلا ضرورة للخوض فيها هنا لخروجها عن موضوع البحث.

لكن يمكن القول من وجهة نظر أخرى: إذا كان المراد من علم الكلام هو طرح المسائل العقائدية والدينية بصورة استدلالية فحينئذ يكون منطلقه وجذره التاريخي الأول هو القرآن الكريم نفسه وكلام النبي الأكرم ﷺ وخاصة كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، الذي تعرض في مواضع كثيرة لتلك الأبحاث العقائدية مع بيان دليلها العلمي وإقامة البرهان عليها.

كذلك يعتبر القرآن الكريم وكلام المعصومين عليه السلام العامل الأساسي في تطوير علم الكلام وانتشاره وتوسيع رقعة مباحثه، وذلك من خلال الدعوة إلى التأمل والتدبر في القضايا المطروحة والأفكار المعروضة والنهي عن التقليد والتبعية العمياء. وهناك مجموعة أخرى من العوامل التي ساعدت في تطور العلم وانتشاره، منها:

١. اعتناق الأقوام الأخرى وأصحاب الديانات المختلفة للدين الحنيف، فجاءت تلك الأقوام وهي تحمل جذورها ورواسبها الفكرية السابقة وطريقة تفكيرها الخاص في معالجة القضايا العقائدية.

٢. وجود اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى إلى جانب المسلمين ممّا ساعد على تعرف بعضهم على عقائد البعض الآخر.

٣. ظهور الزنادقة الملحدين في الوسط الإسلامي وإثارتهم للشبهات بين المسلمين والدخول معهم في مناظرات ومناقشات فكرية وعقائدية في شتى الميادين الفكرية. هذه العوامل، بالإضافة إلى حث القرآن الكريم والمعصومين عليه السلام على التفكير الحر والمستقل، هي التي ساعدت على أن يعي المسلمون ضرورة البحث الكلامي وأهمية التحقيق في القضايا العقائدية. ومن هنا ظهر الكثير من المتكلمين البارزين في كل من القرن الثاني والثالث والرابع الهجري.

الكلام الجديد

راج وبشكل ملحوظ في العقود الأخيرة مصطلح «الكلام الجديد» في مقابل «الكلام القديم»؛ وذلك بسبب ما أثاره بعض المفكرين - الغالب أنهم من الغربيين والملحدين - من إشكالات واعتراضات لم تكن مطروحة سابقاً ضد المعتقدات الدينية، والتي تقتضي الإجابة عنها الاحاطة بالعلوم المعاصرة والفلسفة الحديثة والاستفادة من معطياتها.

الأمر الذي اقتضى ضرورة التحوّل في علم الكلام. ومن الواضح أنّ التحوّل في علم الكلام لا يعني التحوّل في أصل العقائد الدينية، بل المراد منه أنّ الشبهات المستحدثة تطلّب إجابة كلامية معاصرة، وبهذا حصل تطوّر كبير في الأبحاث الكلامية، بنحو ظهر كلام جديد ومتمايز عن الكلام القديم الذي كان فاقداً لتلك الأبحاث، من هنا صحّ إطلاق عنوان الكلام الجديد عليه.

الجدير بالذكر أنّ بعض المفكرين ذهب إلى أنّه من الأفضل إطلاق عنوان المسائل الكلامية المستحدثة بدلاً عن التسمية بعلم الكلام الجديد.

فالتزاع إذاً لفظي، ولا حاجة للخوض فيه أكثر من ذلك لاتضاح المعنى المراد منه أولاً ولانعدام الثمرة العملية ثانياً.

خلاصة البحث

١. أصول الدين مصطلح يطلق ويراد منه العناصر الأصلية للعقائد الإسلامية التي يجب على كل مسلم الاطلاع عليها والاعتقاد بها.

٢. لعلم الكلام ثلاث وظائف أساسية: (أ) بيان المعتقدات الدينية، (ب) تبيينها وشرحها، (ج) الدفاع عنها ورد الشبهات المثارة حولها. فعلم الكلام هو العلم المتكفّل ببيان العقائد الدينية، تحليلها وإثباتها، والدفاع عنها أمام الشبهات والاعتراضات المثارة.

٣. ليس لعلم الكلام موضوع واحد، وأن الذي يحدد مسائل علم الكلام هو غايته ووظائفه لا موضوعه.

٤. الوجه في تسميته بعلم الكلام؛ لأنه يمنح رواه وأصحابه القدرة على الكلام وقوة الاستدلال؛ أو لأن علماء الفن والمتكلمين الأوائل كانوا يشرون في كتبهم بكلمة الكلام في كذا؛ أو لأن مسألة خلق كلام الله تعالى وعدمه هي من المسائل المهمة الأولى التي احتدم فيها البحث والنزاع في أوساط المفكرين الإسلاميين.

٥. ترجع الجذور التاريخية الأولى لإثارة المسائل العقائدية في الأوساط الإسلامية إلى القرآن الكريم وكلام النبي الأكرم ﷺ وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام، لكن أول مدرسة رسمية طرحت فيها تلك الأبحاث هي مجلس دروس الحسن البصري في النصف الثاني من القرن الأول.

٦. العوامل التي ساعدت في انتشار العلم وتطوره: الآيات القرآنية وكلمات المعصومين عليه السلام إضافة إلى:

(أ) اعتناق الأقوام الأخرى للدين الحنيف، (ب) وجود أتباع الديانات الأخرى إلى جانب

المسلمين، ج) ظهور الزنادقة والملحدين وإثارة الشبهات في الوسط الإسلامي.

٧. حصل في العقود الأخيرة تحوّل كبير في الأبحاث الكلامية سببه الرئيسي طرح شبهات وإثارة إشكالات مستحدثة ضد العقائد الدينية الأمر الذي أدّى إلى ضرورة أن تكون الإجابة معاصرة، ولقد كانت الشبهات بحد من الكثرة والسعة حتّى اعتقد البعض حدوث علم جديد باسم علم الكلام الجديد، لكن هناك من يرفض ذلك ويرى أنّه لم يحصل علم جديد، وإنّما أثّرت مسائل جديدة وقضايا مستحدثة لا تستحقّ وضعها تحت عنوان علم جديد.

الدرس الثاني

الدين

تعريف الدين

الدين لغة: بمعنى الطاعة والجزاء. وقال صاحب مقاييس اللغة: هو الحساب والجزاء. وأيُّ ذلك كان فهو أمرٌ يُنقاد له. وعرفه الراغب الإصفهاني في المفردات بقوله: الدينُ يُقال: للطاعة والجزاء، واستعير للشرعية، ولكنّه يقال اعتباراً: بالطاعة والانقياد للشرعية.

الدين في القرآن الكريم

استعملت كلمة الدين في القرآن الكريم في معانٍ مختلفة. فتارة جاء بمعنى الجزاء والحساب،^١ وتارة أخرى بمعنى القانون والشرعية،^٢ وكذلك جاء مصطلح الدين بمفهوم الطاعة والعبودية.^٣ وقد حمل المصطلح في أحيان أخرى

١. راجع: الفاتحة: ٤: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ والصافات: ٥٣؛ الواقعة: ٨٧؛ الحجر: ٣٥؛ الذاريات: ٦.

٢. راجع: التوبة: ٣٣: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...﴾.

٣. كقوله تعالى في سورة يونس الآية: ٢٢: ﴿...دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾.

معنى واسعاً، بحيث شمل عبودية الأصنام أيضاً وهذا ما أشار إليه قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾^١.

المعنى الاصطلاحي للدين عند المتكلمين

إن بيان المعنى اللغوي والاستعمالات القرآنية لمصطلح الدين خارج عن إطار الهدف الأصلي لهذه الدراسة، والمهم هنا أن نسلط الضوء على المعنى الاصطلاحي لكلمة الدين «Religion» في علم الكلام.

اختلفت كلمة الباحثين والمفكرين الغربيين في الشأن الديني في هذا المجال وقد كتبوا الكثير من الأبحاث في هذا المجال اقترحوا خلالها مجموعة من التعاريف، نشير إلى بعض منها :

١. قال وليام جيمز: الدين عبارة عن المشاعر، الأعمال والحالات المعنوية التي يمارسها الأفراد بانفراد مقابل الإله.

٢. وعرفه بارسونز: بأنه مجموعة من العقائد، الأعمال، الرسوم والمؤسسات الدينية،^٢ التي أوجدها الإنسان في المجتمع بأشكال مختلفة.

٣. أما هيربرت اسبنسر فقد عرفه بقوله: الدين هو الاعتراف بحقيقة مفادها أن جميع الموجودات هي تجليات لموجود أسمى من علمنا ومعرفتنا.^٣

صحيح إن بعض المفكرين ذهب إلى أنه من الصعب تعريف الدين تعريفاً جامعاً مانعاً، وأن مثل هذا التعريف أصبح اليوم عزيز المنال، بل يعدّ من الأمور المستحيلة، إلّا

١. الكافرون: ٦١. قال العلامة الطباطبائي في تفسيره للآية الكريمة: أي دينكم وهو عبادة الأصنام يختص بكم ولا يتعداكم إلى ديني يختص بي ولا يتعداني إليكم (الميزان: ٣٧٣/٢٠).

٢. ويقصد بها المؤسسات الاجتماعية المتعلقة بالدين كالحوزات العلمية، المساجد وغير ذلك.

٣. فلسفة الدين، جان هيك: ٢١ و٢٦.

أن ذلك لا يمنع من عرض صورة عن المراد من الدين وأن يبين الباحث مراده من الدين، من هنا نقول: إن مرادنا من الدين في هذه الدراسة هو:

مجموعة العقائد و الدساتير العملية التي يدعي أصحابها أنها صادرة من خالق العالم.

ثم إن الدين الحق هو الدين الصادر من خالق الكون حقيقة. وحيث أن يكون مطابقاً للواقع ومؤمناً لسعادة الإنسان. من هنا نرى أن بعض المفكرين المسلمين يعرف الدين بأنه: مجموع ما أوحى به الله تعالى لأنبيائه من أجل هداية البشرية وسعادتها. ومن الواضح أن هذا التعريف لا يشمل إلا الأديان الحقّة وبهذا تكون دائرته أضيق من دائرة التعريف الأول.

وعلى كل حال، لا بدّ من الالتفات إلى أن قضية الاعتقاد بوجود خالق الكون تعدّ ركناً أساسياً ودعامة رئيسة من دعائم الدين، وأن كلّ اتجاه ينكر ذلك - كالماركسية - لا يمكن إطلاق مصطلح الدين عليه.

خلاصة البحث

١. الدين لغة: بمعنى الطاعة والجزاء، وقد استعمل مصطلح الدين في القرآن الكريم بمعنى الجزاء والحساب، القانون والشرعية، الطاعة والعبودية.
٢. المراد من الدين في علم الكلام هو: مجموعة العقائد والدساتير العملية التي يدعي أصحابها أنها صادرة من خالق العالم.
٣. الاعتقاد بوجود خالق الكون يعدّ ركناً أساسياً ودعامة رئيسة من دعائم الدين، وأنّ كلّ اتجاه ينكر ذلك - كالماركسية - لا يمكن إطلاق مصطلح الدين عليه.

الدرس الثالث

الأبعاد المختلفة للدين

صَنَّفَ المفكِّرون والعلماء المسلمون مجموعة التعاليم الدينية ضمن ثلاث أقسام، هي:

١. العقائد

يشتمل هذا القسم على التعاليم التي تخلق لدى الإنسان معرفة صحيحة عن عالم الوجود، خالقه ومبدأ العالم ومصيره، بغض النظر عن كون ذلك الاعتقاد شرطاً للإسلام أم لا. وعلى هذا الأساس يدخل في هذا القسم كل قضية دينية تتعرض لوصف ظواهر العالم. ومن هنا يظهر أن العقائد الدينية أعم من أصول الدين؛ وذلك لأن أصول الدين تختص بتلك الأمور التي يكون الاعتقاد والإيمان بها شرطاً في الإسلام، كأصل التوحيد، النبوة والمعاد. ومن الواضح أن علم الكلام يختص بهذا القسم من الدين، فمن هنا يطلق عليه عنوان «علم العقائد» أيضاً.

٢. الأخلاق

دائرة هذا القسم تشمل تلك الطائفة من التعاليم الدينية ذات الصلة بخلق الإنسان وشمائله حسنة كانت أم سيئة، والصفات الإنسانية الحميدة وبيان سبل الوصول إليها

والتحلي بها، من قبيل: التقوى، العدالة، الصدق والأمانة. ولقد أشار الشهيد المطهري إلى ذلك بقوله:

يراد من قسم الأخلاق القضايا والدساتير التي تبين للإنسان كيف يكون إنساناً من ناحية الصفات الروحية والخصال المعنوية.^١
وعلم الأخلاق يتكفل ببيان وشرح هذا القسم من الدين.

٣. الأحكام

هذا القسم من الدين يتعلّق بالجانب العملي، أي التعاليم الدينية التي تحدد للإنسان ما هي الأعمال التي يجب القيام بها (الواجبات)، وأي الأعمال التي من الأفضل القيام بها (المستحبات)، وما هي الأعمال التي لا بدّ من اجتنابها (المحرمات)، والأعمال التي يفضل اجتنابها (المكروهات)، وكذلك بيان الأعمال المباحة. وتقع مسؤولية بيان هذا القسم من الدين على عاتق علم الفقه.

تنبيه

ما مرّ يمثل رأي مشهور علماء المسلمين في تحديد أبعاد الدين؛ إلّا أنّ المفكرين الغربيين لهم رؤية أخرى فهم بالإضافة إلى التسليم بما مرّ من الأبعاد الثلاثة للدين أضافوا إليها أبعاداً أخرى.

ومن تلك الأبعاد التي أضافوها للدين هو البعد القصصي (الأسطوري). فقد ورد في المتون المقدسة للأديان الإلهية مجموعة من القصص ذات طابع مقدس، وفي الغالب يكون لها أثر معنوي، من قبيل: قصص الأنبياء الإلهيين. وقد تعرض القرآن للكثير من تلك القصص وأورد العديد من تلك الحكايات.

١. آشنائي با علوم اسلامي: ٩/٢ - ١٠.

لم ينحصر الغرض والمغزى الأساسي من سرد تلك الحكايات والقصص في القرآن الكريم في الجانب السردى الرامى إلى زيادة المعلومات لدى الناس، بل الهدف الأساسي والغاية الأصلية من عرضها تكمن في تعزيز البعد التربوي والوعظي والاستفادة منها كعبر يعتمدها الإنسان في تصحيح مسيرته الحياتية.

وبما أن المفكرين الغربيين والباحثين في الشؤون الدينية ينطلقون في الغالب من نظرتهم للديانتين المسيحية واليهودية، التي قد تعرضت متونها الدينية للتحريف والوضع واستطاعت الأسطورة أن تشق طريقها إليها، حيث تجد فيها الكثير من القصص الخرافية البعيدة كل البعد عن المنطق العقلي، من هنا اضطروا للأذعان بأن القصص الدينية الواردة في المتون المقدسة يمكن أن تكون مجعولة؛ وذلك لأن الهدف الأصلي منها هو بعدها التربوي والتعليمي، إلّا أن ذلك لا يصدق بحال من الأحوال على القصص القرآني ولا يمكن القبول به؛ وذلك لأن القرآن الكريم حق محض لا سبيل للباطل إليه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^١

نعم، نحن نعتقد بأن بعض قصص القرآن ذات جنية تمثيلية،^٢ يراد منها بيان الحقائق المعقولة وغير المحسوسة بصورة محسوسة، ومن الواضح أن هناك فرقاً كبيراً بين التمثيل و الجعل.

خلاصة البحث

١. تصنف مجموعة التعاليم الدينية ضمن ثلاث أقسام: العقائد، الأخلاق، الأحكام.
٢. يشتمل قسم العقائد على التعاليم التي تخلق لدى الإنسان معرفة صحيحة عن عالم

١. فصلت: ٤٢.

٢. راجع على سبيل المثال: الحشر، ٢١؛ فصلت، ١١. والجدير بالذكر أن حمل الآية على التمثيل إنما يصح في حالة وجود القران والشواهد المؤيدة للحمل على التمثيل.

الوجود، خالقه، ومبدأ العالم ومصيره، فيدخل في هذا القسم كل قضية دينية تتعرض لوصف ظواهر العالم، وأن العلم المختص بها الشأن هو علم الكلام الذي يطلق عليه أيضاً علم العقائد.

٣. أما قسم الأخلاق فيشمل تلك الطائفة من التعاليم الدينية ذات الصلة بخلق الإنسان وشمائله حسناتها وسيئها، وبيان سبل الوصول إليها، وأن العلم المختص بهذا الشأن هو علم الأخلاق.

٤. قسم الأحكام من الدين يبحث في تشخيص الواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات بالإضافة إلى المباحات، وأن العلم المتكفل بهذه المهمة هو علم الفقه.

٥. بالإضافة إلى الأبعاد المذكورة يوجد في المتون الدينية مجموعة من القصص والحكايات ذات البعد التربوي والوعظي التي لها تأثير أخلاقي غالباً، وقد أطلق الباحثون الغربيون عليها عنوان البعد القصصي (الأسطوري). وقالوا: بأنه من الممكن أن تكون القصص الدينية الواردة في المتون المقدسة مجعولة، إلا أن ذلك لا يصدق بحال من الأحوال على القصص القرآني.

الدرس الرابع

ضرورة الدراسة الدينية

في البدء لا بدّ من معرفة العامل أو العوامل التي تبين ضرورة دراسة الأديان والتمييز بين صحيحها وسقيمها والالتزام بالصحيح منها.

لأرب أن عقل كلّ إنسان حر التفكير يحكم بضرورة تلك الدراسات ووجوبها وأنّه لا يصحّ التخلف عنها بأي حال من الأحوال. فالعقل البشري يحكم بأنّه لا بدّ من البحث والتنقيب والتحقيق فيما يدعيه أدعياء النبوة الإلهية والرسالة السماوية ليميز الكاذب منهم عن الصادق، ومن ثبت صدقه وجب الالتزام بأوامره ونواهيه، وذلك:

١. إنّ الإنسان باحث عن السعادة والكمال ذاتاً انطلاقاً من غريزة حبّ الذات التي تعدّ من أبرز عوامل الحركة لدى الإنسان.

٢. تلخص دعوى أدعياء النبوة بأنّ: من اعتقد بتعاليمها والتزم بها ساقته إلى الحياة السعيدة الخالدة، ومن تمرد عليها زلت به قدمه إلى الجحيم والعذاب الأليم.

٣. يمكن احتمال صحّة هذه الدعوى، بمعنى أنّ الإنسان لا يملك الدليل القاطع على بطلانها.

٤. بما أنّ المحتمل (السعادة والشقاء الابدیین) مهمّ جدّاً بنحو لا ترقى أي قضية إلى تلك الأهميّة، من هنا يحكم العقل البشري بأنّه لا بدّ من التحقق من صحّة ذلك

المدعى أو عدمه حتى مع فرض كون احتمال الصدق ضعيفاً، فكيف إذا كان الادعاء محفوفاً بالقرائن والشواهد المؤيدة والداعمة له؟!

فلو أنّ ضريراً ما كان يسير في الطريق فأخبره رجل بأنه إن سار بالاتجاه الشمالي فسوف يقع بعد خطوات في هوةٍ سحيقة لا يمكن النجاة منها، أما إذا سار صوب اليمين فسيصل إلى حديقة غناء يبقى منعماً فيها إلى الأبد، واحتمل الضرير صحة ما يقوله ذلك الرجل، فلارِيب هنا أنّ عقله يحكم بأنه إن لم يجب الاعتماد على قول المخبر فعلى أقلّ تقدير أنّه يحكم بضرورة الاحتياط وتغيير المسير نحو الجهة التي يحتمل فيها السلامة.

من هنا حينما يعلم الإنسان بأنه وعلى مرّ التاريخ جاءت سلسلة من الرجال العظام بدعوى النبوة مدعين بأنهم مبعوثون من قبل الباري تعالى ليرسموا للإنسان طريق السعادة الأبدية، وقد بذلوا جهوداً جبارة في طريق إبلاغ الرسالة واسترخصوا الغالي والنفيس في هذا المجال متحملين أنواع العناء والآلام وعلى رأسها التضحية بالنفوس، فلا ريب أنّ العقلانية تقتضي ألا يمر الإنسان على هذه الدعوى مرور الكرام، بل لا بدّ من التحقيق والبحث في صحة ذلك المدعى وترتيب الأثر عليه.

تقرير البرهان ببيان آخر

إنّ من مسلمات حكم العقل دفع الضرر المحتمل، وهذا الحكم متوقّف في قوته وضعفه على قوّة وضعف الاحتمال والمحمّل، فكلما قوي احتمال الضرر أو كان المحتمل خطيراً، قوي حكم العقل بوجوب الامتناع وضرورة التحرز منه.

ومن الواضح أنّ الضرر المحتمل والمترتب على الأعراض عن الدين هو الخلود في العذاب الأليم، وبما أنّ هذا الضرر (المحمّل) خطير وعظيم جدّاً، من هنا تشتدّ قوة حكم العقل بوجوب دفع ذلك الضرر المحتمل حتّى لو كان احتمال الصدق ضعيفاً.

وبالإضافة إلى غريزة حبّ الذات وجلب النفع ودفع الضرر، هناك ميل آخر يدفع الإنسان للتحقيق والبحث في شأن الدين، هو الميل الفطري نحو المعرفة وإدراك الحقائق والواقعات، فالإنسان ميل فطرياً للبحث عن الحقيقة، وأنّ ذلك الميل - غريزة حبّ الاستطلاع - معجون مع روحه وهو الذي يحركه نحو التفكير والتحقيق في صحّة وسقم القضايا الدينية.

هل العالم مخلوق؟ من هو خالقه؟ ما هي صفاته؟ ما نوع العلاقة بين الإنسان وخالقه؟ هل للإنسان بعد آخر (روح) إضافة إلى بعده المادي؟ هل الموت يعني فناء الإنسان أو هناك عالم وحياة أخرى؟ وما هي العلاقة بين الحياة الدنيا وتلك الحياة الآخروية؟ هذه التساؤلات وغيرها لا تدع للإنسان الباحث عن الحقيقة مجالاً للاسترخاء واللامبالاة، بل تبقى تلاحقه حتّى يحصل على الإجابة المقنعة عنها. ويمثل قسم العقائد من كلّ دين مجموعة الإجابات التي يوفرها الدين عن تلك الأسئلة.

خلاصة البحث

١. كلّ إنسان عاقل يحكم بضرورة دراسة الأديان والتمييز بين صحيحها وسقيمها؛ وذلك: (أ) إنّ الإنسان باحث عن السعادة والكمال ذاتاً. (ب) تتلخص دعوى أدعياء النبوة بأنّ الحياة السعيدة الخالدة والعذاب الأليم يتوقّفان على الالتزام بتعاليم الأنبياء وعدمه. (ج) احتمال صحّة هذه الدعوى. (د) قوّة المحتمل تجبر ضعف الاحتمال، انطلاقاً من هذه الأصول الأربعة يحكم العقل البشري بأنّه لا بدّ من البحث والتنقيب لإحراز صحّة المدعى أو عدمه، لدفع ذلك الضرر العظيم (الشقاء الأبدي) وتحصيل النفع الكبير (السعادة الخالدة).

٢. بالإضافة إلى غريزة حبّ الذات وجلب النفع ودفع الضرر، هناك ميل آخر يدفع الإنسان للتحقيق في شأن الدين لإثبات صحّة المدعى.

الدرس الخامس

ما ينتظره الانسان من الدين

تحدثنا في البحث السابق عن ضرورة الدراسة والتحقيق حول الأديان وتوصلنا إلى أن كل إنسان حرّ التفكير يجد ضرورة ذلك عقلاً، وأنّ هناك الكثير من البواعث الحاثّة على ذلك. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: ما حاجة الإنسان إلى الدين وما هي الفائدة التي يجنيها منه؟ وبعبارة أخرى: ماذا يتوقّع البشر من الدين؟

يمكن الإجابة عن السؤال المطروح على نحو الإجمال بأن نقول: إنّ الإنسان يتوقّع من الدين أن يأخذ بيده ويوصله إلى السعادة والكمال التامّين على الصعيدين الدنيوي والأخروي. وهذا ليس بالأمر الهين، بل هو أمر عظيم جدّاً لا يمكن تحقّقه إلّا من خلال الدين، بل لا يوجد أي بديل يحلّ محلّ الدين في هذا المجال.

وبطبيعة الحال هناك الكثير من الأمور الجزئية التي ينتظرها الإنسان من الدين إلى جانب ذلك الهدف الكبير والأساسي.

فالإنسان ينتظر من الدين:

١. أن يكون قابلاً للإثبات والبرهنة عليه، بمعنى أن يكون مدعوماً بالمنطق العقلي.

وبعبارة أخرى: عدم بطلان أصوله عقلاً.

٢. أن يضفي على الحياة معنى جديداً ويمنحها طعماً خاصاً، بمعنى أنه يخرج الإنسان من حالة الخواء الروحي ويزيل عن ذهنه فكرة عبثية الحياة.
 ٣. التطلع إلي المستقبل، وبعث الشوق والأمل في النفوس.
 ٤. امتلاك القدرة على إضفاء القداسة على الأهداف الإنسانية والاجتماعية.
 ٥. يخلق في الإنسان صفة الالتزام وتحمل المسؤولية.
- ويعدّ التوقعان الأول والثاني من أبرز تلك التوقعات.
- فالتوقع الأول - معقولة أصول عقائد الدين ومنطقيتها - يوفر الأرضية المناسبة للأذعان به والتسليم بما يطرحه من مفاهيم وقيم ويزيل عنه عوامل الإبهام والخفاء.
- وإذا أردنا أن نبين التوقع الثاني بشكل أوضح فينبغي أن نقول: إن الحياة البشرية انطوت - دائماً - على المتاعب والآلام وتحمل المصاعب والمحن، بمعنى أن الإنسان يرى نفسه دائماً يخوض في دوامة من المشاكل ويعيش حالة غير مستقرة. ومن الواضح أن بعض تلك الأمور يمكن السيطرة عليها ومعالجتها من خلال أعمال العقل والتدبر أو من خلال اعتماد التقنية الحديثة، لكن هناك طائفة أخرى من تلك الأمور لا يمتلك الإنسان القدرة على معالجتها اعتماداً على قواه وقدراته الذاتية، منها:
- (أ) بما أن الإنسان باحث عن الحقيقة ويعيش حالة تقصي الحقائق من هنا تكتنفه حالة من القلق الشديد خشية الوقوع في الجهل والخطأ.
 - (ب) لما كان الإنسان يحب الخير ويريد أن يحيا حياة طاهرة منزهة من الخطايا، من هنا تقلقه الخشية من الانحراف وزلة القدم في مسيرته الحياتية.
 - (ج) ميل الإنسان للخلود والحياة الأبدية يجعله يعيش حالة القلق، الخشية من أن يكون الموت نهاية للحياة وانعداماً لها بنحو مطلق.
 - (د) ميل الإنسان للكمال المطلق يجعله يقلق من كل أنواع النقص والمحدودية.

هـ) عندما يقارن الإنسان بينه وبين الآخرين من نوعه يرى نفسه - انطلاقاً من الولادة وطي مراحل الحياة - لا يمتلك ما يمتلكه الآخرون من الذكاء المفرط أو القوى البدنية الشديدة ... إلخ. من هنا ترعجه هذه القضية بشدة وتخلق له حالة من عدم الاستقرار النفسي.

ومن الواضح أنّ المعالج الواقعي والفاعل لتلك الأمور هو الدين فهو الذي يضيف على الحياة معنى خاصاً يجعل الإنسان قادراً على أن يعيش حالة الاستقرار الروحي والهدوء النفسي وتمنحه القدرة على تحمّل أنواع المحن والشدائد بسهولة.

فإذا ما اعتقد الإنسان بوجود خالق للكون حكيم رحمان رحيم غني لا يخل على عباده، وأنه على مسافة واحدة من جميع عباده لا تقربهم إليه إلّا التقوى، وأنه عادل لا يظلم مثقال ذرة، حينها تزول عنه كلّ أنواع القلق والخشية وتنجلي عن قلبه كلّ الهواجس المخيفة وتبدل إلى حالة من الاستقرار والرضا، بل يعيش حلاوة وله العاشق لمعشوقه وانتظار ساعة اللقاء والوصال. وهذا بعينه ألم العارفين الذين لا يرتضون علاجه إلّا بلقاء الحبيب.

خلاصة البحث

١. إنّ التوقع الأساسي للإنسان من الدين هو أن يأخذ بيده ويوصله إلى السعادة والكمال التامين على الصعيدين الدنيوي والأخروي.
٢. هناك الكثير من الأمور الجزئية التي يتوقعها الإنسان من الدين إلى جانب ذلك الهدف الكبير، منها (١): أن يكون قابلاً للإثبات والبرهنة عليه. (٢) أن يضيف على الحياة معنى جديداً ويمنحها طعماً خاصاً. (٣) التطلع إلى المستقبل، وبعث الشوق والأمل في النفوس؛ (٤) إضفاء القداسة على الأهداف الإنسانية والاجتماعية. (٥) يخلق في الإنسان صفة الالتزام وتحمل المسؤولية.

٣. إنَّ الحياة البشرية تنطوي - دائماً - على المتاعب والآلام وتحمل المصاعب والمحن؛ وأنَّ بعض تلك المصاعب لا يمتلك الإنسان القدرة على معالجتها اعتماداً على قواه أو التطوُّر التقني، من قبيل: أ) القلق الشديد وخشية الوقوع في الجهل والخطأ في المعتقد. ب) الخشية من الانحراف وزلة القدم في مسيرته الحياتية. ج) الخشية من أن يكون الموت نهاية للحياة وانعداماً لها بنحو مطلق. د) القلق من كلّ أنواع النقص والمحدودية. هـ) المحرومية من بعض النعم والمواهب.

٤. إذا اعتقد الإنسان بوجود خالق للكون حكيم رحمان رحيم غني لا يبخل على عباده، قريب من جميع عباده لاتقربهم إليه إلَّا التقوى، وأنه عادل لا يظلم أحداً مثقال ذرة، حينها تزول عنه كلّ أنواع القلق والخشية وتنجلي عن قلبه كلّ الهواجس المخيفة وتبذل إلى حالة من الاستقرار والرضا، وهذا معنى إضفاء الدين معنى جديداً للحياة.

الدرس السادس

توقع الدين من البشر

لا معنى للبحث عن توقع الدين من البشر أو من غيرهم فيما إذا نظرنا إلى الدين بكونه مجموعة من العقائد والأحكام، بل المراد من توقع الدين من البشر هو توقع المشرع وصاحب الدين لا توقع الدين نفسه.

وبعبارة موجزة: انتظار المشرع من البشر وتوقعه منه بأن يسلم أمام الدين ويدعن للمعتقدات الدينية ويؤمن بها إيماناً راسخاً ينطلق من العمق ولا يتزعزع أبداً، كذلك يتوقع منه تطبيق الأحكام الإلهية والعمل وفقاً للدساتير الربانية، وأن تكون سيرته وسلوكه منسجمين مع ما يطلبه الدين وتريده الشريعة، وكذلك التنزه عن جميع أنواع المعاصي والرذائل والموبقات والتحلي بخصال الخير والفضيلة والصفات الحميدة.

ومن الواضح أن نفع ذلك كله يعود على الإنسان نفسه، فعندما نقول: إن الدين يتوقع أو ينتظر ذلك من البشر، لا يعني ذلك أن يطلب من الإنسان أن يبذل جزءاً من ثروته ورأسماله الوجودي للدين وأن ينقص منه عضو أو شيء ليضاف ذلك إلى الدين، بل تحقق تلك الأشياء يعود نفعه في حقيقة الأمر إلى الإنسان نفسه. وبعبارة أخرى: انتظار الدين من البشر هو أن يرتقي الإنسان بنفسه إلى

الكمال والاستفادة القصوى من النعم والمواهب الإلهية: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ
فَهُوَ لَكُمْ﴾^١

خلاصة البحث

١. المراد من توقّع الدين من البشر، هو توقّع المشرع وصاحب الدين لاتوقع الدين
والشريعة نفسيهما.
٢. انتظار المشرع بمعنى أن يسلم أمام المعتقدات الدينية والإيمان بها وتطبيق الأحكام
الإلهية والعمل وفقاً للذاتية الربانية، بالإضافة إلى التحلي والتزين بالصفات
الحميدة، والتنزه عن الرذائل والموبقات.
٣. حقيقة الأمر أن صاحب الشريعة يريد من الإنسان بأن يصل إلى الكمال من خلال
الالتزام الديني والاستفادة من المواهب الإلهية على أكمل وجه ممكن.

الدرس السابع

عوامل النزوع الديني

تمتد جذور الميل والنزوع الديني إلى أعماق التاريخ البشري وهذه حقيقة أذعن بها الملحدون وخصوم الدين أيضاً فضلاً عن المتدينين. ف قضية الاعتقاد بوجود الله وعبادته - باعتباره مبدءاً للوجود - تستوعب التاريخ البشري طوياً وتتوزع على جميع أصقاع المعمورة ويقاعها عرضاً، وقد تجلى ذلك في صور وأنحاء مختلفة بالرغم من اختلاف الثقافات وتعددتها.

وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها حتى من قبل المنكرين لأصالة الدين وحقيته ومن الذين قالوا ببطالان العقائد الدينية وخرافيتها، فإنهم بالرغم من ذلك حاولوا تفسير كل هذا الميل البشري والنزوع الإنساني على مر التاريخ نحو الدين والتدين وراحوا يبحثون عن علله وأسبابه التي دعت إليه. فمن لا يؤمن بوجود الله تعالى وخالقته للكون يرى أن ظاهرة التدين وميل الإنسان نحو الدين بهذه السعة كماً وكيفاً والعبودية لله والعمل وفقاً لشرائعه، تعدّ أمراً خطيراً وقضية مرعبة لا بدّ من البحث عن أسبابها وعللها وتوجيهها بأي نحو من الأنحاء.

وقد طرحت في هذا المجال مجموعة من النظريات بعضها كانت بمستوى من الهبوط الفكري بنحو يثير الدهشة لدى الباحثين. نشير هنا إلى بعضها:

١. نظرية الخوف

ذهب فرويد^١ في بعض نظرياته إلى أن عامل الخوف هو السبب في ميل الإنسان ونزوعه نحو التدين، والجدير بالذكر أن هذه النظرية لم تكن من ابتكارات فرويد.^٢

خلاصة النظرية: إن الخشية من العوامل الطبيعية كالسيول والأعاصير والزلازل والأمراض والموت، جعلت الإنسان يعتقد - جهلاً منه بأسبابها الحقيقية - بأن تلك الظواهر المخيفة تعود إلى منشأ واحد وتطلق من سبب مشترك أطلق عليه اسم الله. من هنا يذهب فرويد إلى أن الإله صانع الذهن البشري لا أنه خالق له. وفي الحقيقة أن عامل نشوء الاعتقاد الديني في الذهن البشري هو الأمل في السلامة من البلايا والكوارث الطبيعية، وفراراً من الخوف والخشية من العوامل المؤلمة والمضرة، راح يعتقد الإنسان الأولي رويداً رويداً بوجود ذي قدرة فائقة وهيمنة عالية على عوامل الطبيعة لكي يتسنى له الخلاص من الشرور والأخطار والمخاوف التي تحيط به من خلال كسب وده ونيل رضاه عن طريق تقديم القرابين والخضوع له وعبادته والتوسل إليه.

٢. نظرية الجهل

ذهب بعض الباحثين منهم «ويل دورانت و برتراند راسل» إلى القول بأن منشأ النزوع الديني والاعتقاد بوجود الله يعود سببه إلى جهل الإنسان. فالإنسان الأولي حينما واجه مجموعة من الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف والرياح العاتية والأعاصير

١. زيجموند فرويد عالم النفس النمساوي (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) صاحب المؤلفات الكثيرة منها: الأحلام،

نظريات في الغريزة الجنسية، الطوطم والتابو. و لمزيد الاطلاع على نظرياته العلمية راجع: فرويد،

آنتوني أستور، ترجمة: حسن مرندي، الطبعة الأولى، ١٣٧٥ هـ. ش، طهران، نشر طرح نو.

٢. لعل أول من أثارها الشاعر الروماني، تيتوس لوكرتيوس المتوفي عام ٩٩ م، حيث أشار في بعض أشعاره إلى أن الخوف هو السبب في الميل نحو التدين، وأنه هو الذي خلق الإله.

والأمطار وعجز عن اكتشاف أسبابها وعللها الطبيعية وتفسيرها تفسيراً علمياً، من هنا ذهب إلى الاعتقاد بأن هناك موجوداً خارج حدود الطبيعة هو الذي يقف وراء كل ذلك أطلق عليه اسم الله مستنداً إليه جميع تلك الحوادث الطبيعية، ومن أجل نيل رضاه وكسب وده وتجنب سخطه قام الإنسان بالتدلل والخضوع إليه.

نقد النظريتين

يمكن أن نسجل بعض الملاحظات على هاتين النظريتين:

(أ) إنهما لا تتجاوزان حدَّ الفرضية والاحتمال ولا تستندان إلى دليل محكم وبرهان رصين.
(ب) لو سلمنا بأن البشرية كلها أو بعضها نزعَت نحو التوجُّه الديني بسبب عاملي الخوف أو الجهل واعتقدوا بوجود الله تعالى وعبدوه للسببين المذكورين! فهل يوجد تلازم منطقي بين ذلك وبين إنكار وجود الله تعالى وعلان الدين واعتباره أمراً خرافياً؟! أن أقصى ما تثبته تلك النظريات - على فرض صحتها - أن الهدف والغاية من التدين والاعتقاد بوجود الله لم تكن بالأمر الصحيح، وهذا شيء وإنكار وجود الله وحقانية الدين شيء آخر.

فعلى سبيل المثال هناك - على مرِّ التاريخ - الكثير من الاكتشافات والاختراعات العلمية كانت تنطلق من حبِّ الشهرة أو كسب المال والمناصب الاجتماعية، ومن الواضح أن تلك الغايات غير أخلاقية، لكن بطلان الغاية لا يعني بحال من الأحوال بطلان أصل الاكتشافات أو الاختراعات.

و بعبارة موجزة: إن تلك النظريات خلطت بين الدواعي (ما يسوق الإنسان ويحركه نحو الشيء) وبين الأهداف (ما يسعى الإنسان إليه) واعتبرت بطلان أحدهما دليلاً على بطلان الآخر.

(ج) ينقض على تلك النظريات بكثير من النقوض، أما النظرية الأولى فينقض عليها

بما يلي:

أولاً: من الثابت تاريخياً أنّ الرسل ودعاة الدين كانوا من أشجع الناس وأشدّهم ثباتاً علي المبادئ وكانوا صليين جداً في مقابل المحن والامتحانات العسيرة التي واجهتهم.

ثانياً: هناك الكثير من الناس الجبناء والخائزين، ولكنهم في الوقت نفسه ملحدون لا يعتقدون بالله ولا يعملون بأي شريعة إلهية.

ثالثاً: لو صحّ أن السبب وراء الاعتقاد بالله تعالى هو الخشية من البلايا والحوادث الطبيعية في العصور القديمة التي كان فيها الإنسان يجهل علل الظواهر وأسبابها، فكيف يوجه الميل الديني لدي الإنسان المعاصر بعد اكتشافه للأسباب والعلل الطبيعية التي تقف وراء حدوث تلك الظواهر المخيفة؟ فمن المفروض - طبقاً لمنطق النظريتين - ألا يوجد إنسان متدين بعد التطوّر العلمي الهائل الذي حصل اليوم أو على أقلّ تقدير ضعف الميل الديني، والحال أن نرى العكس هو المتحقّق، حيث نشاهد ميلاً كبيراً نحو الدين والتدين بصورة أشمل وأوسع!

ويكفي في نقض نظرية الجهل ما نراه من انتشار التوجّه الديني ورسوخ الاعتقاد والإيمان بالله تعالى في أوساط المفكرين والعلماء في الفروع العلمية كافة كأمثال أنشتاين ونيوتن وغاليلو والآلاف غيرهم ممّا يصعب حصره هنا.

(د) نعتقد أنّ التوجّه الديني وليد عاملين:

أولاً: إن الإنسان يدرك بأنّ كلّ ظاهرة تحتاج إلى علّة وموجد هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدرك أن اجتماع النقيضين محال (كون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد)، بمعنى أنّه يدرك استحالة كون الظاهرة هي التي أوجدت نفسها؛ لأنّ هذا يعني كونها موجودة ومعدومة في آن واحد.

ثانياً: يوجد لدى جميع أفراد البشر شعور قوي بوجود الله وميل نحو العبادة، فالإنسان كما يمتلك غريزة البحث عن الحقيقة وحبّ الجمال فطرياً بلا حاجة إلى

الكسب والتعلم، كذلك يمتلك غريزة التدين والتوجه نحو معرفة الله تعالى، وهذه الفطرة هي التي تسوقه نحو الاعتقاد بالله تعالى. وهناك نظريات أخرى في تفسير الميل والشعور الديني أعرضنا عنها روماً للاختصار.

ملاحظات

١. أتضح لنا من خلال عرضنا للنظريات التي ذكرت لتفسير التوجه الديني، مدى التعصب الذي أبداه أصحاب تلك النظريات المنكرة لحقيقة الدين الناصعة، ومما لاريب فيه أن التعصب الأعمى ينأى بصاحبه عن الموضوعية ويبعده عن اكتشاف الحقيقة؛ لأن الحب والكراهة المفرطين يطغيان على نور العقل وبصيرته.
٢. إن أصحاب تلك النظريات افترضوا من أول الأمر أن التوجه الديني يفتقد إلى أي ركيزة عقلية ومنطقية، الأمر الذي أوقعهم في التخطئ فسعوا جاهدين لتفسير تلك الظاهرة بأنها وليدة عوامل نفسية كالإنسان الأولي الذي حينما جهل علل الظواهر وأسبابها فسرها بالسحر والشعوذة، ومع قيام الدليل على كون التوجه الديني يقوم على ركائز علمية ومنطقية رصينة حينها تفقد تلك التفسيرات قيمتها واعتبارها وتصبح مجرد فرضيات لا تقوم على دليل محكم.

خلاصة البحث

١. تمتد جذور التوجه الديني في أعماق التاريخ البشري.
٢. حاول الملحدون تفسير الميل الديني لدى الإنسان بنحو ينسجم مع ما يذهبون إليه من إنكار وجود الخالق.
٣. يرى أصحاب نظرية الخوف: إن الخشية من الظواهر الطبيعية، جعلت الإنسان يعتقد - جهلاً منه بأسبابها الحقيقية - بأن تلك الظواهر المخيفة تعود إلى منشأ واحد وتنطلق

من سبب مشترك أطلق عليه اسم الله، فسبب الميل الديني الأمل في السلامة والحفظ من من البلايا والعوامل الطبيعية.

٤. يعتقد أصحاب نظرية الجهل بأن منشأ النزوع الديني والاعتقاد بوجود الله يعود سببه إلى جهل الإنسان، فحينما عجز عن اكتشاف أسباب الظواهر الطبيعية وعللها، ذهب إلى الاعتقاد بأن هناك موجوداً خارج حدود الطبيعة هو الذي يقف وراء كل ذلك أطلق عليه اسم الله.

٥. إن النظريتين المذكورتين لا تستندان إلى الدليل العلمي ولا تخرجان عن كونهما مجرد فرضيتين.

٦. غاية ما يثبت هذا القليل من الأفكار على فرض صحتها بيان الهدف من التوجه الديني والاعتقاد بالله، ولكن لا تلازم بين بطلان تلك الأسباب ونفس وجود الله تعالى؛ وذلك لأن صحة أو سقم الغاية شيء، وصحة وسقم العمل والمعتقد شيء آخر (ضرورة التفكيك بين الغاية والمغى).

٧. نظرية الخوف باطلة للأمور التالية: (أ) لأن الرسل ودعاة الدين كانوا من أشجع الناس وأشدّهم ثباتاً على المبادئ. (ب) هناك الكثير من الناس الجبناء، ولكنهم في الوقت نفسه ملحدون لا يعتقدون بالله. (ج) لقد انتفى اليوم - إلى حد ما - الخوف من الظواهر الطبيعية، ومع ذلك نجد ظاهرة التدين تزداد رسوخاً وشمولاً.

٨. مما يثبت بطلان نظرية الجهل اعتقاد كبار العلماء والمفكرين في العالم بوجود الله وميلهم نحو الدين والتدين.

٩. الحقيقة أن التوجه الديني لدى الإنسان وليد عاملين: ١. حكم العقل بأن كل معلول يحتاج إلى علّة. ٢. الفطرة التي تسوق الإنسان نحو التدين والاعتقاد بوجود الله تعالى.

الدرس الثامن

عوامل العزوف الديني في أوروبا^١

عمّت القارة الأوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي موجة من الإلحاد والعزوف الديني، وكان وراء هذه الظاهرة مجموعة من العوامل نشير إلى أهمّها:

١. قصور مفاهيم الكنيسة

إنّ الصورة التي عرضها رجال الدين المسيحي في القارة الأوروبية وعلى رأسهم الكنيسة للمفاهيم الدينية كانت بمستوى من الهبوط واللاعقلانية، الأمر الذي أدّى - وبصورة طبيعية - إلى العزوف عن الدين، باعتبار أنّ العقل البشري لا يسمع بأن تفرض عليه قيماً ومفاهيم لا يستطيع هضمها، فمثل تلك الأفكار الهابطة ليست لا تقنع الأذكياء والواعين فحسب، بل تنفرهم وتحولهم إلى أعداء الداء للمدرسة الإلهية؛ وذلك لأنّ الشرط الأساسي في نجاح الأفكار معقوليتها وعدم تعارضها مع العقل السليم.

فعلى سبيل المثال أعطت الكنيسة صورة بشرية لله وعرضته للآخرين في قالب بشري له يد ورجل وعين وأذن شأنه شأن سائر الناس إلّا أنّه ضخم جدّاً.

وإذا ما تلقى الأفراد صورة الله في قالبها البشري في مرحلة الطفولة وتأثروا بها تحت

١. اعتمدنا في هذه البحث على كتاب *الدوافع نحو المادية* للشهيد المطهري.

النفوذ الديني للكنيسة، لكنهم بعد النضج العلمي يدركون مدى هبوط تلك الأفكار وهشاشتها، ويدركون أن تلك الصورة لا تتفق مع الموازين العلمية والعقلية الصحيحة، ولما كانوا لا يمتلكون القدرة العلمية على نقد مفاهيم الكنيسة وإبطالها وإثبات أن الكنيسة هي المخطئة في هذا المجال، أنكروا الأمر من أساسه وقالوا بعدم وجود الله.

يقول فلاماريون في كتابه *الله في الطبيعة*:

إن الكنيسة عرضت الله على أساس أن المسافة بين عينه اليمنى وعينه اليسرى تعادل ٦٠٠٠ فرسخ!

٢. العنف الكنسي

كان للكنيسة دور آخر في مجال دفع الناس للعزوف عن الدين فقد اعتمدت أسلوب العنف واستعملت أنواع القسوة والشدة في تحميل العقائد والأفكار الدينية، بحيث لم يسلم من هذا العنف حتى أصحاب النظريات العلمية الصرفة لأنها تخالف الدين، بل لأن الكنيسة لم ترتضها بالرغم من كونها خارج دائرة القضايا الدينية من قبيل: القول بحركة الأرض ودورانها حول الشمس (حيث كانت الكنيسة تعتقد خلاف ذلك) فلم يسلم العلماء من العنف الكنسي، وتعرضوا لشتى أنواع التعذيب، بحيث وصلت عقوبة الكثير منهم إلى حد الحكم بالموت.

وقد أنشأت الكنيسة في القرون الوسطى محاكم تسمى بـ «الانكيزيسون» أو محاكم «فتيش العقائد» تتبع عقائد الناس وتحلل ما في ضمائرهم وتسعى لإثبات التهمة بأدنى مناسبة على المفكر.

يقول ويل ديورانت عن تلك المحاكم وقوانينها:

كانت وسائل التعذيب تختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة فتارة كانوا يشدون يدي المتهم إلى الخلف، ثم يعلقونه بهما، كما أن من الممكن أن يوثقوه وثاقاً

محكما، بحيث لا يقدر على الحركة، ثم يضحون الماء في بلعومه حتى يختنق، كما كان من الممكن أن يشدوا الجبال في يديه ورجليه بقوة هائلة، بحيث تخترق الجبال اللحم فتصل إلى العظم.^١

و في موضع آخر يقول:

إن عدد الضحايا من عام ١٤٨٠ - ١٤٨٨ أي خلال ٨ سنوات يقدر بـ «٨٨٠٠» محروق و «٩٦٤٩٤» محكوماً بالأشغال الشاقة والعقوبات الأخرى، وفي عام ١٤٨٠ إلى ١٨٠٨ أُحرق: «٣١٩١٢» شخصاً وحكم «٢٩١٤٥٠» شخصاً بالأشغال الشاقة وباقي العقوبات الشديدة.^٢

ومن البديهي جداً تكون ردود الفعل لدى الناس بنفس الشدة، فلا يمكن أن تكون سوى رفض الدين من أساسه ورفض ما يشكل حجر الأساس فيه وهو الاعتقاد بالله.

٣. قصور المفاهيم الفلسفية

يحتاج بيان هذا العامل إلى طرح سلسلة من الأبحاث الفلسفية المعمقة التي لا يستوعبها مستوى الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب. من هنا نكتفي بالقول: بأن المدرسة الغربية واجهت الكثير من المشاكل في مجال الإلهيات والكلام، بحيث لم تستطع حلها كما عجزت عن حل مسائل التوحيد وسائر العقائد بشكل دقيق ينسجم مع العقل والمنطق.

ولتوضيح ذلك وبيان مدى قصور الفكر الفلسفي الغربي وخاصة في البعد الكلامي نرى من المناسب أن نقل كلاماً لـ «راسل»^٣ لنعرف تصوره الفلسفي عن العلة الأولى.

١. قصة الحضارة، ويل دورانت، ١٨/٣٥٠ من الترجمة الفارسية، والجزء ١٦ من الترجمة العربية.

٢. المصدر: ٣٦٠.

٣. يعتبر برتراند راسل من أشهر فلاسفة القرن العشرين، وقد ترجمت مؤلفاته إلى الكثير من اللغات الحية. وهو من الناحية الفكرية يشكك بوجود الله، لكنه لاديني من الناحية العملية.

يقول في كتاب لماذا لم أكن مسيحياً؟:

إنّ اساس هذا البرهان - برهان العلة الاولى - عبارة عن أنّ كل ما نراه في هذا الكون له علة، وإذا تتبعنا سلسلة العلل فسوف نصل بالنهاية إلى علة أولى وهذه العلة نسميها علة العلل أو الله.

و من ثمّ يبدأ راسل بنقده كما يلي:

"لم أكن أبان شبابي لأفكر في هذه المسائل بعمق، وكنت أقبل برهان علة العلل إلى مدّة من الزمن مديدة، إلى أن طالعتني جملة من كتاب كنت أتصفح - وأنا في الثامنة عشرة - وهو كتاب/الانثروبولوجيا لجان ستورات ميل... وكانت هذه الجملة تقول: كان أبي يقول: إنّ سؤال: من الذي خلقني؟ لا جواب له؛ لأنّه ينطرح سؤال آخر بعده مباشرة وهو: من الذي خلق الله؟

و هكذا وضحت لي هذه الجملة - علي بساطتها - كذب برهان علة العلل وما زلت أراه كاذباً فإذا كانت العلة ضرورية لكل شيء فهي ضرورية لله أيضاً. وإذا أمكن لشيء أن يوجد بلا علة فإنّ هذا الشيء يمكن أن يكون هو الله أو العالم. وسخف هذا البرهان إنّما هو لهذه الجهة بالخصوص.^١

إنّ من له أدنى معرفة بالفلسفة الإسلامية يدرك بوضوح مدى هشاشة هذا الاستدلال لأنّ راسل تصوّر أنّ المراد من قانون العلية: أنّ كلّ شيء موجود يحتاج إلى علة، والحال أنّ المراد من القانون: هو أنّ كلّ ممكن يحتاج إلى علة، وعليه فالعلة الأولى خارجة من تحت القانون تخصّصاً، كما في قولنا: «كلّ فاسق كاذب» التي لا تشمل الإنسان العادل ابتداءً.

وبيان فداحة الخطأ وعمق الزلة التي وقع فيها رسل يحتاج إلى الخوض في مباحث فلسفية معمقة لا يسع المجال هنا للخوض فيها.

١. الدوافع نحو المادية، الشهيد المطهري: ٥٩ و ٦٠.

٤. عدم نضوج المفاهيم الاجتماعية والسياسية

شاع في أوساط المجتمع الغربي أنهم إن قبلوا الله كان عليهم أن يقبلوا استبداد القدرات المطلقة أيضاً، وأن الفرد لا حق له قبالة الحاكم مطلقاً، وأن الحاكم غير مسؤول أيضاً بأي وجه أمام الفرد، بل هو مسؤول أمام الله فقط. فقبول الله في ظنهم يعني قبول حالة خنق الحرية في حين أنهم إن أرادوا التحرر كان عليهم أن ينكروا الله، وبالتالي فقد رجحوا الحرية على الإيمان بوجود الله.

على إنا إذا استعرضنا وجهة نظر الفلسفة الاجتماعية في الإسلام - الدين الذي لم تمتد إليه يد التحريف - فسوف نجد أن الاعتقاد بالله لا يبعث مطلقاً نحو قبول الحكم الاستبدادي المطلق وعدم مسؤولية الحاكم أمام الشعب، بل نرى أئمة الدين وقادته يؤكدون على حق المراقبة والنقد وأن الحاكم مسؤول قبال الشعب، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول في هذا المجال :

أما بعد فقد جعل الله سبحانه ليّ عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي ليّ عليكم... ولا يجري لأحد إلّا جري عليه ولا يجري على أحد إلّا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كلّ ما جرت عليه صروف قضائه.^١

ولقد تكفل القانون الأساسي للجمهورية الإسلامية - انطلاقاً من الكتاب والسنة - بتأمين هذا الحقّ بشكل واضح حيث منح الأفراد حرية نقد الحكومة فأعطى للشعب حقّ اختيار الحاكم وانتخابه وكذلك حقّ عزله، لكن ليس بطريقة عشوائية، بل عن طريق ممثلي الشعب في مجلس خبراء القيادة. فقد جاء في الأصل السادس من القانون الأساسي:

يجب أن تدار شؤون البلاد في جمهورية إيران الإسلامية بالاعتماد على رأي الأمة الذي يتجلى بانتخاب رئيس الجمهورية، وأعضاء مجلس الشورى الإسلامي وأعضاء سائر مجالس الشورى ونظائرها، أو عن طريق الاستفتاء العام في الحالات التي نصّ عليها الدستور.

كذلك جاء في الأصولين التاسع عشر والعشرين:

يتمتع أفراد الشعب الإيراني - من أية قومية أو قبيلة كانوا - بالمساواة في الحقوق ولا يعتبر اللون أو العنصر أو اللغة أو ما شابه ذلك سبباً للتفاضل. و أن حماية القانون تشمل جميع أفراد الشعب - نساء ورجالاً - بصورة متساوية وهم يتمتعون بجميع الحقوق الإنسانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ضمن الموازين الإسلامية.

٥. إبداء النظر من قبل غير الإخصائيين

صحيح إن أساس المعرفة الإلهية الذي يجب معرفته والإيمان به، أمر فطري بسيط واضح، إلّا أننا إذا تقدّمنا في البحث خطوة أخرى فإننا سنواجه بحث الصفات والأسماء والأفعال الإلهية والقضاء والقدر ويتعقد الأمر حينذاك حتّى ليعبر أمير المؤمنين (عليه السلام) عنه بأنّه «بحر عميق...».

لكن ولشديد الأسف نرى في العالمين الشرقي والغربي من يمنح نفسه الحقّ في إبداء النظر والتدخل في مختلف الأمور، ممّا يؤدّي إلى أن يتلقى الناس مجموعة من المطالب والآراء الخاطئة والمعالجات السقيمة التي لا تقوم على دليل رصين، ولم تنحصر القضية في الأمور الطبيعية، بل تعدت ذلك إلى التدخل في المسائل الدينية وبالخصوص المسائل الإلهية والتوحيد التي تعتبر من أعقد المسائل العلمية، ممّا خلق ردة فعل معاكسة كانت نتيجتها الشكّ والريبة في أصل الدين لدى الناس. يشير الشهيد المطهري إلى نماذج من ذلك الفضول في كتاب *الدوافع نحو المادية*، قائلاً:

يقال إن شخصاً عنون هذا السؤال: لماذا أعطى الله تعالى الطيور أجنحة و حرم الإبل منها؟ ثم أجاب: إن الحكمة في ذلك أنه سوف لا تبقى لنا حياة إذا امتلكت الإبل أجنحة! إذ سيطر الجمل ليحط على بيوتنا الطينية فيسلمها للخراب. و قد سئل آخر عن الدليل على وجود الله تعالى فأجاب: ما لم يكن هناك شيء، لم يقل الناس فيه أشياء.

ولكن مما لا ريب له أن ضعف الحجج والأدلة لا يعني بحال من الأحوال بطلان أصل المدعى. نعم، من الناحية النفسية (السايكولوجية) يكون لضعف الدليل الأثر في زعزعة الثقة في صحة أصل المدعى، بل قد يؤدي أحياناً إلى الاطمئنان ببطلانه. وهكذا يكون لضعف الحجج التي يسوقها الجاهلون الأثر في عزوف الناس عن الدين والميل نحو اللادينية.

٦. الفصل بين العبادة وبين السعادة الدنيوية

شاءت الحكمة الإلهية أن يزود الإنسان بمجموعة من الغرائز والميول التي تؤمن له استمرارية الحياة وتسوقه نحو هدفه الذي خلق من أجله، كالغريزة الجنسية وحب المال والميل للأولاد والتناسل وكسب المعرفة وغريزة حب الجمال.

صحيح أنه ليس للإنسان أن يتبع الغرائز وينقاد لها انقياداً أعمى ويشكل تامة، لكن في نفس الوقت ليس له التوصل منها وإهمالها أو معارضتها والصراع معها دائماً، بل لا بد من ترشيدها وتهذيبها وقيادتها في الاتجاه الصحيح.

فإذا عارضنا هذه الغرائز باسم الدين واعتبرنا التجرد والانزعال والرهبة أمراً مقدساً، والزواج أمراً قبيحاً، وب نفس العنوان اعتبرنا الجهل موجباً لخلاص الإنسان والعلم سبباً للضلال، وهكذا نظرنا إلى الثروة والقدرة على أنهما السرّ الأساسي للشقاء في حين أن الفقر والضعف والعجز أساس السعادة، إذا كانت نظراتنا على هذا النمط فما الذي يتوقع أن يحدث بعد ذلك؟! لا شك أنه سيحدث عين ما حدث في الغرب من العزوف

عن الدين والميل نحو اللادينية والإلحاد، فإن المجتمعات التي حورت فيها الغرائز تحت اسم الدين وجعلت السعادة الدنيوية فيها والعبادة أمرين متضادين لا يمكن الجمع بينهما، نجدها تتجه نحو المادية وتروج فيها المدارس الإلحادية اللادينية بعد أن تنهزم أمامها تلك التعاليم، ولشديد الأسف نجد أن هذه الأفكار المنحرفة تروج في أوساط المسلمين من قبل بعض الجهال.

يقول راسل:

إن تعليمات الكنيسة تجعل البشر بين أحد شقاءين وحرمانين، فأما شقاء الدنيا والحرمان فيها من النعم، وأما شقاء الآخرة والحرمان من حورها وقصورها.

وهكذا يصور لنا راسل هذه التعليمات الكنسية التي تلزم الإنسان بتحمّل أحد الشقاءين، أما شقاء الدنيا والحرمان والانزواء في قبال نعم الآخرة، وأما شقاء الآخرة إذا لم يشأ الإنسان الحرمان من نعم الدنيا.^١

ولا شك في فساد هذه الفكرة فإن الدين الصحيح هو الذي يؤمن بالسعادتين الدنيوية والأخروية؛ وذلك لأن أول تساؤل يواجه هؤلاء هو من ناحية نفس عقيدة التوحيد والمعرفة الإلهية إذ يقال لهم:

لماذا يلزم الله الإنسانية بتحمّل أحد الشقاءين؟ ولماذا كان الجمع بين السعادتين مستحيلاً وهل الله بخيل - والعياذ به -؟ وهل تنقص خزائنه؟ وما المانع من أن يريد لنا خير الدنيا والآخرة؟

من هنا يخلص الشهيد المطهري إلى النتيجة التالية:

إن بعض التوجيهات غير الواقعية لبعض المبلغين أوجبت أن يفر الناس من الدين ويجعلوا الله والدين سبباً من أسباب شقائهم.^٢

١. نقلاً عن كتاب الدوافع نحو المادية: ٩٥، ترجمة: الشيخ محمد علي التسخيري.

٢. المصدر: ٩٧.

٧. الفساد الأخلاقي والعملي

مما لا ريب فيه أن القبول بالدين والتسليم له يستلزم بعض المحدوديات أو المحظورات السلوكية. من هنا نرى الغارقين في الشهوات المادية الذين ينظرون إلى الدين كعقبة أمام حريتهم تمنعهم من وصولهم لما يشتهون، يحاولون شق الطريق إلى الحرية المطلقة من خلال إنكار الدين وإزاحته من الحياة.

يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة وهي أن الذين يشكون في تحقق المعاد لا يقوم شكهم على مستند علمي رصين، بل تسوقهم إلى ذلك الشهوة العملية في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرًا مَّامَهُ﴾^١. ومن جهة أخرى، أن الذنوب والفساد الأخلاقي والعملي تمنع من قبول الحق والتسليم له، فبذرة التوحيد لا تنمو إلا في الأرض الطيبة؛ لأن طبيعة الأرض الفاسدة مفسدة للبذور قطعاً، فإذا كان الإنسان مادياً شهوياً في عمله، غارقاً في عبادة المادة والشهوات، فإنه بصورة تدريجية ستسجم آراؤه وأفكاره مع البيئة الروحية والأخلاقية هذه.^٢

ولهذا نجد القرآن يتحدث كثيراً عن القابلية والطهارة والاستعداد فيقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^٣. وأنه منذر لمن كان حياً: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٤.

فالانحطاط الأخلاقي والاجتماعي الكبير الذي عمّ القارة الأوروبية في القرون الأخيرة وفّر الأرضية المناسبة لاضمحلال القيم المعنوية والعزوف عن الدين والاندفاع

١. القيامة: ٥.

٢. راجع: الدوافع نحو المادية: ٩٩.

٣. البقرة: ٣ و٢.

٤. يس: ٦٩ و٧٠.

نحو المادية: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأُوا سُوءًا أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^١. وأكبر مثل تاريخي على هذا الأمر قصة سقوط أسبانيا المسلمة، فإن الكنيسة لم تستطع رغم كل جهودها أن تنتزع أسبانيا من المسلمين فوضعت خطة دقيقة جداً سلبت المسلمين فيها العالي الروحي وعودتهم على اتباع الشهوات وسلبتهم الغيرة والشرف، ومن ثم سلبتهم سيادتهم واستقلالهم وأخيراً قضت على دينهم وعقيدتهم.

خلاصة البحث

تتمثل أهم عوامل الاندفاع نحو المادية والعزوف عن الدين في البلاد الغربية بالأمور التالية:

١. قصور مفاهيم الكنيسة: فقد عرضت الكنيسة صورة بشرية لله وصورته للآخرين في قالب بشري، إلا أنه كبير جداً، ومثل تلك الأفكار الهابطة لا تقنع الأذكياء والواعين، بل تنفرهم من الدين.
٢. العنف الكنسي: اعتمدت الكنيسة أسلوب العنف واستعملت مع مخالفينها أنواع القسوة والشدة في تحميل العقائد والأفكار التي تؤمن بها، فعرضتهم لشتى أنواع التعذيب، بحيث وصلت عقوبة الكثير منهم إلى حد الحكم بالموت. وكانت ردة الفعل بمستوى الفعل، حيث تمثلت في إنكار الدين، بل إنكار أصله المتمثل بالله تعالى.
٣. قصور المفاهيم الفلسفية: فإن المدرسة الغربية واجهت الكثير من المشاكل في مجال الإلهيات والكلام وعجزت عن حل مسائل التوحيد وسائر العقائد بشكل دقيق ينسجم مع العقل والمنطق.
٤. عدم نضوج المفاهيم الاجتماعية والسياسية: شاع في أوساط المجتمع الغربي أنهم

إن قبلوا الله كان عليهم أن يقبلوا استبداد القدرات المطلقة أيضاً، فقبول الله في ظنهم يعني قبول حالة خنق الحرية في حين أنهم إن أرادوا التحرر كان عليهم أن ينكروا الله، وبالتالي فقد رجحوا الحرية على الإيمان بوجود الله.

٥. إبداء النظر من قبل غير الإخصائين: نرى في العالمين الشرقي والغربي من يمنح نفسه الحق في إبداء النظر في مختلف المسائل الدينية وبالخصوص المسائل الإلهية والتوحيد مما خلق ردة فعل معاكسة كانت نتيجتها الشك والريبة في أصل الدين لدى الناس.

٦. الفصل بين العبادة وبين السعادة الدنيوية: شاعت في الأوساط الغربية أن السعادة الدنيوية والعبادة أمران متضادان لا يمكن الجمع بينهما، وأن التجرد والانعزال والرهبة أمر مقدس، والزواج أمر قبيح، وأن الجهل موجب لخلاص الإنسان والعلم سبب للضلال، وهكذا النظر إلى الثروة والقدرة على أنهما السر الأساسي للشقاء في حين أن الفقر والضعف والعجز أساس السعادة! والحال أن الدين الصحيح هو الذي يؤمن السعادتين الدنيوية والأخروية ويمنح الإنسان الأمل في الحياتين.

٧. الفساد الأخلاقي والعملية: إن القبول بالدين يستلزم بعض المحدوديات أو المحظورات السلوكية. من هنا نرى الغارقين في الشهوات المادية الذين ينظرون إلى الدين كعقبة أمام حريتهم تمنعهم من وصولهم لما يشتهون، يحاولون شق الطريق إلى الحرية المطلقة من خلال إنكار الدين وإزاحته من الحياة. فالانحطاط الأخلاقي والاجتماعي الذي عم القارة الأوروبية في القرون الأخيرة وقر الأرضية المناسبة لاضمحلال القيم المعنوية والعزوف عن الدين والاندفاع نحو المادية.

الفصل الثاني

مباحث التوحيد

الدرس الأول

أهمية معرفة الله^١

تحظى قضية معرفة الله تعالى وصفاته العليا - بقطع النظر عن آثارها العملية على المستويين الفردي والاجتماعي - بأهمية كبرى ولها دورها الفاعل في السعادة البشرية، بحيث إن الكمال البشري مقرون بمعرفة الله معرفة صحيحة. فالإنسان الذي لم يعرف الله كما يليق به حتى لو بذل قصارى جهده في القيام بالأعمال الصالحة والحسنة لا يمكنه أن يصل إلى مرتبة الكمال الإنساني المتناهية.

إن المعرفة الصحيحة تمثل أعلى درجات الكمال النفساني وتسوق الإنسان نحو الحقيقة ونحو الله تعالى:

﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾^٢

١. اعتاد المتكلمون وأصحاب المصنفات العقائدية البدء بالبحث عن إثبات وجود الله استناداً إلى بعض البرهان أو الاكتفاء ببرهان واحد، ثم بعد ذلك التطرق إلى صفاته تعالى السلبية بتقسيمات متعددة ولكن الأسلوب المتبع في هذا الكتاب يختلف - استناداً إلى الأدلة - عنهم وذلك لأننا شرعنا في البحث عن أهمية معرفة الله، ثم البحث عن تصوّر الله، من هو الله؟ ثم تطرقنا للبحث التصديق والإذعان بوجوده تعالى.

٢. فاطر: ١٠. توجد في تفسير الآية ثلاثة وجوه: ١. العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله فالهاء من يرفعه يعود إلي الكلم. ٢. إن العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، والمعنى أن العمل الصالح لا ينفع

يقول الشهيد المطهري:

إن إنسانية الإنسان مرهونة بمعرفة الله تعالى؛ وذلك لأن معرفة الإنسان غير منفصلة عنه، بل هي الأصل الأصيل والركن الأساسي في شخصيته، وهي أكرم صفة وخصيصة فيه، فكلما ازداد الإنسان معرفة بالوجود ومبدأ الكون فحينئذٍ تتحقّق إنسانيته التي نصف جوهرتها العلم والمعرفة. فالنظرة الإسلامية وخاصة الشيعة منها تذهب - ومن دون أدنى شك - إلى أن المعارف الإلهية تمثل هدفاً وغاية إنسانية مع قطع النظر عن آثارها العملية والاجتماعية المترتبة عليها.^١

من هو الله؟

ما هو الموجود الذي يطلق عليه في اللغة العربية كلمة «الله» وفي الإنجليزية كلمة «GOD» وفي الفارسية «خدا»... إلخ؟ وما هي صفاته؟ وما العلاقة بيننا وبينه؟ وما السبيل للاتصال به؟

نظرة عابرة على تاريخ الفكر البشري تظهر لنا شيوع وانتشار مسألة الاعتقاد بالله تعالى في أوساط المجتمعات البشرية، وأن جذورها تضرب في أعماق التاريخ البشري، وبعبارة أخرى: إن تاريخ الاعتقاد بالله بدأ مع تاريخ وجود الإنسان، ولا يعني ذلك أن الاعتقاد بوجود الله كان على مستوى واحد لدى جميع الشعوب، وأن نظرتهم إليه تعالى نظرة مشتركة من جميع الأبعاد.

إن اختلاف الرؤى كبير جداً، خاصة لدى الشعوب التي اتكلت على نتائجها الفكري ولم تستند إلى تعاليم الأنبياء الإلهيين في معرفة الله تعالى. وقبل الشروع في بيان صفاته تعالى وفقاً للنظرية الإسلامية نرى من المناسب جداً - ليُتضح الفارق الكبير

١. إذا صدر عن التوحيد. ٣. إن المعنى العمل الصالح يرفعه الله لصاحبه أي يقبله. والاستدلال بالآية الكريمة يصحّ على التفسيرات الثلاثة معاً، وإن كان الأول أقرب.

١. مجموعة آثار المجموعة الكاملة، الشهيد المطهري: ١٠٥/٢.

بين الفكر الإسلامي التوحيدي وسائر الأفكار والاتجاهات الأخرى - أن نلقي نظرة سريعة على بعض النظريات التي طرحها كبار المفكرين في هذا المجال:

الله عند سقراط

يعتقد سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) شأنه شأن سائر اليونانيين المعاصرين له بوجود الله. إلّا أنه - كما يظهر من تاريخ الفلسفة - لا يرى سعادة البشرية متوقّفة على الاعتقاد بوجود الله وهدايته، فإنّه بالرغم من كونه يعتقد بأنّ الكمال البشري يتوقّف على التمسك بالقيم الأخلاقية، إلّا أنّه لم يتطرق إلى العلاقة بين الإنسان وبين الله تعالى ولم يبين كذلك مكانته تعالى في مسير البشرية.

الله عند أفلاطون

يطلق أفلاطون (٤٢٨/٧ - ٣٤٨/٧ ق.م) كلمة الله على موجودين: أحدهما الخير المطلق والآخر الصانع. وقد اعتبر الخير المطلق هو الإله الأصلي وعبر عنه بالأب، وأمّا الصانع فأطلق عليه كلمة الابن، كذلك يذهب أفلاطون إلى أنّ معرفة الخير المطلق تعدّ أمراً شائعاً، بل يعتبرها من أعقد المعارف البشرية، وأنّها لا تحصل إلّا بعد حصول سائر المعارف الأخرى، كذلك يرى أفلاطون أنّ هذه الثبوتية لا يدركها إلّا الفلاسفة لما تميزوا به من خصائص روحية وفكرية وقوة جسمية خاصة، بل حتّى الفلاسفة لا يصلون إلى هذه الحقيقة (إدراك حقيقة الخير المطلق) إلّا في سنّ الخمسين وبعد طي مجموعة من المراحل الفكرية، وأمّا سائر الناس - الأكثرية الغالبة - فلا يدركون تلك الحقيقة فهم محرومون من ذلك.

الله عند أرسطو

يذهب أرسطو (٣٨٤/٣ - ٣٢٢/١ ق.م) إلى أزلية العالم وأنّه لم يخلقه خالق. من هنا يرى أرسطو أنّ الله لم يخلق العالم، بل إنّ محرك له فقط من دون أن يكون هو

متحركاً؛ لذلك تعد ابرز صفة في إله أرسطو أنه محرك غير متحرك. والمهم في المذهب الأرسطي

إنه يذهب إلى استحالة عبادة الله وحبه والاستعانة به، وأنه تعالى لا يستطيع أن يلبي حاجات الإنسان ويستجيب للحب الذي يبديه البشر؛ وذلك لأنه فاقد للإرادة من جهة، وأنه مشغول في التفكير بذاته فقط.^١

الله لدى الكنيسة في العصور الوسطى

أشرنا في بحث عوامل العزوف عن الدين في الغرب، وباختصار إلى أن الكنيسة أعطت صورة إنسانية لله وعرضته للآخرين في قالب بشري. وهنا نرى من الضروري أن نشير إلى قضية أخرى وهي: إن الفكرة الغالبة في القرون الوسطى تتمثل في اعتبار الله تعالى عاملاً إلى جانب سائر العوامل المؤثرة في العالم، فعندما كان الإلهيون يعجزون عن تفسير الظواهر الطبيعية كالزلزلة والكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر الطبيعية تفسيراً علمياً ولا يكتشفون عللها الطبيعية ينسبون ذلك بصورة مباشرة إلى الله، فعندما كانوا يسألون عن علل تلك الظواهر يقولون: إن الله هو الذي أوجدها.

من هنا كانت النتيجة الحتمية أن يكون الله ضمن قائمة المجهولات التي يبحث الإنسان عنها، ومن الطبيعي حينئذ أن يتراجع الإيمان بالله وتضيق دائرة حركته كلما تطوّر العلم، فكلما تقدّم العلم خطوة يتأخّر الله تعالى خطوة بالاتجاه المعاكس، فإذا ما فرضنا أن الإنسان استطاع أن يحلّ اللغز البشري وتمكن من اكتشاف علل جميع الظواهر الطبيعية فحينئذٍ لا يبقى لله شيء يقوم به.

١. راجع: مباني خدائشاسي در فلسفه یونان وادیان الهی؟، رضا برنجکار: ٨١-١٠٣؛ ولمزيد الاطلاع على نظريات الفلاسفة الثلاثة راجع: شرف الدين خراساني، نخستين فيلسوفان یونان، وفردريك كابلسون، تاريخ فلسفة، المجلد الأول، ترجمه إلى الفارسية الدكتور مجتبي.

فعلى أساس هذه الفكرة تنحصر دائرة الله في الأشياء التي ما زالت عللها الطبيعة مجهولة. من هنا وانطلاقاً من هذه الفكرة التي تحدد العلاقة بين الله والعالم نرى أوغست كونت يقول:

لقد عزل العلم أبا الطبيعة عن عمله وساقه نحو الانعزال.^١

ويقصد بذلك أن كلَّ حادثة كانت تحدث في الماضي كانت تعلل بالاستناد إلى الله فعندما تصيب شخص الحمى يثور هذا السؤال: لماذا أصابته الحمى؟ ومن الذي أوجدها؟ والجواب حينذاك هو أن الله هو الذي أوجد الحمى ولم يكن هذا الجواب يعني أن الله هو الذي يدبّر الكائنات ويحركها، بل يعني أن الله - مثله مثل الموجود الخيالي المهول أو الساحر الذي يسحر من عالم الغيب - صمم فجأة وبدون أية مقدمات على أن يخلق الحمى فخلقها! في حين جاء العلم بعد ذلك فاكتشف أن المرض لم يأت به الله وإنما أوجده نوع خاص من الميكروبات، وهنا تراجع الله خطوة إلى الوراء. وهكذا كلما اكتشف العلم العلة تلو العلة يتراجع الله خطوة بالمقدار الذي اتسعت فيه العلوم.

والحقيقة أن هذا النمط من التفكير يجعل من الله جزءاً من أجزاء العالم، وأنه عامل إلى جانب سائر العوامل الكونية.^٢

الله عند غاليلو

بعد انتهاء فترة العصور الوسطى وحصول التطور العلمي الهائل في مجال العلوم

١. نقلاً عن كتاب الدوافع نحو المادية: ٢٩.

٢. المصدر: ٢٩-٣٠. يقول الشهيد المظهري معلقاً على هذا الكلام: وهنا يقع الإنسان في دهشة كبرى عندما يواجه هذا المنطق! فما أعظم هذا الغلط والضلال في هذا المجال! وما أكبر الجهل الذي يعبر عنه في مجال معرفة الله - سبحانه - فيلجأ للقرآن ويردد معه وما قدروا الله حق قدره.

التجريبية، ذهب بعض العلماء من أمثال غاليليو (١٥٦٤م - ١٦٤٢م) إلى عرض صورة جديدة لله تعالى:

يذهب غاليليو إلى أن العالم يتألف من مجموعة من الذرات وأن جميع الظواهر التي تحدث فيه هي نتيجة لحركة تلك الذرات وتشكلها بأشكال مختلف، وتنحصر مهمة الله في خلق تلك الذرات فقط. وبعد أن خلقها انتفت الحاجة إليه؛ لأن الطبيعة حينئذٍ تعمل بصورة مستقلة ومن دون حاجة إليه تعالى.^١

الله عند نيوتن

يرى نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م) أن العلاقة بين الله والكون تشبه علاقة الساعة بصانعها، فكما أن الساعة تستمر في عملها بصورة مستقلة بعد انفصالها عن صانعها، فهكذا العالم بعد خلقه، إلا أن الذي يميز نظرية نيوتن عن غيره مثل غاليليو هو أنه يعتقد أن الله يتدخل بين فترة وأخرى ليعيد النظام إلى حركة الأفلاك والمجرات، إضافة إلى دورة في منع حدوث الاصطدام بين الكواكب والسيارات.

تعتبر هذه النظرية - إلى حد ما - امتداداً لما كان مطروحاً في القرون الوسطى التي تجعل مجال صلاحيات الله تعالى في الأمور التي لم تكتشف عللها بعد، ولما أدرك الإنسان أن حركة السيارات وعدم اصطدامها خاضعة لقانون خاص من دون حاجة إلى تدخل الله تعالى بصورة مباشرة في ذلك، وأن القضية قابلة للتفسير العلمي، فحينئذٍ تضيق دائرة حركته تعالى بصورة أكثر.^٢

١. راجع: علم ودين، إيان باربور: ٢٧.

٢. المصدر: ٤٩ - ٥٣. فالله هنا موجود خيالي ادخر لتفسير الأمور مجهولة العلة والسبب وكلما تطور العلم واكتشفت الأسباب انحصرت دائرة صلاحية وتضييق دورة إلى أن يأتي اليوم الذي يتقاعد فيه ذلك المعمار عن عمله بصورة تامة أو تحل عبادة الطبيعة محلّه: ٥٢.

وقد تبنى نظرية غاليليو الكثير من علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث يرى أن مهمة الله تنحصر في خلق العالم ابتداءً، ثم تفويض الأمر إليه ليواصل مسيرته بنفسه من دون حاجة إلى خالق ومدبر، مثله مثل علاقة العمارة بمهندستها.^١

خلاصة البحث

١. إنسانية الإنسان رهينة بمقدار معرفته بالله تعالى، وهذه المعرفة تمثل الركن الأساسي في وجوده وهي غايته وهدفه الأصلي.

٢. يعتقد سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) بوجود آلهة، إلا أنه لا يرى سعادة البشرية متوقّفة على الاعتقاد بوجود الله وهدايته، ولم يتطرق إلى العلاقة بين الإنسان وبين الله تعالى ولم يبين كذلك مكانته تعالى في مسير البشرية.

٣. يعتقد أفلاطون (٤٢٨/٧ - ٣٤٨/٧ ق.م) بوجود إلهين. كذلك يرى أفلاطون أن هذه الثوبة لا يدركها إلا الفلاسفة لما تميزوا به من خصائص روحية وفكرية وقوة جسمية خاصة، بل إنهم لا يصلون إلى ذلك إلا في سنّ الخمسين بعد طي مجموعة من المراحل الفكرية، ويبقى سائر الناس محرومين من ذلك.

٤. يذهب أرسطو (٣٨٤/٣ - ٣٢٢/١ ق.م) إلى أزلية العالم وأنه لم يخلقه أحد. ويرى أن الله لم يخلق العالم، بل إنه محرك له فقط من دون أن يكون هو متحركاً، والمهم في المذهب الأرسطي أنه يذهب إلى استحالة عبادة الله وحبه والاستعانة به؛ لأنه تعالى لا يستطيع أن يلي حاجات الإنسان ولا يستطيع أن يستجيب لها.

٥. إن الكنيسة في العصور الوسطى منحت الله صورة إنسانية وعرضته للآخرين في قالب بشري. واعتبرت الله تعالى عاملاً إلى جانب سائر العوامل المؤثرة في العالم،

فعندما كانوا يعجزون عن تفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً علمياً ولا يكتشفون عللها الطبيعية حيثئذٍ ينسبون ذلك بصورة مباشرة إلى الله.

٦. يذهب غاليلو إلى أنّ مهمّة الله تعالى تنحصر في خلق الذرات فقط. وبعد أن خلقها انتفت الحاجة إليه؛ لأنّ الطبيعة حيثئذٍ تعمل بصورة مستقلة ومن دون حاجة إليه تعالى ولا يؤثّر وجوده أو عدمه في ذلك، وقد تبنى نظرية غاليلو الكثير من علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٧. يرى نيوتن أنّ العلاقة بين الله والكون تشبه علاقة الساعة بصانعها، إلّا أنّه يعتقد أن الله يتدخل بين فترة وأخرى ليعيد النظام إلى حركة الأفلاك والمجرات، إضافة إلى دورة في منع حدوث الاصطدام بين الكواكب والسيارات.

الدرس الثاني

الله في النظرية الإسلامية

الله في القرآن الكريم

يمكن القول: بأن السبب الأساسي في انتشار وثبات الدين الإسلامي هو تمكنه من التعريف بالله تعالى وصفاته تعريفاً جيداً يليق بشأنه تعالى وبذاته المقدسة.^١ إذ لم يستطع أي دين من الأديان أو مذهب من المذاهب - حتى الديانات الإلهية - وصف الله تعالى بالصورة التي وصفه بها الدين الإسلامي. فالملاحظ من آيات الذكر الحكيم أنها سعت - وبما يناسب لغة القوم - أن تعرف الله تعالى للإنسان علي أكمل وجه وأجلى صورة.

فالله حسب الرؤية القرآنية، واسع، عليم،^٢ أسرع الحاسبين،^٣ حي، قيوم،^٤ علي، كبير، حق،^٥

١. راجع: جوان مسلمان ودياي متجدد، السيد حسين نصر: ٣٦.

٢. البقرة: ١١٥: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٣. الأنعام: ٦٢: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

٤. طه: ١١١: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

٥. لقمان: ٣٠: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

ذو الجلال والإكرام،^١ صمد^٢ (غني عن الكل والكل محتاج إليه).

هو الأول والآخِر والظاهر والباطن.^٣

المتعال،^٤ أي المتعالي عن الأوهام الذي تعجز العقول والأفكار عن إدراك حقيقته ومعرفة صفاته الجمالية والجلالية كما يليق بشأنه.^٥

المنزه عن الرؤيا وإحاطة الأبصار به وهو يدرك الأبصار.^٦

ومن صفاته الأخرى التي وصفه القرآن الكريم بها أنه أحد،^٧ واحد^٨ ليسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^٩ له الأسماء الحسنى.^{١٠}

وهو تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.^{١١}

وأنه تعالى: ﴿...وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى...﴾.^{١٢}

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى الكثير من صفاته وأسمائه المقدسة بما فيه

الكفاية نشير هنا الى بعضها:

١. الرحمن: ٢٧: ﴿وَيَقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

٢. الإخلاص: ٢: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

٣. الحديد: ٣: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٤. طه: ١٤: ﴿قَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

٥. الأنعام: ١٠٠: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

٦. الأنعام: ١٠٣: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ...﴾.

٧. الإخلاص: ١: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

٨. النحل: ٥١: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

٩. الشورى: ١١.

١٠. الأعراف: ١٨٠: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

١١. الحشر: ٢٣.

١٢. النحل: ٦٠.

﴿فَإِنَّمَا تُؤَلُّوا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...﴾^١.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٢.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٣.

وأنه تعالى في عين كونه في غاية العظمة، غير متناه ولا مثيل له ولا شريك، إلا أنه في الوقت نفسه أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد، وأنه يعلم ما توسوس به نفسه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^٤.

الله ملئ بالرحمانية والرحمية، وقد تجلت هاتان الصفتان فيه تعالى بدرجة من الكثرة والعمق، بحيث إن سور القرآن تبدأ بقوله: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^٥، فبالإضافة إلى هذا كله نجده تعالى قد ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^٦.

وأنه تعالى في الوقت الذي يتصف بكونه غفور وغفار وغافر الذنب، نراه هو القوي^٧، القاهر^٨، القهار^٩، قابل التوب^{١٠}،

١. البقرة: ١١٥.

٢. الحديد: ٣.

٣. البقرة: ٢٨٤.

٤. ق: ١٦.

٥. باستاء سورة براءة.

٦. الأنعام: ١٢.

٧. الأنفال: ٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾.

٨. الأنعام: ١٨: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

٩. الرعد: ١٣: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

١٠. غافر: ٣: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

الوهاب^١، الودود^٢، الرؤوف^٣، ذو الطول^٤، ذو الرحمة^٥، التواب^٦، ذو الفضل العظيم^٧.

ومن صفاته تعالى أنه مجيب الدعاء^٨، يداه مبسوطتان في العطاء والرحمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾^٩ وأنه تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾^{١٠} وهو ﴿...فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^{١١} وفوق كل ذلك خالق كل شيء^{١٢}. فكل ما في الكون هي مخلوقات محتاجة إليه وتابعة له تعالى.

وأنه تعالى لا يخلو منه مكان في الأرض ولا في السماء: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ...﴾^{١٣}.

ومن صفاته تعالى أنه مع خلقه أينما كانوا وحيشا حلوا وهو العالم بكل حركاتهم

١. آل عمران: ٨: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

٢. البروج: ١٤: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾.

٣. آل عمران: ٣٠: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

٤. غافر: ٣: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾.

٥. الأنعام: ١٣٣: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾.

٦. البقرة: ٣٧: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

٧. آل عمران: ٧٤: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٨. غافر: ٦٠: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

٩. المائدة: ٦٤.

١٠. الحشر: ٢٤.

١١. الأنعام: ١٤.

١٢. الأنعام: ١٠٢: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾.

١٣. الزخرف: ٨٤.

وسكاناتهم: ﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^١ وأنه تعالى هو المدبر لجميع شؤون الكون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٢.

وأنه تعالى لا شريك له في الخلق والسلطنة،^٣ ولا في المدبرية والربوبية،^٤ وكذلك لا شريك له في الحكم^٥ والشفاعة^٦ وكذلك لا شريك له في سائر الكمالات الأخرى، وأن كل من أنصف بشيء منها فإنما هو بفضل وهبة منه تعالى.^٧

يعد القرآن الكريم كتاب معرفة الله، وقد كانت الآيات القرآنية عميقة ودقيقة جداً في هذا المجال، بنحو عجز كبار المفكرين والعلماء عن إدراك كنهها. فالتعريف الذي يعرضه القرآن الكريم لله تعالى يعد من أهم التعريفات جامعية ودقة وعمقا. من هنا نرى الإمام الخميني عليه السلام ذلك العارف الكبير والمفسر العميق يشير إلى هذه الحقيقة بقوله:

لولا القرآن الكريم لانسد باب معرفة الله تعالى إلى الأبد... وهذا المقدار الذي ورد في القرآن الكريم لا تجد له نظيراً في أي كتاب آخر حتى في كتب العرفان الإسلامي... أضف إلى ذلك أن التعابير التي استخدمها القرآن تختلف عما ذكرت في سواه من الكتب، ففي القرآن الكريم أسلوب منفرد لطائف دقيقة جداً.^٨

١. الحديد: ٤.

٢. الفاتحة: ٢.

٣. الأنعام: ١٦٢: ﴿لَا شَرِيكَ لَه﴾؛ الإسراء: ١١١: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ﴾.

٤. الأنعام: ١٦٤: ﴿قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْيَ رَبِّيَ وَهُوَ وَثِقٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٥. الأنعام: ٥٧: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ راجع الأنعام، ٦٢؛ يوسف: ٤٠.

٦. الزمر: ٤٤: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

٧. فاطر: ١٥: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

٨. قرآن باب معرفة الله، سلسلة كلمات الإمام الخميني عليه السلام حول القرآن الكريم: ٣٢، نقلاً عن صحيفة جمهوري إسلامي، ٩/٩/١٣٦٤ هـ.ش.

خلاصة البحث

١. لم يعرف الله تعالى ولم يوصف في كتاب، كما عرف ووصف في القرآن الكريم.
٢. إن الله يتحلّى بكلّ صفات الكمال وأنّ له الأسماء الحسنى.
٣. واحد أحد لا مثيل ولا نظير له.
٤. إنّه تعالى في عين كونه في غاية العظمة، إلّا أنّه في نفس الوقت أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد، وهو معه أينما كان.
٥. هو الرحمن الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه.
٦. يده مبسوطتان، مجيب الدعاء، رؤوف بعباده.
٧. هو خالق كلّ شيء والمدير لشؤون الكون.
٨. لولا القرآن الكريم لانسد باب معرفة الله تعالى إلى الأبد. (الإمام الخميني)

* اعتمدنا في تدوين هذا القسم علي كتاب *خدا از دیدگاه قرآن* = *الله في القرآن الكريم* للشهيد الدكتور بهشتي. ولمزيد الاطلاع يمكن مراجعة الكتاب المذكور.

الدرس الثالث

الجميع يعرفون الله

بداهة وجود الله في القرآن الكريم^١

من المتعارف في الكتب الفلسفية والكلامية البدء بالبحث في إثبات وجود الله، حيث تبذل فيها قصارى الجهود -استناداً للكثير من البراهين - لإثبات أمرين هما: إنَّ للكون خالقاً، وإنَّ هذا الخالق غير مخلوق.

إلا أنَّ الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم سلكت مسلكاً آخر في هذا المجال قضية الله. فمن النادر العثور فيها على عبارة تتعرض بصورة مباشرة إلى إثبات أصل وجود الله، وكانَّ أصل وجود الله يعدُّ من الأمور المسلمة والواضحة التي لا مجال لإنكارها ولا حاجة لإثباتها.

وقد صرح المفسر الكبير العلامة الطباطبائي بهذه القضية، حيث قال:

القرآن الشريف يعدُّ أصل وجوده تبارك وتعالى بديهياً لا يتوقَّف في

١. الجدير بالذكر أن المراد من البداهة هنا معناها العام الشامل للبديهيات الثانوية (الفطريات). وهي القضايا التي يحتاج التصديق بها إلى استدلال وتمسك بالحد الوسط. ويكفي أدنى التفات لخطور ذلك الاستدلال في الدهن.

التصديق العقلي به، وإنما يعني عنايته بإثبات الصفات، كالوحدة، والفاطرية، والعلم، والقدرة، وغير ذلك^١.

وكذلك يعتقد ذلك المفسر الكبير: إن قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، مسوقة لنفي غير الله من الآلهة الموهومة المتخيلة لا لنفي غير الله وإثبات وجود الله سبحانه، كما توهمه كثيرون، ويشهد بذلك أن المقام إنما يحتاج إلى النفي فقط، ليكون تثبيتاً لوحده في الألوهية لا الإثبات والنفي معاً^٢.

إن منطق القرآن الكريم في خصوص أصل وجود الله هو: ﴿...إِنِّي اللَّهُ شَكُّ...﴾^٣.

بداية وجود الله في سائر الكتب السماوية

كما أشرنا سابقاً أن الكتب السماوية الأخرى قد سلكت نفس الطريق في تعريف الله تعالى، يقول آربري (A.J.Arbery) في كتاب العقل والوحي في الإسلام: كانت اليونان في عصر أفلاطون منبعاً للروايات التي يتوصل بها إلى إثبات وجود الله مع الاستعانة بالدليل والبرهان. أما في الغرب فهي المرة الأولى التي يبحث فيها البشر في معرفة الخالق. فلم يتعرض أي كاتب من كتاب العهد القديم للسؤال أو التردد في قضية وجود الله؛ وذلك لأن روحية الجنس السامي تجد الله في الوحي. وما قلناه حول العهد القديم يصدق بنحو ما بالنسبة إلى العهد الجديد^٤.

إن من يطالع الاوستا يجد أن قضية التسليم ببداية وجود الله لا تنحصر في الجنس السامي وكتبهم الدينية، بل أن الكتب الآرية هي الأخرى تسلم ببداية وجود الله واستغنائه عن الدليل والبرهان.

١. الميزان في تفسير القرآن: ٣٩٥/١.

٢. المصدر.

٣. إبراهيم: ١٠.

٤. عقل ووحى در اسلام: ٩، نقلاً عن آية الله السيد محمد حسين البهشتي، خدا از ديگاه قرآن: ٣٣.

نعم، يشاهد بين الآونة والأخرى في الأوباشيات - الذي يعد من الكتب الهندية المقدسة - بعض العبارات التي فيها إشارات وتساؤلات حول وجود الله تعالى والعلة الأولى^١، إلا أن هذه العبارات لا تتعدى كونها نظرة إلى ما هي العلة الأولى ومبدأ الخلق؟ وما هي صفاته؟ لا الشك والريبة في أصل وجوده.

الله في العصر الجاهلي

يستفاد من الآيات القرآنية الكريمة أن قضية التسليم بوجود الله تعد من الأمور المسلمة في أوساط المجتمع الجاهلي في عصر البعثة الشريفة ونزول الوحي، وأن عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بوجود الله تعالى: ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^٢.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^٣.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^٤.

الاعتقاد بوجود الله لدى قوم نوح وعاد وئمود

كذلك يستفيد من الآيات القرآنية الكريمة أن قضية التسليم بوجود الله لا تنحصر

١. من قبيل: ما هي العلة؟ من هو الراهما؟ من أين جئنا؟ كيف نعيش وعلى أي شيء نستقر؟ لإرداء من نخضع في اللذة والألم؟ هل نحن الذين نعيش في مراحل مختلفة؟. راجع: الأوباشيات، ترجمة الدكتور رضا زاده شفق، طهران، بنكا، ترجمة ونشر كتاب ١٣٤٥ هـ. ش، نقلاً عن خدا از ديكاه قرآن: ٣٦.

٢. العنكبوت: ٦١.

٣. العنكبوت: ٦٣.

٤. الزخرف: ٩؛ يونس: ١٨.

في الأقوام المعاصرة للنبي الأكرم ﷺ، بل القضية تمتد إلى عمق التاريخ، حيث تشمل كلاً من قوم نوح، عاد، ثمود وأقوام أخرى جاءت بعدهم، فلم يكن محور النزاع بين تلك الأقوام وبين أنبيائها قضية أصل وجود الله، بل كان النزاع في التوحيد والنبوة والمعاد. فقد كان الوثنيون يذعنون بوجود الله وكونه هو الخالق ويصدقون به، وإنما ينظرون إلى الأصنام كتجليات محسوسة له سبحانه. وأنهم إنما يعبدون تلك الأصنام ويتقربون إليها باعتبار كونهم وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله تعالى؛ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَرِّجَكُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ١.

يؤكد العلامة الطباطبائي في تفسيره الآية العاشرة من سورة إبراهيم، علي هذه الحقيقة بقوله:

إن الفطر لو كان بمعنى الخلق لكان البرهان الذي أُشير إليه بقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مسوقاً لإثبات وجود الخالق فكان أجنبياً عن المقام؛ لأن الوثنية لا تنكر وجود خالق للعالم، وأنه هو الله عز اسمه لا غير، وإنما ينكرون توحيد الربوبية والعبادة وهو أن يكون الله سبحانه هو الرب المعبود لا غير وينكرون الرسالة والمعاد وأن قوله

تعالى: ﴿...فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ بصدد إقامة البرهان على التوحيد لا على أصل وجود الله تعالى.^١

وقد ذهب إلى هذا الرأي كل من الطبرسي في مجمع البيان وسيد قطب في ظلال القرآن، وغيرهم من المفسرين معتقدين أن المحور الذي يدور عليه إنكار الوثنيين وعباد الأصنام هو التوحيد لا أصل وجود الله تعالى.

خلاصة البحث

١. إن الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم اعتبرت أصل وجود الله من الأمور المسلمة التي لا مجال لإنكارها ولا حاجة لإقامة الدليل عليها.
٢. ذكر بعض المؤلفين الغربيين أنه لا يوجد في أوساط كتاب العهدين القديم والجديد من يري أن قضية وجود الله أمراً مبهماً يحتاج إلى إقامة الدليل عليه. وهذا الرأي أيضاً يشاهد في الأوستا وغيرها من الكتب الدينية.
٣. يستفيد من الآيات القرآنية الكريمة أن قضية التسليم بوجود الله تعد من الأمور المسلمة في أوساط المجتمع الجاهلي في عصر البعثة الشريفة، وأن عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بوجود الله أيضاً.
٤. كذلك يستفاد من الآيات القرآنية الكريمة أن قضية التسليم بوجود الله تشمل كلاً من قوم نوح، عاد، ثمود وأقوام أخرى جاءت بعدهم، ولم يكن النزاع بينهم وبين أنبيائهم في أصل وجود الله، بل كان النزاع في التوحيد والنبوة والمعاد.

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن: ٢٦/١٢.

الدرس الرابع

الله والفطرة

يستفيد من آيات الذكر الحكيم بوضوح تامّ أنّ هناك مجموعة من الأمور ذات الصلة بالله تعالى تعدّ من الأمور الفطرية التي عجنت خلقة الإنسان بها، منها:

١. الاعتقاد بوجود الله.

٢. التوجّه والميل إليه سبحانه.

٣. الميل نحو عبادته تعالى.

وقبل أن نشير إلى الآيات القرآنية التي يّنت تلك الحقيقة نرى من الضروري الإشارة إلى بعض الأمور المهمّة.

المعنى اللغوي

أصل الفطر: الشقّ طويلاً، ثمّ استعملت في مطلق الشق، وبما أنّ الخلق والإيجاد بمثابة الشق لظلمات العدم كان إحدى معاني الفطرة هو الخلق والإيجاد، كذلك يفهم منها معنى الإبداع والاختراع.

أما الفطرة على وزن فعلة الدالّ على النوع فتعني نوعاً خاصاً من الخلق، وفطرة الإنسان جبلته وطبيعته الخاصّة.^١

١. قال ابن منظور في لسان العرب: وأصل الفطر: الشق، ومنه قوله تعالى: إذا السماء انقطرت، أي

والظاهر أنَّ أول من استعمل هذه الكلمة في خصوص الإنسان هو القرآن الكريم ولم تكن من قبل مستعملة في هذا المجال.^١

الفطرة في القرآن الكريم

جاءت كلمة الفطرة بمشتقاتها في أكثر من آية من آيات الذكر الحكيم، منها قوله تعالى: ﴿...فَطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^٢، ﴿...الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾^٣، ﴿...فَطَرْنَا...﴾^٤، ﴿...فَطَرَنِي...﴾^٥، و﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٦. والمراد من الكلمة في جميع هذه الآيات الذي أبدعنا وأوجدنا. وأمّا كلمة فطور الواردة في قوله تعالى: ﴿...فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^٧. فمعناها: أدر أيها الإنسان في الخلق واستقص في النظر مرة بعد أخرى: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ هل تنظر فيها من شقوق أو خلل؟ وأمّا المراد من قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ...﴾^٨. أي مشق.

انشقت... وفطر الله الخلق يُفْطِرُهُم: خلقهم وبدأهم. والفطرة: الابتداء والاختراع... والفطرة، بالكسر: الخلقة... والفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به... وقال أبو الهيثم: الفطرة الخلقة التي يخلق الله عليه المولود في بطن أمه. وقوله تعالى: الذي فطرني فإنه سيهدين: أي خلقتني... وقول النبي: كل مولود يولد على الفطرة: يعني الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة. لسان العرب: ٥٥/٥ - ٥٦. مادة «فطر».

١. راجع: الفطرة، مرتضى المطهري: ١٤.

٢. الأنعام: ٧٩.

٣. الإسراء: ٥١.

٤. طه: ٧٢.

٥. هود: ٥١؛ يس: ٢٢؛ الزخرف: ٢٧.

٦. الأنعام: ١٤؛ يوسف: ١٠١؛ فاطر: ١؛ الزمر: ٤٦؛ الشورى: ١١.

٧. الملك: ٣.

٨. المزمل: ١٨.

أما كلمة فطرة فقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة مضافة إلى الله ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ وكذلك في خصوص الإنسان جاءت مضافة إليه مرة واحدة أيضاً ﴿فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^١. ثم إن هذه الآية المباركة صارت السبب في نشوء مصطلح الفطرة في مصادر الثقافة الإسلامية، ومنها استلهم المفكرون والفلاسفة والعرفاء الإسلاميون مباحثهم في مجال معرفة الله تعالى ومعرفة الإنسان.

فطرة الإنسان الإلهية

يجب على كل مدرسة أو مذهب فكري يدعي هداية الإنسان وسوقه نحو الكمال والسعادة الأبدية أن يطرح تعريفاً ورؤية خاصة للإنسان، وانطلاقاً من هذا التعريف ترسم للإنسان طريق سعادته الأبدية.

ومن الواضح أن المدرسة الإسلامية عالجت قضية الإنسان من زوايا مختلفة وبحثتها من أبعاد متعددة، سواء على مستوى القرآن الكريم أو السنة المطهرة، ولقد كانت تلك الأبحاث والمطالب بمستوى من الشمول والاستيعاب، بحيث تحتاج إلى أن يفرد لها مؤلف ضخمة.^٢

وأن أفضل كلمة تبين نظرة الإسلام للإنسان هي مصطلح «الفطرة». من هنا يمكن إطلاق مصطلح نظرية الفطرة على تعريف الإسلام للإنسان.

إطلالة على نظرية الفطرة

يمكن القول - بصورة إجمالية - أن نظرية الفطرة تعني:

١. للإنسان طبيعة خاصة تنطلق من سجيته وفطرته الأولى، وأنه مزود بمعارف

١. الروم: ٣٠.

٢. راجع: درآمدي بر خداشناسي فطري، علي شيرواني.

ومبول خاصة لم تفرض عليه من الخارج، بل هي معجونة في أعماق وجوده.
 بعبارة أخرى: لا يمثل الإنسان صحيفة بيضاء تتقبل كل ما يدون فيها ويملي عليها، بل هو مزود في أعماقه بضمير ومبول ومعارف خاصة.

٢. زود الإنسان بمجموعة من الميول والغرائز بعضها تتعلق ببعده الحيواني والبعض الآخر منها يتعلق بالجانب الإنساني منه. والفطرة الإلهية ناظرة إلى الميول ذات البعد الإنساني فقط وغير ناظرة إلى الغرائز المشتركة بينه وبين الحيوان كالغريزة الجنسية.

٣. إن هذه الميول والوعى هي التي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات، وأن نقطة الافتراق بينه وبين الحيوان تتمثل في تلك الأمور فمن فقدوها ينتزل حينئذٍ إلى درجة الحيوانية وأن كان يحمل صورة الإنسان ظاهراً.

٤. بما أن تلك الميول تتعلق بنوع الإنسان فهي موجودة عند جميع أفرادها لا تختص بقوم دون قوم أو بزمان دون زمان، فلم تكن من نصيب مجتمع خاص أو جنس خاص، بل إن جميع أفراد النوع الإنساني يتحلون بها على مرّ العصور والأزمان وفي جميع الأماكن والبلدان.

٥. توجد هذه الميول في الإنسان بنحو القوة والاستعداد؛ بمعنى أن أرضيتها كامنة فيه، إلا أن نموها وازدهارها وظهورها يتوقف على سعي الإنسان ومثابرتة.

٦. لو قدر للإنسان تنمية تلك الأمور الفطرية في نفسه وإخصابها وازدهارها، فحينئذٍ تسمو مرتبته حتى يصل إلى درجة من التعالي يسمو فيها على الملائكة، بل يصل إلى قمة الكمال والعروج الروحي، ولكن لو خمدت تلك الشعلة واستبدلت فطرته الإلهية بالميول والغرائز الحيوانية فحينئذٍ يتسافل إلى أدنى الدرجات حتى يصل إلى مرتبة يكون فيها أخس من الحيوانات ويهوي في أسفل دركات الجحيم.

٧. كما أشرنا سابقاً أن الفطريات الإنسانية منها ما يعد من مقولة المعرفة والإدراك وبعضها الآخر من مقولة الميول والغرائز.

والمذكور في مباحث المنطق ضمن البديهيات الأولية هو المعارف الفطرية، وهناك أمور أخرى تعتبر من الأمور الفطرية أيضاً من قبيل حب الاستطلاع، البحث عن الحقيقة، حب الفضيلة والجمال.^١

فطرية المعرفة الإلهية

يستفيد من آيات الذكر الحكيم أن المعرفة الإلهية معرفة فطرية وكذلك النزوع والميل نحوه تعالى. وقد مرّ في مبحث «الجميع يعرفون الله» أن القرآن الكريم يرى أن الإذعان بوجود الله تعالى يعدّ من الأمور المتسالم بها بين البشر، وأن هذه القضية لا تعدّ من القضايا المجهولة التي تحتاج إلى الدليل والبرهان، كذلك يظهر من مباحث ذلك الفصل أن معرفة الله من الأمور الفطرية.

ومن تلك الآيات التي تدلّ على فطرية المعرفة الإلهية الآية الثلاثون من سورة الروم المعروفة بآية الفطرة، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.^٢ فالآية الكريمة تدلّ بصراحة تامة على أن الدين أمر فطري. وللمفسرين في بيان المراد من الدين الوارد في الآية المباركة نظريتان:

أ) إن المراد من الدين هو مجموع المعارف والأحكام المشرعة وخاصة معارف وأحكام الإسلام الأساسية، بناء على هذه النظرية، تكون كليات الدين - التي من أهمها معرفة الله وعبادته - قد عبثت في فطرة الإنسان. وقد تبنى العلامة الطباطبائي هذه الرأي.^٣

١. لمزيد الاطلاع راجع المؤلف، درآمدي بر خدا شناسي فطري.

٢. الروم: ٣٠.

٣. راجع: الميزان في تفسير القرآن: ١٨٠/٥.

(ب) المراد من الدين الموافق للفطرة، حالة الإسلام والتسليم المحض لله تعالى؛ وذلك لأنّ لب الدين وجوهه يكمن في الانقياد والخضوع والإذعان التام لأوامره تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^١

وطبقاً لهذه النظرية يكون المراد من فطرة الدين أنه قد أودع في خلق الإنسان غريزة الميل نحو الله تعالى وعبادته. ومن الواضح أنه إذا كانت العبادة أمراً فطرياً فلا بد أن تكون المعرفة أيضاً قضية فطرية، إذ كيف يجتمع الميل الفطري للعبادة مع الجهل بالمعبود؟

خلاصة البحث

١. يستفيد من آيات الذكر الحكيم أنّ من الأمور الفطرية قضية الاعتقاد بالله والميل إليه وإلى العبادة.
٢. إحدى معاني كلمة الفطرة هو الخلقة، والفطرة لغة: تعني نوعاً خاصاً من الخلق، وفطرة الإنسان تعني جبلته وطبيعته الخاصة.
٣. وردت كلمة الفطرة في القرآن الكريم مرّة واحدة مضافة إلى الله ﴿فَطَرَتُ اللَّهَ﴾ وكذلك في خصوص الإنسان جاءت مضافة إليه مرّة واحدة أيضاً فطر الناس عليها.
٤. يمكن إطلاق مصطلح نظرية الفطرة على تعريف الإسلام للإنسان.
٥. إنّ نظرية الفطرة تعني: ١. للإنسان طبيعة خاصّة تنطلق من سجيته وفطرته الأولى، وآته مزود بمعارف وميول خاصّة. ٢. الفطرة الإلهية ناظرة إلى الميول ذات البعد الإنساني فقط وغير ناظرة إلى الغرائز المشتركة بينه وبين الحيوان كالغريزة الجنسية. ٣. إنّ هذه الميول الفطرية هي التي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات. ٤. تلك الميول موجودة عند جميع أفراد الإنسان. ٥. توجد هذا الميول في الإنسان

بنحو القوة والاستعداد، إلا أن نموها وازدهارها وظهورها يتوقف على سعي الإنسان ومثابرتة^٦. لو قدر للإنسان تنمية تلك الأمور الفطرية في نفسه، فحينئذٍ يسمو على الملائكة، وألّا يتسافل إلى درجة أدنى من الحيوانات. ٧. البديهيّات الأولية من المعارف الفطرية، وهناك أمور أخرى تعتبر من الأمور الفطرية أيضاً من قبيل حب الاستطلاع، البحث عن الحقيقة، حب الفضيلة والجمال.

٦. يستفيد من آيات الذكر الحكيم أن المعرفة الإلهية والنزوع والميل نحوه تعالى أمور فطرية.

٧. المراد من الدين في الآية الثلاثين من سورة الروم، مجموع المعارف والأحكام المشرعة، خاصة معارف وأحكام الإسلام الأساسية، أوحالة الإسلام والتسليم المحض لله تعالى. وعلى كل تقدير المستفاد من الآية كون المعرفة والعبادة أموراً فطرية.

الدرس الخامس

برهان النظم

أسلفنا أنّ وجود الله تعالى أمر جلبي، وأنّ الإيمان بوجوده سبحانه راسخ في فطرة الإنسان، بمعنى أنّ كلّ إنسان يؤمن بفطرته بوجود الله تعالى، إلّا أنّ هذا لا يعني انعدام الأدلّة والبراهين على وجوده سبحانه،^١ بل هناك الكثير من الأدلّة والبرهين التي أقامها الإلهيون لإثبات وجوده تعالى.

من أبسط تلك البراهين وأيسرها برهان النظم الذي يتألف من مقدّمتين:

(أ) إنّ في عالم الطبيعة مجموعات منظمة.

(ب) كلّ مجموعة منظمة تحتاج إلى ناظم.

النتيجة: إذاً للمجموعات المنظمة في العالم يوجد ناظم.

إنّ فهم هذا البرهان ليس بالأمر المعقد، بل إدراك محتواه وفهم مضمونه متيسر حتّى للأمين من الناس، فإنّهم بمجرد الالتفات إلى آثار النظم في هذا العالم يدركون

١. تقسم البديهيات إلى طائفتين: (أ) البديهيات التي لا يمكن إقامة الدليل والبرهان عليها، بل يكفي في صدقها بدايتها فقط، مثل: قضية استحالة اجتماع النقيضين. (ب) القضايا التي مع كونها بديهية يمكن إقامة الدليل عليها، وتحمل تلك الأدلّة في الواقع جنبه تنبيهية، مثل: قضية استحالة إعادة المعدوم.

وجود الناظم (الله تعالى)، نعم البيان الفني والتفسير العلمي للبرهان يتوقف على تعريف النظم أولاً وتوضيح كل من المقدمتين السابقتين ثانياً.

تعريف النظم

يمكن تعريف النظم بالنحو التالي: النظم عبارة عن اخضاع مجموعة من الأجزاء المتفاوتة - كمّاً وكيفاً - لنوع من الضبط والتوازن، بحيث تؤدي جميعها إلى تحقيق غاية معينة.

فالساعة - مثلاً - موجود منظم؛ وذلك لأن أجزاءها - مع اختلافها كمّاً وكيفاً، حيث لكل جزء منها مادته وهيئته الخاصة - قد وضعت بعضها إلى جانب البعض الآخر وأخضعت لنوع من الضبط والتوازن بنحو تؤدي حركتها المتجانسة والمتناسقة إلى حركة عقربها بصورة دقيقة وتحديد الزمن بنحو صحيح.

المقدمة الأولى

لا يمكن الشك والريبة في خضوع المجاميع الكونية لنوع دقيق من النظم، وهذا أمر لا يرتاب فيه حتى الملحدون فضلاً عن الإلهيين، فالكلّ يسلمون بوجود هذا النظم، بل إن الأساس في العلوم التجريبية هو اكتشاف هذا النظم والتناسق في العالم، وكلما تطوّرت العلوم اكتشفت الكثير من النظم العجيب الذي تخضع له الطبيعة. من هنا لو سألنا أي عالم - إلهياً كان أم مادياً - عن النظم في الكون لأجاب: بأنّ عالم الكون خاضع لنظام عجيب ومحير من الذرة إلى المجرة، فالنظام يحكم عالم الإنسان - مثلاً - ابتداءً بأبسط الخلايا مروراً بأعقد الأجزاء كالقلب والدماغ والشبكة العصبية و...، وهكذا الأمر في سائر الموجودات الأرضية والسماوية، فالكلّ يعيش حالة من التناسق والتوازن الدقيق جدّاً والباهر للعيون.

المقدمة الثانية

إنّ في برهان النظم أمر بديهي يسلم به الجميع وفي الحقيقة إنّنا نعلمه في كلّ يوم. فحينما نشاهد عمارة مكونة من مجموعة من الطوابق قد صممت بشكل رائع لا بد أن ندّعن - من أعماقنا - بأنّ هذه العمارة هي من صنع مهندس قد رسم خارطتها ومعمار حاذق قام ببنائها.

فعندما نطالع نهج البلاغة أو الصحيفة السجادية نكتشف بأنّ صاحب هذه الكلمات إنسان متمكن من أعلى مستويات البلاغة و الفصاحة و الحكمة و العلم والمعرفة. وهكذا حينما يقع نظرنا على ساعة صغيرة تعمل باتقان نكتشف أنّ صانعها ذو معرفة عالية بأصول صناعتها.

فهل يمكن أنّ يتطرّق إلى الذهن في هذه الأمثلة - والآلاف غيرها - احتمال كونها وليدة الصدفة، وأنّها من صنع موجود لا يملك أدنى أصول العلم والمعرفة؟
فهل من المعقول عندما نشاهد ورقة على آلة الطباعة قد دوت فيها أدقّ المباحث العلمية ورصفت حروفها بشكل دقيق جدّاً، أن نقول: بأنّ هذه الورقة هي نتاج طفل صغير لا يجيد سو الضغط بأصابعه على الأزرار، وأنّه ضرب بإصبعه - صدفة - على آلة الطباعة فخرجت تلك الورقة بهذا الشكل من الدقّة والاتقان العلمي؟!
إذا الكلّ يدّعن بأنّ وراء كلّ نظم ناظماً.

تنبيهات

١. العلاقة بين دقّة النظم وحكمة الناظم وبراعته علاقة طردية فكلما، كان النظم دقيقاً ومعقداً كشف عن مدى براعة الناظم وقدرته وحكمته العالية.
٢. لا يتوقّف برهان النظم على إثبات وجود النظم في جميع أجزاء العالم، بمعنى

أنه ليس من اللازم إثبات وجود النظام في كلِّ العالم، بل يكفي لصحة البرهان وجود النظم الدقيق والمعقد في بعض الموجودات الكونية.

بعبارة أخرى: يكفي وجود بعض المجاميع المنظمة التي نعرفها في إثبات وجود ناظم حكيم مقتدر متمكّن، سواء خضع الجانب المجهول من العالم للنظم أيضاً أم لا. بعبارة ثالثة: ما ندركه من النظم في العالم يحتاج إلى ناظم سواء انحصرت الأمور المنظمة في العالم فيه أم لا.

٣. برهان النظم يردع الذين يدعون أن العالم وليد الطبيعة الصماء، وأنه نتاج الحركة العشبية للذرات وتأثر بعضها ببعض الآخر.

٤. كلما تطوّرت العلوم التجريبية اكتشفت نظاماً جديدة في عالم الطبيعة الأمر الذي يؤدي إلى استحكام برهان النظم وثباته بنحو أكثر؛ وذلك لأنَّ كلَّ اكتشاف جديد عن أسرار الطبيعة يضع بين أيدي الباحثين والعلماء آية جديدة لإثبات وجود الله تعالى. وقد أشار إلى هذه الحقيقة الفلكي المعروف هارشل، حيث قال:

كلما توسعت دائرة العلم زادت الأدلة المحكمة والقوية لإثبات وجود الله الأزلي الأبدى.^١

٥. صحيح إنَّ القرآن الكريم لم يقم برهاناً صريحاً على أصل وجود الله سبحانه؛ لأنَّ وجوده تعالى من البديهيات، لكنّه اعتمد كثيراً على برهان النظم والانطلاق من النظام العجيب في الكون لإثبات وحدانية الله ونفي الشريك عنه في خلق العالم وتدبير شؤونه، فقد دعا القرآن الكريم الناس في أكثر من آية للتأمّل والتدبّر في الظواهر الكونية، واعتبار كلِّ واحدة منها آية وعلامة على وجوده سبحانه. من هذه الآيات:

١. نقلاً عن معارف إسلامي: ٤١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.^١

وقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.^٢

وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.^٣

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وفي السَّمَاءِ رُفُكُم وَمَا تُوعَدُونَ﴾.^٤

خلاصة البحث

١. تقرير برهان النظم: ١. في العالم مجموعات منظمة. ٢. كل مجموعة منظمة تحتاج

إلى ناظم، إذا المجموعات المنظمة لها ناظم.

٢. النظم عبارة عن: إخضاع مجموعة من الأجزاء المتفاوتة - كمأ وكيفاً - لنوع من

الضبط والتوازن، بحيث تؤدي جميعها إلى تحقيق غاية معينة.

٣. إن وجود المجاميع المنظمة في العالم من الأمور المسلمة التي لا يختلف فيها اثنان.

٤. إن الجميع يسلم بالمقدمة الثانية فهي حاضرة في حياة الجميع يومياً بصورة لاشعورية.

٥. كلما كان النظم دقيقاً ومعقداً كشف عن مدى براعة الناظم وقدرته وحكمته العالية.

١. آل عمران: ١٩٠.

٢. الجاثية: ٤.

٣. البقرة: ١٦٤.

٤. الذاريات: ٢١ و٢٢؛ يونس: ٥ و٦٧؛ فصلت: ٣٧؛ الأنعام: ٩٧؛ النحل: ٦٥؛ الروم: ٢٣؛ آل عمران:

١٩٠؛ الروم: ٢٢؛ الإسراء: ١٢؛ القصص: ٧١ - ٧٤؛ العنكبوت: ١٧ - ١٩. لمزيد الاطلاع على برهان

النظم راجع: مكارم الشيرازي ومساعدوه، رسالة القرآن، پیام قرآن، المجلد الثاني، نشر مدرسة

الإمام أمير المؤمنين، الطبعة الأولى، ١٣٦٧ هـ. ش. وراجع: مجموعة من المؤلفين، معارف إسلامي

(المعارف الإسلامية): ٣٩ - ٦٧.

٦. لا يتوقف برهان النظم على إثبات وجود النظم في جميع أجزاء العالم.
٧. برهان النظم يرد على الذين يدعون أنّ العالم وليد الطبيعة الصماء.
٨. يزداد برهان النظم استحكاماً كلما تطوّرت العلوم التجريبية وكشفت نظماً جديداً.
٩. أشار القرآن الكريم إلى نظام المخلوقات لإثبات وحدانية الله ومدبريته للكون.

الدرس السادس

صفات الله تعالى

صفات الذات وصفات الفعل

قسمت صفاته تعالى بتقسيمات متعددة من أهمها تقسيمها إلى الصفات الذاتية والصفات الفعلية.

الصفات الذاتية: هي ما يكفي في وصف الذات بها، فرض نفس الذات فحسب. بعبارة أخرى: لكي نصف الله تعالى بها يكفي فرض وجود ذاته سبحانه ولا نحتاج إلى فرض شيء آخر خارج عن الذات، كالحياة والقدرة، فلولم يكن في الوجود إلّا ذاته تعالى لوصفت بالحياة والقدرة.

الصفات الفعلية: وهي ما يتوقّف وصف الذات بها على فرض شيء آخر وراء الذات. فعلى هذا الأساس الصفات الفعلية هي الصفات المنتزعة من مقام الفعل، أي أنّ الذات توصف بهذه الصفات عند ملاحظة صدور الفعل من الله تعالى ولا يكفي في الاتصاف بها مجرد فرض وجود الذات، بل لا بدّ من فرض وجود شيء أولاً، ثمّ بيان العلاقة بينه وبين الذات.

فعلى سبيل المثال لولم يكن هناك شيء مخلوق لا يوصف تعالى بالخالقية، كذلك لا يوصف بالشارع لولم يكن هناك مخلوق مكلف بالتكاليف الإلهية ولم

يصدر من الله تعالى أي شريعة أو تكليف في ذمة العباد، وكذلك لا يوصف بالغفور لو لم يعصه أحد ويغفر له.

أتضح من خلال ذلك أن كلاً من صفة الخالق والشارع والغفور من الصفات الفعلية.

ثم إن أهم الفوارق بين الصفات الذاتية والفعلية عبارة عن:

١. الصفات الفعلية هي الصفات التي تتصف بها الذات بعد صدور الفعل أولاً، ثم المقارنة بينه وبين الذات. بعبارة أخرى: هي الصفات المنتزعة من مقام الفعل خلافاً للصفات الذاتية، حيث تنتزع من مقام الذات فقط.

٢. صفات الفعل قابلة للنفي والإثبات، بمعنى أنه يمكن سلبها عن الله تعالى في شروط خاصة وإثباتها له سبحانه في شروط أخرى. وبعبارة أخرى: إن كلاً من نفيها وإثباتها ممكن بالنسبة إليه سبحانه، فالله تعالى قبل خلق الأرض لم يوصف بأنه خالق الأرض، ولكنه يوصف بذلك بعد خلقها، حيث يصح حينئذ القول: بأن الله خالق الأرض.

كذلك الله تعالى لم يوصف قبل بعثة النبي الأكرم ﷺ بأنه منزل القرآن، ولكنه يوصف بذلك بعد البعثة الشريفة.

أما الصفات الذاتية فهي ملازمة للذات الإلهية المقدسة وثابتة لها دائماً ويستحيل سلبها وانفكاكها عنها، وأنه تعالى واجد له أزلاً وأبداً.

الصفات الثبوتية والصفات الفعلية

الصفات الثبوتية: تلك الطائفة من الصفات التي تبين جمالاً وكمالاً من كمالات الذات الإلهية، بمعنى إذا كانت الصفة مثبتة لجمال في الموصوف ومشيرة إلى واقعية في ذاته سميت ثبوتية ذاتية أو جمالية.

ولا بد من الالتفات إلى أنه لا مجال لأي نقص أو شائبة نقص في الصفات الثبوتية الإلهية فإذا ما عثرنا على مفهوم من المفاهيم مع كونه يدل على الكمال إلا أنه يستلزم

نوعاً من النقص أو العيب في الذات الإلهية فلا يمكن عدّه من صفاته الثبوتية سبحانه، كصفة الشجاعة بمعنى عدم الخشية من العدو الذي يتوقّع منه الضرر. فهذه الصفة وإن كانت تعدّ كمالاً من جهة ما؛ لأنّ الموجد الشجاع أكمل من الجبان، إلّا أنّه في نفس الوقت تعني تأثر الشخص الشجاع أو تعرّضه لنوع من الخطر، وبما أنّه سبحانه أسمى من أن يناله خطر أو يؤثّر فيه شيء مهما كان ذلك الشيء، فلا يمكن وصفه سبحانه بـ «الشجاع»، وعليه يسلب عنه سبحانه وصفاً الشجاعة والجبن معاً.

الخلاصة: إنّ الصفات الثبوتية هي التي تدلّ على كمال وتنزه عن النقص. الصفات السلبية: هي الصفات التي تنزه الله سبحانه عن النقص والحاجة كنفسي الجسمية والعجز وتنزيهه عن المكان والزمان.^١ وأمّا الصفات الثبوتية هي الصفات التي تهدف لإثبات كماله تعالى.

ثمّ إنّ الصفات الثبوتية هي نفس الصفات الجمالية، وأمّا الصفات السلبية فهي الصفات الجلالية.

خلاصة البحث

١. تقسم الصفات الإلهية إلى قسمين الصفات الذاتية والصفات الفعلية.
٢. الصفات الذاتية: هي ما يكفي في وصف الذات بها، فرض نفس الذات فحسب كالحياة والقدرة .
٣. الصفات الفعلية: هي الصفات التي يتوقّف وصف الذات بها على فرض شيء آخر وراء الذات كالخالق والغفور.

١. يعلم بقليل من الإمعان أنّ الصفات السلبية تعود إلى الثبوتية؛ وذلك لأنّ ما يسلب منه تعالى من الصفات السلبية هو النقص والنقص أمر عديمي، ومن الواضح أنّ سلب السلب إثبات، فعندما نقول: «الله ليس بعاجز» يعني ذلك إنّنا قلنا: إنّ الله ليس بفاقد القدرة، والمتره عن العجز، قادر.

٤. من الفوارق بين صفات الذات وصفات الفعل هي: ١. الصفات الفعلية هي الصفات المنتزعة من مقام الفعل خلافاً للصفات الذاتية، حيث تنتزع من مقام الذات فقط. ٢. صفات الفعل قابلة للنفي والإثبات، أما الصفات الذاتية فملازمة للذات الإلهية المقدسة وثابتة لها دائماً.
٥. تقسم الصفات الإلهية بحيثية أخرى إلى الصفات الثبوتية والسلبية.
٦. الصفات الثبوتية تلك الطائفة من الصفات التي تبين جمالاً وكمالاً من كمالات الذات الإلهية كالعلم والقدرة.
٧. الصفات السلبية هي الصفات التي تنزه الله سبحانه عن النقص والحاجة كنفى كونه جسماً وسلب العجز عنه سبحانه.
٨. صفات الله الثبوتية هي الصفات التي ثبت الكمال له شريطة ألا يلازمها نقص أو عيب، وأما الصفات السلبية فهي الصفات التي تشير إلى تنزهه سبحانه عن النقص.

الدرس السابع

العلم^١

يحيط علمه تعالى بجميع الأشياء فلم يعزب عن علمه جل شأنه شيء مهما دق، كما أنه تعالى يعلم بما مضى وما سوف يأتي من الذرة إلى المجرة، فالكلّ معلوم لله تعالى. وهل يمكن أن نتصوّر بأن الله الذي منح الأشياء الوجود وأخرجها من كتم العدم إلى نور الوجود يجهل بمخلوقات؟!

الشواهد القرآنية

بالإضافة إلى البراهين العقلية التي تؤكد علمه تعالى اللامحدود هناك الكثير من آيات الذكر الحكيم التي تشير وتؤكد هذه الحقيقة، منها الآيات التالية:

﴿...وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.^٢

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.^٣

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.^٤

١. يعتبر العلم من صفات الله الثبوتية ومرتبة منها صفة ذات والمرتبة الأخرى منه صفة فعل.

٢. البقرة: ٢٣١.

٣. الملك: ١٤.

٤. الأنعام: ٣.

﴿...وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾^١

ومنها قول تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^٢

خلاصة البحث

تعتبر صفة العلم من جملة صفات الله الذاتية الشبوتية، وأنه الله تعالى عالم بكل شيء مهما دق، ولقد أشارت الآيات المباركة إلى هذه الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٣ و﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^٤ ﴿يَعْلَمُ بَيْرُكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾^٥ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾^٦

١. آل عمران: ٢٩.

٢. الأنعام: ٥٩.

٣. البقرة: ٢٣١.

٤. الملك: ١٤.

٥. الأنعام: ٣.

٦. الأنعام: ٥٩.

الدرس الثامن

القدرة

من الصفات الذاتية الثبوتية الأخرى لله تعالى صفة القدرة، والقدرة: هي كون الفاعل بحيث إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل.

وعلى هذا الأساس القادر هو الذي ينتخب باختياره فعل الشيء أو تركه، فالمجبور على الوقوف ليس قادراً على الوقوف، وكذلك المجبور على الجلوس، وإنما القادر عليهما هو من إذا اختار القيام قام، وإذا اختار الجلوس جلس. فأتضح من خلال هذا البيان أن صفة القادر تطلق على الفاعل بالإرادة والاختيار. فأنه تعالى قادر مطلقاً، بمعنى أنه إذا أراد إيجاد شيء وجد، وهذا المعنى يفيد بأنه تعالى حاكم وقاهر وله السلطة المطلقة على جميع الأشياء.

الشواهد القرآنية

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تدلّ على القدرة المطلقة لله تعالى، منها:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢

١. آل عمران: ١٨٩.

٢. الملك: ١.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^١

تساؤل

إذا كان الله تعالى قادراً على كل شيء فهل يستطيع أن يجعل حاصل $٥ = ٢ + ٢$ مثلاً؟ وهل يستطيع أن يخلق شيئاً كله أبيض وأسود في آن واحد؟ وهل يستطيع أن يخلق شيئاً لا يقدر على افئائه؟ أو هل يستطيع أن يخلق حجراً ثقيلاً لا يستطيع حمله؟ فإن خلق مثل هكذا حجر فهو منافي للقدرية المطلقة، إذ المفروض أنه لا يستطيع حمله، وإن عجز عن خلقه كان ذلك منافياً للقدرية، فعلى كلا الفرضين لا يمكن إثبات القدرة المطلقة لله تعالى.

الجواب

للإجابة عن الأسئلة المثارة لا بد من الالتفات إلى قضية مهمة، وهي أن عدم تحقق الشيء المفروض - مهما كان - تارة يعود لضعف الفاعل وعجزه، وأخرى يعود لنقصان في نفس الشيء، يعني كونه بنحو لا يقبل التحقق ذاتاً.

وإذا تأملنا في الأمثلة التي ذكرت في الأسئلة نراها من النوع الثاني ممنوع التحقق لا أن الله تعالى عاجز عن تحقيقها وإيجادها، والفرق بين الأمرين واضح جداً.

فعندما نقول: إن الله قادر على كل شيء، يعني أن الله تعالى قادر على إيجاد أي شيء ممكن الوجود بذاته، وأما الأمور المستحيلة التحقق بذاتها فخارجة عن الموضوع من أول الأمر.

وعليه الصحيح أن نقول: لا يمكن أن يكون حاصل $٥ = ٢ + ٢$ لا أن الله تعالى لا

يقدر أن يجعلها خمسة، وكذلك لا يمكن للجسم أن يكون أبيض وأسود في آن واحد، وهكذا الكلام في سائر الأمثلة.

الحاصل أن عدم تحقق الأمور المذكورة لا لعجز المولى تعالى وضعفه، بل بسبب كونها فاقدة لقابلية التحقق ذاتاً أي ممتعة ذاتاً.

خلاصة البحث

١. القدرة من صفات الله الذاتية الثبوتية.
٢. القدرة تعني: كون الفاعل، بحيث ان شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل.
٣. إن الله قادر مطلق، بمعنى أنه إذا أراد إيجاد شيء وجد، وأنه تعالى هو الحاكم والقاهر.
٤. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (آل عمران ١٨٩؛ الملك ١؛ الطلاق ١٢).
٥. للإجابة عن الأسئلة من قبيل: هل يستطيع الله أن يجعل حاصل $2+2=5$ ؟ لا بد من الالتفات إلى نكتة مهمة وهي أن عدم تحقق الشيء يعود تارة لضعف الفاعل، وأخرى لنقص وعدم استعداد للتحقق في نفس الشيء، والأمثلة المذكورة من النوع الثاني.
٦. عدم تحقق الأمور المستحيلة والممتنعة لا لضعف الله وعجزه سبحانه، بل لعدم قابليتها للتحقق ذاتاً.

الدرس التاسع

الحياة

اتفق الإلهيون على أنّ «الحياة» من صفاته، وأنّ «الحي» من أسمائه سبحانه، إلّا أنّ إطلاقها عليه سبحانه يحتاج إلى فهم المراد منها؛ لأنّ مصطلح الحياة يراد به معنيان:

١. الموجود الحي هو الذي يتغذى وينمو ويتوالد ويتكاثر. وهذا المعنى من الحياة يطلق على الحيوانات والنباتات أيضاً، وهو يستلزم النقص والحاجة؛ لأنّ لازم النمو والرشد هو أنّ يكون الشيء النامي فاقداً لكمال ما، ثمّ يحصل عليه بسبب العوامل الطبيعية والتغيرات الخارجية التي تحصل فيه ممّا يجعله ينتقل تدريجياً من حالة النقص إلى الكمال.

٢. الكائن الحي هو الذي يمتلك خصيصة العلم والفعل الإرادي. هذا المعنى للحياة يعدّ مفهوماً كمالياً، وأنّه من صفات الله الذاتية الثبوتية. وعليه فإطلاق الحياة عليه سبحانه يعني كونه عالماً مدركاً فاعلاً بالاختيار.

الشواهد القرآنية

هناك الكثير من آيات الذكر الحكيم التي تصفه الله تعالى بالحي، منها قوله تعالى:

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾^٢.

خلاصة البحث

١. لمفهوم الحياة استعمالان: ١. الموجود الحي هو الذي يتغذى وينمو ويتوالد ويتكاثر. ٢. الكائن الحي هو الذي يمتلك خصيصة العلم والفعل الإرادي.
٢. الحياة بالمعنى الأول تستلزم النقص ويعد من صفات الله السلبية، وأما المعنى الثاني فيعد مفهومًا كمالياً، وأنه من صفات الله الذاتية الثبوتية.
٣. إن الله هو الحي الذي لا يموت (راجع: الفرقان: ٥٨) وأن حياته تعالى تعني كونه عالماً مدركاً فاعلاً بالاختيار.

١. غافر: ٦٥، والآية حاصرة، بمعنى أنها تحصر الحياة الحقيقية وبالذات به سبحانه وكل ما سواه فحياته منه تعالى.

٢. الفرقان: ٥٨.

الدرس العاشر

الإرادة

تعدّ الإرادة من جملة صفاته تعالى، وقد اختلف العلماء والباحثون في تفسير الإرادة مع التسليم والقطع بكون المريد من أسمائه تعالى. فذهب البعض منهم إلى أنّ الإرادة من صفاته الذاتية وفسّرها بعلمه تعالى بالنظام الأصلح والأكمل. وهناك من ذهب إلى كونها أمراً حادثاً، نظير ما يحصل للإنسان قبل الإقدام على فعل ما.

وبما أنّ المجال في هذا الكتاب لا يسمح باستعراض جميع الآراء المطروحة في المسألة، لذلك نكتفي بالقول: بأنّ الله تعالى ليس مجبراً في أفعاله ولا يضطره أحد على القيام بفعله، وأنّ كلّ ما يفعله يصدر عنه بعلمه واختياره، ويمكن حمل إرادته تعالى على هذا المعنى. فكونه مريداً يعني كونه فاعلاً مختاراً وأنّ أفعاله منوطة بمشيئته.

وعلى هذا تكون الإرادة من صفاته الذاتية الثبوتية، وإن ذهب بعض الباحثين إلى كونها من صفات الفعل.^١

١. الجدير بالذكر أنّ الظاهر من آيات الذكر الحكيم كون الإرادة من الصفات الفعلية لا الذاتية. فإذا كانت كذلك يكون معناها أنّ الله تعالى يخلق الأشياء للخير والمصلحة الموجودة فيها. فوجودها متعلّق - في زمان ومكان خاصّين - بعلمه وحجّه ويخلقها بإرادته لا أنّه مجبر على ذلك. وقد عقد المرحوم الكليني في أصول الكافي ١/١٠٩ باباً تحت عنوان باب الإرادة وأنها صفة الفعل، ذكر فيه مجموعة من الروايات النافية لكون الإرادة صفة ذاتية.

الشواهد القرآنية

أطلقت آيات الذكر الحكيم في أكثر من موضع صفة الإرادة عليه سبحانه وإن لم يطلق عليه اسم المريد في القرآن الكريم، فمن تلك الآيات الكريمة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.^١

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.^٢

خلاصة البحث

١. لاختلاف في كونه تعالى مريداً، وإنما وقع الاختلاف بين العلماء في تفسير الإرادة.
٢. ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الإرادة من الصفات الذاتية وفسروها بعلمه بالنظام الأصح. وذهب البعض الآخر إلى كونها أمراً حادثاً نظير إرادة الإنسان.
٣. القدر المتيقن أن الله فاعل مختار غير مجبر على فعله وليس بمضطر إليه، ويمكن تفسير إرادته تعالى بهذا المعنى.
٤. أشارت الآيات إلى إرادته تعالى بأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون. (راجع: يس: ٨٢؛ النحل: ٤٠).

١. يس: ٨٢.

٢. النحل: ٤٠.

الدرس الحادي عشر

الحكمة والعدل

الحكمة من صفاته تعالى وأن جميع أفعاله حكيمة. ولا بد من الالتفات إلى أن الحكمة

تطلق على معنيين كلاهما يدخلان ضمن الصفات الثبوتية لله تعالى، هما:

١. كون الفعل في غاية الإحكام والاتقان، وغاية الإتمام والكمال.

٢. كون الفاعل لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب.^١

الحكمة بالمعنى الأول: فيما أنه تعالى يمتلك جميع الكمالات، وأن علمه وقدرته

غير متناهين، عالم بالأشياء جميعاً ومقتدر عليها كذلك، غني عن أي شيء، من هنا

يفعل الأشياء على أكمل الوجوه وأحكمها، فهو تعالى ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.^٢

الحكمة بالمعنى الثاني: اتصافه تعالى بالحكمة بمعناها الثاني قائم علي التسليم

١. قال الفخر الرازي: في الحكيم وجوه: الأول: إنه فعيل بمعنى مفعول، كألیم بمعنى مؤلم. ومعنى

الإحكام في حق الله تعالى في خلق الأشياء هو إتقان التدبير فيها وحسن التقدير لها.... الثاني: إنه

عبارة عن كونه مقدساً عن فعل ما لا ينبغي. (شرح الأسماء الحسني: ٢٧٩ - ٢٨٠؛ راجع: الإلهيات

على هدى القرآن والسنة والعقل، جعفر السبحاني: ٢٢٥/١).

٢. الصفات: ١٢٥ و ١٢٦: ﴿أَتَذْعُرُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وبما أن الخالق من صفات الفعل، فإنه تعالى إنما يوصف بكونه أحسن الخالقين عند ما يكون فعله

أحسن الأفعال، وعليه تكون الآية دالة على كون خلقه تعالى أفضل الخلق.

بحقيقة كون بعض الأفعال حسنة بذاتها أو قبيحة كذلك - بقطع النظر عن الحسن والقبح الشرعيين - بمعنى أن العقل يدرك حسن الفعل أو قبحه كحكمه بحسن الصدق وأداء الأمانة ومساعدة المحتاجين وقبح الكذب والخيانة في أداء الأمانة والظلم. وهذا الأصل معروف بالتحسين والتقيح العقليين.^١

وبعد التسليم بتلك الحقيقة نقول: إن الله تعالى غني مطلق وغير محتاج إلى الغير، بالإضافة إلى كونه عالماً وقادراً كذلك. فهو يعلم بالحسن وقادر عليه ويعلم بالقبح وقادر على تركه. ومن الواضح أن هكذا موجود يستحيل صدور القبيح منه وترك الحسن.

العدل

يعتبر العدل من صفات الله الثبوتية وعدم الظلم من صفاته تعالى السلبية. والمراد من العدل وضع كل شيء في موضعه، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:
العدل يضع الأمور مواضعها.^٢

وقد يفسر العدل بأنه إعطاء كل ذي حق حقه إلا أن هذا المعنى أخص من الأول ومن مصاديقه، أي أن إعطاء كل ذي حق حقه يعدّ من مصاديق وضع الشيء في موضعه. اتضح أن الله تعالى عادل؛ لأن الظلم قبيح ومما يجب التنزه عنه، ولا يصدر القبيح من الحكيم، والعدل حسن ومما ينبغي الاتصاف به، فيكون الاتصاف بالعدل من شؤون كونه حكيماً منزهاً عما لا ينبغي.

١. أنكر هذا الأصل جمع غفير من علماء ومتكلمي أهل السنة (الأشاعرة) ومن هنا ذهبوا إلى عدم إمكان وصفه تعالى بالحكمة عقلاً. وفي المقابل هناك طائفة أخرى من علماء أهل السنة (المعتزلة) بالإضافة إلى متكلمي الشيعة، ذهبوا إلى القول بالحسن والقبح العقليين وأن الله تعالى يقوم بكل عمل حسن ومنه العدل ويمتنع عن كل قبيح ومنه الظلم، من هنا أطلق على هذه الطائفة عنوان «العدلية».

٢. نهج البلاغة: الحكمة ٤٣٧.

الشواهد القرآنية

هناك الكثير من آيات الذكر الحكيم التي تصفه تعالى بالحكيم، منها: ﴿...فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١

كذلك يصفه القرآن الكريم بأنه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...﴾^٢

وبأنه تعالى لا تفاوت ولا خلل في نظام خلقه: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^٣

وبأنه لم يخلق الأشياء عبثاً أو لهواً أو باطلاً:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾^٤

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا...﴾^٥

كذلك يصفه القرآن الكريم بأنه تعالى لا يظلم أحداً، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم: ﴿...وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^٦

وبأنه تعالى: ﴿...لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^٧

بل إنه تعالى ليس منزهاً عن ظلم الإنسان فحسب، بل هو منزّه عن ظلم كل مخلوق: ﴿...وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾^٨

١. البقرة: ٢٠٩ و ٢٢٨؛ آل عمران: ١٨؛ الأنعام: ١٨.

٢. السجدة: ٧.

٣. الملك: ٣.

٤. المؤمنون: ١١٥.

٥. ص: ٢٧.

٦. النحل: ١١٨؛ راجع: هود: ١٠١؛ الزخرف: ٧٦.

٧. آل عمران: ١٨٢؛ الأنفال: ٥١؛ الحج: ١١٠؛ راجع: فصلت: ٤٦؛ وق: ٢٩.

٨. آل عمران: ١٠٨.

خلاصة البحث

١. للحكمة معنيان: (أ) كون الفعل في غاية الإحكام والاتقان. (ب) كون الفاعل لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب.
٢. الله حكيم بالمعنى الأول لعدم النقص في علمه وقدرته.
٣. الله حكيم بالمعنى الثاني؛ لأنه يعلم بالحسن والقبيح من جهة وقادر على فعل الحسن وغني عن فعل القبيح من جهة ثانية، والغني المطلق غير محتاج لفعل القبيح.
٤. العدل يعني وضع كل شيء في موضعه.
٥. ثبت أن الله تعالى حكيم يفعل الحسن ويتجنب القبيح، وبما أن العدل حسن فهو مما ينبغي أن يفعله الله، فينتج أن الله تعالى عادل.
٦. ثبت أن الظلم قبيح، وأن الله تعالى حكيم لا يفعل القبيح، إذاً الله تعالى متره عن الظلم.
٧. ورد في القرآن الكريم بأن الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة: ٧، وليس ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾. الملك: ٣، وأنه تعالى لم يخلق "السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا". ص: ٢٧، وأنه تعالى ﴿لَا يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾.

الدرس الثاني عشر

التوحيد

التوحيد اصطلاحاً: يعني أنّ الله تعالى واحد لا ثاني له وبسيط لا جزء له، وأنه مبدأ الوجود. والدين الإسلامي هو دين التوحيد، أي الاعتقاد بإله واحد أحد لا مثيل له، والاعتقاد بأنّه لا معبود سواه يستحقّ العبادة. وإذا أردنا أن نجمل الإسلام في جملة طيبة واحدة فهذه الكلمة الطيبة هي: «لا إله إلّا الله»، حيث تمثل عصارة القرآن الكريم وتتلخص فيها جميع المعارف الإسلامية. من هنا نرى القرآن الكريم كرر هذا الشعار الإلهي وبعبارات مختلفة أكثر من ستين مرّة، منها:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^١

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^٢

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾^٣

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾^٤

١. الصفات: ٣٥.

٢. البقرة: ١٦٣.

٣. الأنبياء: ٨٧.

٤. النحل: ٢.

﴿مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾^١

﴿مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾^٢

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾^٣

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^٤

ولقد كان هذا الشعار بمستوى من الأهمية حتى إننا نراه يتكرر مرتين في آية قصيرة، هي قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٥

الجدير بالذكر أن هذا الشعار لا يختص بالدين الإسلامي بل إن جميع الديانات السماوية هي ديانات توحيدية، وأن جميع الأنبياء هم دعاة توحيد، وقد أشارت الذكر الحكيم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٦

مراتب التوحيد

للتوحيد مراتب ودرجات، كما أن للشرك الذي هو مقابل التوحيد أيضاً مراتب ودرجات. ومراتب التوحيد، هي:

١. التوحيد الذاتي

التوحيد الذاتي: يعني الاعتقاد بأن مبدأ العالم موجود واحد، أي أن موجوداً واحداً

١. آل عمران: ٦٢.

٢. المؤمنون: ٩.

٣. الصافات: ٤.

٤. الاخلاص: ١.

٥. آل عمران: ١٨.

٦. الأنبياء: ٢٥.

هو الخالق لكل الموجودات مباشرة أو بالواسطة، وهو غير مخلوق.^١
 بعبارة أخرى: التوحيد الذاتي يعني الاعتقاد بأن جميع الموجودات مخلوقة لخالق واحد،
 وأن عالم الوجود مع سعة وتكررة يعود إلى مبدأ ومنشأ واحد: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.^٢
 بطبيعة الحال أن هذا لا يعني أن المبدأ المباشر للأشياء واحد، وأنه خلق الأشياء بلا
 واسطة، بل من الممكن أن يوجد الشيء بتوسط مجموعة من الوسائط المخلوقة أيضاً،
 كما لو خلق الله تعالى «أ»، و«أ» الذي هو مخلوق خلق «ب» وهو بدوره خلق «ج».
 ف«أ» خلق بلا واسطة، و«ب» ما خلق بواسطة واحدة و«ج» خلق بواسطتين. وهذا
 لا يتنافى بحال من الأحوال مع التوحيد الذاتي.^٣

٢. التوحيد الصفاتي

التوحيد الصفاتي: يعني الاعتقاد بأن صفات الله الذاتية كالعلم والحياة والقدرة هي
 عين ذاته، أي أن صفاته الذاتية متعددة مفهوماً متحدة مصداقاً، بعضها عين البعض،
 وهي عين الذات الإلهية لا تزيد عليها.

وفي الحقيقة أن التوحيد الصفاتي يعني الاعتقاد بأمرين:

١. إن صفاته تعالى كالعلم والقدرة غير زائدة على الذات.
 ٢. إن تلك الصفات لا توجد تكثرأ أو تركيباً في الذات الإلهية.
- وعينية الصفات مع الذات تفيد المعنيين المذكورين.^٤

١. يعبر عن هذه الحقيقة لدى الفلاسفة بالعلة الأولى.

٢. الرعد: ١٦.

٣. كما قيل: معلول الشيء معلول لعل ذلك الشيء، وعلة الشيء علة لمعلوله.

٤. إذا كان التوحيد الذاتي بمعنى نفي التعدد فحينئذ يدخل تحت الصفات السلبية، وإذا كان بمعنى
 اللامحدودية واللاتناهية للذات الإلهية فحينئذ يكون من الصفات الثبوتية.

٥. يرى الشهيد المطهري: إن التوحيد الصفاتي يستلزم الاعتقاد بنفي كل أنواع التركيب عن
 الذات الإلهية أيضاً. (مجموعة آثار الشهيد المطهري: ١٠١/٢) لكن الأستاذ مصباح الزدي

تُسَمَّى ذات الله تعالى بسيطة لا مجال للتركيب فيها أبداً ولا يمكن بحال من الأحوال فرض الجزء لها.^١

٣. التوحيد الأفعالي

التوحيد الأفعالي: يعني الاعتقاد بأن موجودات العالم، كما أن ذواتها مخلوقة لله تعالى وتابعة له وغير مستقلة ذاتاً عنه، كذلك فعلها والأثر الصادر عنها إنما يصدر بحول وقوة من الله تعالى، بمعنى أنها غير مستقلة فعلاً، كما أنها غير مستقلة ذاتاً. بعبارة أخرى: إن توحيد الله في الذات يعني أنه لا مثل له ذاتاً، وتوحيده الأفعالي يعني أنه تعالى واحد في التأثير والفاعلية. بطبيعة الحال أن هذا لا يعني بحال من الأحوال نفي التأثير والأثر عن المخلوقات، بل المراد منه أن ما يصدر عنها إنما يصدر بالاستعانة بحوله وقوته تعالى، وقوله تعالى «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» يشير إلى التوحيد الأفعالي قطعاً.

آثار التوحيد الأفعالي

إن الاعتقاد بالتوحيد الأفعالي وأن الفاعل المستقل منحصر بالله تعالى وحده وكل

يذهب إلى أن التوحيد الصفاتي عند المتكلمين يعني نفي الصفات الزائدة عن الذات (معارف القرآن: ٧٩). المراد من التوحيد الصفاتي في اصطلاح الفلاسفة والمتكلمين هو أن ما ننسبه إلى الله من الصفات لا تعني إلا نفس الذات الإلهية. أما الأستاذ جعفر السبحاني فقد ذهب إلى أن التوحيد الذاتي يطلق على الله ويراد به معنيان: الأول: أن الله تعالى واحد لا ثاني له، والآخر: أنه بسيط لا جزء له. ولأجل التفريق بين هذين التوحيدين الذاتيين يعبرون عن الأول بالتوحيد الواحدي وعن الثاني بالتوحيد الأحدي. (الالهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل: ٣٥٥/١) ونحن في هذا البحث اعتمدنا رأي الشهيد المطهري.

١. يرى بعض الفلاسفة أن عنوان «الواحد» يشير إلى التوحيد الذاتي، بمعنى نفي الثاني عن الله تعالى، وأن عنوان «الأحد» يشير إلى التوحيد الصفاتي ونفي كل أنحاء التركيب عن الذات الإلهية المقدسة.

ما يصدر عما سواه فإنما يصدر بالاستعانة به والاستمداد منه، يستلزم أمرين:

الأول: ينبغي للإنسان ألا يجعل لأي مخلوق مهما عظم حق العبادة وأنها منحصرة بالله وحده: **﴿...إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ...﴾**^١

الثاني: على الإنسان الاتكاء والتوكل في جميع أفعاله على الله تعالى، والاستعانة به وحده، ولا يخشى إلا الله ولا يشق إلا به، بل لا يئأس عندما تسير الأمور بأسبابها وشروطها على خلاف ما يروم؛ لأن الله تعالى قادر على أن يغير الأسباب دفعة واحدة لصالحه: **﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**^٢

خلاصة البحث

١. التوحيد: يعني الاعتقاد بوحدة مبدأ الوجود. وأن التوحيد هو الركن الأساسي في العقيدة الإسلامية، ويمكن القول: بأن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» تمثل عصارة المعارف الإسلامية.
٢. تكرر شعار «لا إله إلا الله» في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة وذكر مرتين شعار لا إله إلا هو في آية واحدة.
٣. للتوحيد مراتب: ١. التوحيد الذاتي. ٢. التوحيد الصفاتي. ٣. التوحيد الأفعالي.
٤. التوحيد الذاتي: يعني الاعتقاد بأن مبدأ العالم واحد هو الله، وأنه خالق كل شيء إلا أن ذلك لا يعني الخلق المباشر للأشياء دائماً ونفي الوساطة في الخلق.
٥. التوحيد الصفاتي: يعني الاعتقاد بأن صفات الله عين ذاته، وبناء على التوحيد

١. وهذا ما يعبر عنه أحياناً بالتوحيد في العبادة. (مجموعة الآثار، الشهيد المطهرى: ١٠٤/٢ - ١٠٥)

٢. يوسف: ٤٠.

٣. الطلاق: ٢ - ٣.

الصفاتي: ١. إن صفاته تعالى غير زائدة على ذاته. ٢. إن تلك الصفات لا توجد تكثراً أو تركيباً في الذات الإلهية.

٦. التوحيد الأفعالي يعني الاعتقاد بأن موجودات العالم، كما أن ذواتها مخلوقة لله تعالى كذلك فعلها والأثر الصادر عنها إنما يصدر بحول وقوة من الله تعالى.

٧. إن الاعتقاد بالتوحيد يستلزم أمرين: الأول: ينبغي للإنسان ألا يجعل لأي مخلوق مهما عظم حق العبادة، و أنها منحصرة بالله وحده. الثاني: على الإنسان الاتكاء والتوكل في جميع أفعاله على الله تعالى، والاستعانة به وحده.

الفصل الثالث

مبحث النبوة

الدرس الأول

تمهيد

هل الإنسان محتاج إلى هداية الأنبياء؟

لو لم يبعث الله الأنبياء على طول التاريخ البشري فما هو الخلل والنقص الذي يتركة ذلك في حياة الإنسان؟

ثمّ لو سلمنا بأنّ الإنسان القديم كان بحاجة إلى تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم، فهل ما زالت تلك الحاجة ماسة إليها في هذا العصر الذي توصل فيه الإنسان إلى درجة عالية من الرقي العلمي والتطوّر العقلي؟

لماذا بعث الأنبياء وما هي الغاية من وراء ذلك؟ ما طبيعة رسالتهم؟ وما قيمة ما جاؤوا به من تعاليم؟ وما هي الآثار والثمرات التي ترتبت عليها على مرّ التاريخ؟ هذه مجموعة من التساؤلات التي أثّرت في مبحث «النبوة» والتي أجاب عنها الباحثون والمتكلّمون بصورة مفصلة. ونحن هنا وإن كنّا لا نستطيع بسط الكلام والتوسّع في كلّ ما يثار في مجال الوحي والنبوة، إلّا أنّنا سنسلط الضوء على أهمّها بعبارة موجزة وأسلوب سلس إن شاء الله تعالى.

النبي والوحي

أولاً: ما المراد بالنبي؟

للنبي لغةً معنيان:

١. صاحب الخبر المهم، وعلى هذا تكون الكلمة مشتقةً من الأصل «نَبَأ» لأنَّ النبا

يعني الخبر المهم.

٢. صاحب المقام السامي، فتكون الكلمة مشتقةً من «نَبُو» لأنَّ «النَّبُو» يعني

الارتفاع والعلو.

أما النبي في اصطلاح المتكلمين فهو الشخص الذي يوحى إليه من قبل الله تعالى ويبحث لهداية البشرية ونيل السعادة الأبدية.^١

يظهر من التعريف المذكور أنَّ معرفة النبي غير متسيرة ما لم يعرف الوحي.

ثانياً: ما المراد من الوحي؟

استعمل الوحي لغةً في أكثر من معنى منها: الإشارة والكتابة والرُسالة والإلهام والكلام الخفي وكلُّ ما ألقته إلي غيرك.^٢

أما الوحي في القرآن فقد استعمل في أربعة معان، هي:

١. الإشارة الخفية، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا

بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.^٣

٢. الهداية الغريزية: يعني الهداية المودعة في جميع الموجودات النباتات،

١. عرف الأستاذ جعفر السبحاني النبوة في كتابه *الإلهيات*: ٢٠/٢ بأنها: سفارة بين الله وبين ذوي

العقول من عباده لازالة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم. وعرف كثير من الباحثين النبي بأنه:

الإنسان المخبر عن الله بغير واسطة أحد من البشر (نهج المسترشدين في أصول الدين: ٥٨).

إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٢٥٩. النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ٣٤

مفتاح الباب: ١٦٩).

٢. راجع: لسان العرب: ٣٨٠/١٥.

٣. مريم: ١٣.

الحيوانات، الإنسان، بل الجمادات أيضاً والتي تمنحها البقاء واستمرارية الحياة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِنَّ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^١.

٣. الإلهام: يلقي الله تعالى - أحياناً - بعض الأمور الغيبية وما وراء الطبيعة في روع المؤمنين وقلوبهم، خاصةً حينما تشتدُّ الأزمت وفي مواضع الحرج والاضطرار وعندما يصلون إلى طريق مسدود حينئذٍ تتدخل الإرادة الإلهية لتلهمهم المعرفة المناسبة التي تساعدكم في تجاوز الأزمة ويحدث ذلك كالنور الخاطف، حيث تسطع ومضة من النور في قلوبهم فتبهر لهم ظلام الطريق: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢.

وقد أشار الأستاذ معرفة إلى هذه الحقيقة بقوله:

حينما أبصر موسى ﷺ النور قلقت أمه واضطربت. وفجأة لمع بارق في ذهنها بأن توكل على الله وأرضعيه، وإذا ما شعرت بالخطر عليه فضعه في صندوق من الخشب واتركه على سطح الماء، وكذلك ألهمها ربها أن الطفل عائد إليها وعليها أن تدع القلق والحزن جانباً؛ لأنها توكلت واعتمدت على الله وأودعت الطفل عنده وبين يديه. هذه خواطر مرت على فكر أم موسى وألقت في قلبها المضطرب بارقة من الأمل؛ لأنها لم تفكر إلّا بالله ولم تستند إلّا إليه. وهذا النوع من الخواطر يضئ الطريق وينجي من الغم والخشية، وهي إلهامات رحمانية وعنايات ربانية تمد يد العون لبعض الصالحين في مواقع الضرورة.^٣

١. النحل: ٦٨ - ٦٩.

٢. القصص: ٧. وانظر: طه: ٣٧ - ٤٠.

٣. تاريخ القرآن: ٩ و ١٠.

نعم، قد عبر القرآن الكريم - أحياناً - عن وساوس الشيطان بالوحي، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^١

٤. الوحي الرسالي: معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً، الوحي وهو الوحي الخاص بالأنبياء ومقام النبوة، منها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾^٢

فالوحي الرسالي نوع من الهداية الإلهية يضعها الله تعالى بين يدي أوليائه المنتجبين، ليسعدوا به وليأخذوا بيد البشرية إلى ساحل النجاة والهداية.

إن الأنبياء بمنزلة الجهاز اللاقط الموضوع في وسط المجتمع البشري ليلتقط الرسالة الإلهية من مصدرها الأساسي ويلقيها على مسامع وقلوب سائر البشر. فالأنبياء نماذج بشرية متكاملة استطاعت أن تصل إلى مرحلة من السمو، بحيث تكون جديرة بتلقي هذا النوع من المعرفة (الوحي) وهذه الجدارة والصلاحية لا يعلمها إلا الله تعالى: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾^٣

ولقد أشار النبي الأكرم ﷺ إلى هذه الحقيقة بقوله: ولا بعث الله نبياً ولا رسولا حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته.^٤

وروي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال :

إن الله وجد قلب محمد أفضل القلوب وأوعاها فاختاره للنبوة.^٥

١. الأنعام: ١٢١. وراجع الأنعام أيضاً: ١١٢.

٢. الشورى: ٧.

٣. الأنعام: ١٢٤.

٤. الكافى: ١٣/١.

٥. بحار الأنوار: ٢٠٥/١٨، ح ٣٦.

الوحي الرسالي، كالإلهام (الوحي بالمعنى الثالث) كلاهما نعمة غيبية وهداية إلهية، مع فارق بينهما هو أن منشأ الإلهام خفي على المتلقي (الملهم بصيغة اسم المفعول)، خلافاً لمنشأ الوحي، فإنه معلوم للموحي إليه (الأنبياء)، من هنا لا ترى للتوهم والشك والريبة سبيلاً في نفوس الأنبياء عند تلقي الرسالة السماوية.

عن زُرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما يترغبه الشيطان؟ قال: فقال: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا اتَّخَذَ عَبْدًا رَسُولًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ فَكَانَ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ غَرًّا وَجَلَّ مِثْلُ الَّذِي يَرَاهُ بَعِيْنُهُ".^١

تأثير الوحي على الأنبياء

صحيح إن عملية الوحي ليست من الأمور الحسية ولا يمكن إدراكها بأي حاسة من الحواس الظاهرية، لكن هذا لا يعني عدم إدراكها مطلقاً، بل يمكن إدراكها من خلال الآثار التي تخلقها، شأنها شأن الشجاعة والتقوى وسائر الملكات النفسانية التي لا

١. تفسير العياشي: ٢٠١/٢، ح ١٠٦؛ بحار الأنوار: ٢٦٢/١٨، ح ١٦؛ راجع: التمهيد في علوم القرآن: ٢/١ - ٤٥؛ تاريخ القرآن: ٧ - ١٤. يرى بعض الباحثين أن استعمال الوحي في المعاني الأربعة المذكورة هو من قبيل الاشتراك المعنوي لا اللفظي، أي أن للوحي معنى واحداً يتسع ليشمل دائرة واسعة. يبدأ بأضعف مصاديقه الذي هو الإيحاء إلى النحل وغيره، ثم يرتقي ليشمل الإلهام الخاص بالأنبياء. يقول الشهيد المظهر في هذا الخصوص: استعملت كلمة الوحي في القرآن أكثر من مرة حيث يظهر من خلال تعدد الاستعمال وشكله أن القرآن الكريم لا يرى الكلمة منحصرة بالإنسان فقط، بل استعملت في جميع الأشياء أو على أقل تقدير أنها جارية في الأشياء الحية. من هنا نراها تسمى ما يلقي إلى النحل وحياً. نعم، درجات الوحي ومراتب الهداية متفاوتة بما يناسب درجات تكامل الموجودات، حيث يقف في قمة الهرم منها الوحي إلى الأنبياء والذي يتناسب مع حاجة النوع الإنساني للهداية الإلهية. (مجموعة الآثار: ١٥٦/٢).

يمكن مشاهدتها أولمستها أو شمها، لكن يتمّ الاذعان بوجودها لدى بعض الأفراد من خلال ما تعكسه من الآثار عليهم.

إنّ للوحي الإلهي تأثيراً كبيراً على شخصية النبي، حيث إنّ البعثة تحدث تحولاً عظيماً فيه، بحيث يعبئ جميع طاقاته وملكاته في سبيل هداية البشرية.^١

خلاصة البحث

١. كلمة نبي إن كانت مشتقة من الأصل «نَبَأ» فتعني صاحب الخبر المهم وإن كانت مشتقة من «النبوة» فتعني صاحب المقام السامي.

٢. النبي في اصطلاح المتكلمين هو الشخص الذي يوحى إليه من قبل الله تعالى ويبتع لهداية البشرية ونيل السعادة الأبدية.

٣. استعمل الوحي في أكثر من معنى منها: الإشارة والكتابة والرّسالة والإلهام والكلام الخفيّ.

١. عرّف الوحي في الكتب الكلامية بتعاريف متعددة، منها:

الوحي سماع الكلام سواء في اليقظة أم المنام، وسواء اقترن برؤية الملك أم لا (گوهر مراد: ٢٩٨).

الوحي كلام الله بلا واسطة سواء كان مع الأنبياء أم مع غيرهم. (البراهين في علم الكلام: ٢٠٠/١)

الوحي أن تكون فيه (الرجل) قوة إلهية موهوبة من الباري الخالق - جل وتعالى - وتلك القوة هي الوحي الذي يوجب لصاحبه اسم النبوة. (أعلام النبوة: ٢٩٢)

الوحي الذي يختص بالأنبياء ادراك خاصّ متميز عن سائر الإدراكات، فإنّه ليس نتاج الحس ولا العقل ولا الغريزة وإنّما هو شعور خاصّ يوجده الله سبحانه في الأنبياء وهو شعور يغيّر الشعور الفكري المشترك بين أفراد الانسان عامة، لا يغلط معه النبي في إدراكه...من غير أن يحتاج إلى أعمال نظر أو التماس دليل أو إقامة حجة...وعلى هذا فالوحي حصيلة الاتصال بعالم الغيب ولا يصحّ تحليله بأدوات المعرفة ولا بالأصول التي تجهز بها العلم الحديث. (محاضرات في

٤. استعمل الوحي في القرآن في أربع معان: ١. الإشارة الخفية. ٢. الهداية الغريزية. ٣. الإلهام. ٤. الوحي الرسالي (الشورى: ٧).
٥. الوحي الرسالي، كالإلهام كلاهما نعمة غيبية وهداية الهيّة، مع فارق بينهما هو أنّ منشأ الإلهام خفي على الملهم، خلافاً لمنشأ الوحي، فإنّه معلوم للموحي إليه (الأنبياء).

الدرس الثاني

لزوم بعثة الأنبياء

الحقيقة أنَّ الإنسان بحاجة ماسة للهداية الإلهية الخاصة لكي يحظى بالسعادة والكمال، تلك الهداية التي وضعت تحت متناول الأنبياء عن طريق الوحي الإلهي وبواسطتهم انتقلت إلى سائر الناس، فإذا ما عرفنا أنَّ الله تعالى حكيم لا يفعل القبيح ولا يصدر منه فعل عبثي أبداً، بل كلَّ فعل حسن لا بدَّ أن يصدر منه سبحانه، فمن المسلم والضروري حينئذٍ أنَّه سبحانه لا يحرم البشرية من نعمة الوحي التي هي حاجة حياتية ملحة. هذه خلاصة الدليل الذي يقام لإثبات ضرورة الوحي والنبوة انطلاقاً من حاجة الإنسان إليها.

البيان التفصيلي

يمكن تفصيل الدليل المذكور من خلال مجموعة من المقدمات:

(أ) الهدف الإلهي من وراء خلق الإنسان وصوله إلى أسمى درجات الكمال وجدارة الانتفاع بالنعم والرحمة الخاصة بالإنسان الكامل.

(ب) أنما يصل الإنسان إلى تكامله النهائي إذا كان فعله وتركه يصدران منه باختيار حر وإرادة مستقلة. وبعبارة أخرى: ينحصر وصول الإنسان إلى تكامله فيما

إذا شخص - في مسيرة حياته - الطريق الخاصّ وسار على الصراط المستقيم.

ج) السير على الصراط المستقيم الموصل إلى الهداية والسعادة الواقعية منوط بمعرفته والامام به.

د) ما يملكه الإنسان من معرفة مستقاة من الحس والعقل لا يكفي لمعرفة الطريق معرفة تامة.

فالإنسان لا يزال يجهل نفسه ولم يطلع بالكامل على أبعاده الوجودية ويعبر عن نفسه بـ «الإنسان ذلك الكائن المجهول» بل قد يعبر عنها بأنها «أكبر المجهولات»، أضف إلى ذلك انه لم يصل بعد إلى نتيجة قطعية في تعريف الكمال والسعادة الواقعيين، يقول الشهيد المطهري:

لا يوجد في العالم فيلسوفان متفقان في معرفة هذا الطريق، فالسعادة - نفسها - التي هي الغاية القصوى للإنسان مع وضوح مفهومها وبدايته ابتداءً، إلّا أنّها لازالت تعدّ من أشدّ المفاهيم تعقيداً وإبهاماً. فما زال الإنسان لم يصل إلى الإجابة الحقيقية عن ما هو مفهوم السعادة؟ وما هي سبل تحقيقها؟ وكذلك مفهوم الشقاء وعوامل تحقّقه. وما ذلك إلّا لأنّ الإنسان لم يدرك بعد حقيقة نفسه وقواها الكامنة فيها.^١

ويزداد تشخيص طريق السعادة صعوبة وتعقيداً حينما نعرف أنّ للإنسان حياةً أخرى، وأنّ الحياة الدنيا لا تعدى كونها صفحة واحدة من دفتر الحياة الذي لا تعدّ صحائفه. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، أنّ أدنى حركة للإنسان في هذه الحياة الدنيا سيكون لها انعكاس ثابت ودائم في الحياة الأخرى.

هـ) إنّ الله حكيم، وأنّ جميع أفعاله تتصف بالاتقان والحكمة فلم يصدر منه

فعل قبيح أبداً، وأنَّ كلَّ فعل جدير بالوقوع لا بدَّ أن يصدر منه تعالى.
يتَّضح من مجموعة تلك المقدمات أنَّ الله الحكيم يوفر للإنسان سبيل الهداية من خلال طريق الوحي، وأنَّ الأنبياء هم واسطة فيض الهداية بين الله تعالى وبين البشر.

مثال

لكي يتَّضح البرهان بصورة أكثر نرى من المناسب الإشارة إلى المثال التالي:
لو فرضنا أنَّ إنساناً عاقلاً حكيماً دعا أصدقاءه لوليمة قد أعد لها كلَّ شيء من أشهى المأكولات وأجود العصائر والمرطبات وزين البيت بما يليق بشأنهم وأعد الخدم والحشم لاستقبالهم، ولكنَّه مع ذلك كلَّه لم يعلمهم بعنوان البيت الذي تقام فيه الوليمة، ولم يجعل بينه وبينهم واسطة ترشدهم إليه، والحال أنَّه يعلم بجهلهم! لا ريب أنَّ الحكمة تقتضي منه أن يرشدهم إلى الطريق وألا يشك حينئذٍ في حكمته.
إنَّ قصة الله والبشر تشبه قصة الرجل الحكيم مع ضيوفه، فإنَّ الله تعالى أعد الجنة لعباده الصالحين بكلِّ ما فيها من النعم والخيرات، ولكنَّهم يجهلون طريقها والسبيل إليها، من هنا تقتضي الحكمة الإلهية أن يجعل لهم هادياً ومرشداً يرشدهم إلى طريقها وسبيل الوصول إليها وهم الأنبياء الأئمة المتقون.

خلاصة البحث

الهدف الإلهي من وراء خلق الإنسان وصوله إلى الكمال النهائي.
إنَّما يصل الإنسان إلى تكامله النهائي إذا عرف الطريق وكان فعله وتركه يصدران منه باختيار حر وإرادة مستقلة.

طي الصراط المستقيم منوط بمعرفته والالمام به.
مدرجات الإنسان الحسية والعقلية لاتكفيان لمعرفة الطريق معرفة تامة؛ لأنَّ

الإنسان لا زال لم يعرف نفسه ولم يعرف سعاده الحقيقة، بل لم يدرك مدى تأثير أفعاله الدنيوية في السعادة الأبدية.

يفهم من خلال هذه الأصول الخمسة أنّ الله الحكيم قد وفّر للإنسان طريقاً آخر يوصله إلى الهداية والكمال الأبدي هو طريق الوحي، وأنّ الأنبياء هم الوساطة بينه تعالى وبين عباده.

الدرس الثالث

ثمار بعثة الانبياء

لا يخفى على أحد الدور الذي لعبه الأنبياء والنتائج الإيجابية التي حققها بعثتهم على مر التاريخ البشري والخدمات التي قدموها للبشرية على الصعيد الثقافي والحضاري، حيث كانوا ﷺ يقفون على رأس هرم الإصلاح وكانوا أشد الناس تحرقاً وصدقاً في الأخذ بزمam قافلة البشرية نحو الكمال والسعادة ولم يألوا جهداً في هذا المجال أبداً، بل تحملوا أشد أنواع الأذى وواجهوا أنواع الصعاب برحابة صدر وضحو بالغالي والنفيس في هذا المجال ليحدثوا أكبر تحوّل شهده المجتمع البشري.

ويكفي أن نلقي نظرة عابرة على الوضع الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية والعالم المعاصر لبعثة النبي الأكرم ﷺ وعقد مقارنة إجمالية بين الحالة المتوحشة ومنطق الغاب الذي كان سائداً قبل البعثة والحضارة الإسلامية التي أقامها الإسلام والتحوّل الكبير الذي أوجده في تلك البيئة، وهذه حقيقة تتجلى بوضوح أمام الباحثين المنصفين، ولقد كانت بمستوى من الشمولية والكثرة، الأمر يقتضي إفراد مصنفات خاصة لاستقصائها واستيعابها، ويكفي شاهداً على ذلك مراجعة الكتب التي تحدّثت عن الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي.

من هنا نرى من المناسب الإشارة إلى الآيات الكريمة التي تعرضت لبيان الثمار المترتبة على بعثة الأنبياء والداعين إليه.

١. التعليم

المهمة الأولى للأنبياء هي مهمة التعليم، يعني تعليمهم الحقائق التي يجهلونها أو التي لم يتمكنوا من إدراكها، ولقد تعرضنا في الأبحاث السابقة بشكل مفصل إلى أن أحد أسباب لزوم بعثة الأنبياء هو عامل الجهل وعدم معرفة الإنسان بطريق السعادة والكمال، حيث بعث الأنبياء لينقذوا الإنسان من برائن الجهل والأمية وينتقلوا به إلى عالم العلم والمعرفة ويكشفوا له ما كان مجهولاً لديه.

فمن تلك الآيات التي أشارت إلى تلك الحقيقة، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^١ وقوله عز من قائل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^٢.

يمكن تصنيف التعاليم الإلهية إلى صنفين:

- (أ) الحقائق التي يكون علمها خارجاً عن إدراكات الإنسان بصورة كاملة فمهما سعى الإنسان للوصول إليها اعتماداً على مدركاته الحسية والعقلية لن يتوصل إليها أبداً.
- (ب) الحقائق التي يمكن للعقل البشري إدراكها لكن الوصول إليها يحتاج إلى

١. البقرة: ١٢٩.

٢. البقرة: ١٥١.

٣. يرى بعض أساتذة التفسير: إن التعبير بقوله تعالى ﴿يُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أنهم يعلمكم الأشياء التي لا تعلمونها ولم تكونوا قادرين علي معرفتها، خلافاً لعبارة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

قرون من البحث والتجربة والجهد العلمي الحثيث، وأن الأنبياء هنا يختصرون الطريق ويسهلون المهمة حينما يضعون تلك المعارف والحقائق تحت متناول الإنسان.

٢. التزكية

لا ريب أن الأنبياء ﷺ يمثلون أظهر الناس واتقاهم وتتجلى فيهم جميع الفضائل والسجايا الخيرة ومنزهون من جميع الرذائل، وهم بالإضافة إلى كونهم مثال العدالة، حب الخير، الصداقة، العفة، الجود والصدق وتحليهم بكل تلك السجايا الحميدة يأخذون بيد البشرية لتمكينها من التحلي بالصفات الحميدة والتنزه عن الرذائل، وحسب التعبير القرآني يطهرونهم ويزكونهم.

وتظهر أهمية تزكية الإنسان وتربيته بجلاء من خلال ملاحظ طريقة العرض القرآنية، حيث نراه كلما تحدث عن التعليم والتزكية قدم التزكية على التعليم إلاً في الآية (١٢٩) من سورة البقرة والتي هي في الواقع تحكي قول إبراهيم وإسماعيل ﷺ، وكانت ناظرة إلى مقام التحقق؛ لأن التعليم مقدم على التربية في مقام العمل من هنا ابتداءً بذكر التعليم أولاً، ثم أردفه بالتزكية.

٣. التذكير

لا ريب أن الإنسان مزود بالفطرة الإلهية وكذلك أودع فيه الكثير من المعارف

١. يقول العلامة الطباطبائي في ذيل الآية الثانية من سورة الجمعة: التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو والصالح الذي يلازم الخير والبركة. فتركيته لهم تنميته لهم نماء صالحاً بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكملون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء. (الميزان: ١٠/٢٦٥)

٢. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

والغرائز اللازمة للوصول إلى السعادة والكمال كالاعتقاد بوجود الله وغريزة العبادة وحبّ الفضيلة، ولكن قد تغطي الفطرة بركام من الغبار الناتج من غفلة الإنسان عن نفسه وانغماسه في الماديات والدوران في فلكها. من هنا سعى الأنبياء الإلهيون - ومن خلال تذكيرهم المتكرر للإنسان وتحذيره من الوقوع في الغفلة - للإيقاظ على تلك المعارف حيّة وصيانتها من النسيان والاندثار. من هنا نرى المولي عزّ شأنه يصف نبيه الكريم ﷺ بأنه مذكّر كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^١ ويصف القرآن الكريم بأنه تذكرة: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾.

٤. التحرير من القيود والأغلال

يلعب الأنبياء الإلهيون دوراً مهماً في تحرير الإنسان من القيود والأغلال التي تكبله سواء على مستوى القيود المادية الناتجة عن هيمنة المتسلطين والطواغيت أو الأغلال والقيود الناتجة بسبب اتباع الأهواء والسير وراء الملذات المادية، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿...يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾^٢.

الحقيقة أنّ الأنبياء الإلهيين يدعون الإنسان إلى عبادة الله تعالى ولا يمكن للإنسان أن يعيش الحرية الحقيقية إلّا في ظلّ العبودية لله تعالى، فإذا عاش حالة التمرد على عبادة الله وعدم الإذعان لها فحينئذٍ يبقى دائماً أسير الشهوات والأهواء والميول الحيوانية التي تجره إلى اليمين تارة والשמال أخرى، لكنّه لو تواضع لله وتمسك بحبله المتين فحينئذٍ تتساقط عنه جميع الأغلال والقيود التي كانت تكبله.

١. الغاشية: ٢١.

٢. الاعراف: ١٥٧.

٥. إقامة العدل

من الأهداف الأساسية والمهمة التي سعى الأنبياء لتحقيقها هي إقامة القسط وبسط العدل في المجتمع، ولقد صرح القرآن الكريم بتلك الحقيقة معتبراً إقامة العدالة الاجتماعية من أهم أهداف الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾^١

٦. الأسوة والقُدوة

أجمع علماء النفس والتربية على أن لوجود الأسوة والمثل في المجتمع البشري دوراً لا نظير له في تربية أفراد المجتمع، وأنه يعد من أهم عوامل التربية والتكامل الإنساني، ومما لا ريب فيه أن إحدى ثمرات وجود الأنبياء الإلهيين في الوسط الاجتماعي هو دور الأسوة والقُدوة في المجتمع: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^٢

الهدف الأساسي لبعثة الأنبياء

اتضح من الأبحاث السابقة أن الأنبياء ﷺ إنما بعثوا لأجل هداية البشرية إلى الصراط المستقيم وإرشادها إلى ما فيه صلاحها وسعادتها. وهنا يطرح السؤال التالي: أين تكمن السعادة في فكر الأنبياء الإلهيين؟ هل تفكيرهم مقتصر على عالم الآخرة فقط؟ أو هدفهم الأساسي منصب على إقامة القسط وبسط العدالة الاجتماعية وإعمار دينا الإنسان، وأن عالم الآخرة يأتي في المرتبة الثانية، أو تحقيق السعادة في الدارين معاً؟

الإجابة الصحيحة عن التساؤلات المطروحة تتم من خلال الأصول التالية:

١. الحديد: ٢٥.

٢. الأحزاب: ٢١.

١. إن نسبة الحياة الدنيا إذا ما قورنت بالحياة الآخرة تعدّ قليلة جداً فمقارنة العدد «أ» مع رقم عدد أصفارة مليون صفر مثلاً تكون نسبته في غاية القلة، هذا بالنسبة للرقم «أ» مقارناً برقم عدد أصفارة مليون صفر، فكيف إذا ما قارنا بين معدل عمر الإنسان الذي لا يتجاوز السبعين عاماً مع عمر الآخرة الذي لا يحد برقم!

٢. مع الالتفات إلى النقطة الأولى لا يمكن المقارنة حينئذٍ بين السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية، بل لا يمكن وضع أحدهما إلى جنب الأخرى فضلاً عن اعتبار السعادة الدنيوية هي الأصل والأخروية هي الفرع!

٣. على هذا الأساس يتمثل الهدف الأساس للأنبياء في كشف الطريق الموصل للسعادة الأخروية والمنتهى إليها.

٤. لو تأملنا في آيات الذكر الحكيم نراها تحصر الطريق الموصل للسعادة الأخروية بطريق واحد هو التقرب إلى الله تعالى والتسليم المحض لإرادته؛ وأنّ كمال الإنسان ينحصر في الحركة إلى الله والتقرب إليه سبحانه.

٥. لا بدّ من الالتفات إلى أنّ كمال الإنسان وسعادته الأخرويين لا أنهما لا يتنافيان مع السعادة الدنيوية فقط، بل يساعدان في تأمينها وتحقيقها، بمعنى أنّ الإنسان المسلم لو اختار السير في طريق التقرب إلى الله تعالى فحينئذٍ تتحوّل حياته الدنيوية هي الأخرى إلى جنة ويزاح عنه كلّ أنواع الظلم والتعسف وحالة الهرج والمرج.

٦. لو تأملنا أكثر في آيات الذكر الحكيم نرى أنّ الأنبياء الإلهيين وضعوا - من أجل إيصال الإنسان إلى كماله - في قمة أولوياتهم قضية التصدي للظالمين ومواجهة المستكبرين وإقامة العدل والقسط؛ لأنّ عدم إقامة النظام العادل في المجتمع يؤدي إلى وضع أصناف العراقل أمام حركة التقرب إلى الله. ومن هنا يمكن أن ندرك المراد من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

الحاصل: إن هدف الأنبياء الأساسي يتمثل في الدعوة إلى الله سبحانه، وطاعته والتقرّب إليه والتسليم لما يأمر به وينهي عنه، وهذا هو لب وجوهر جميع الأديان الإلهية: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾^١.
 لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا الأمر إنّما يتحقّق في ظل العدالة الاجتماعية وحفظ القيم الأخلاقية والإنسانية ومع تحقّقها ينال الإنسان السعادتين الدنيوية والأخروية معاً.

خلاصة البحث

أهمّ ثمار بعثة الأنبياء هي:

١. تعليم الناس الحقائق التي يجهلونها أو التي لم يتمكنوا من إدراكها.
٢. تزكية الناس وتطهيرهم والأخذ بأيديهم نحو التحلّي بالصفات الحميدة والتنزه عن الرذائل.
٣. تذكير الإنسان بمعارفه وميوله الفطرية المنسية.
٤. تحرير الإنسان من القيود والأغلال التي تكبله سواء على مستوى القيود المادية الناتجة عن هيمنة المتسلطين والطواغيت أو الأغلال والقيود الناتجة بسبب اتباع الأهواء.
٥. إقامة العدل الاجتماعي.
٦. تحقيق الأسوة والقُدوة لطالبي الكمال.
٧. هدف الأنبياء الأساسي يتمثل في الدعوة إلى الله سبحانه، وطاعته والتقرّب إليه

١. آل عمران: ١٩. يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الآية المباركة: «فيكون المعنى: إنّ الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه ولم يأمر عباده إلّا به ولم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب علي أنبيائه إلّا إيّاه ولم ينصب الآيات إلّا له وهو الإسلام الذي هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية في المعارف والأحكام. (الميزان في تفسير القرآن: ١٢٠/٣).

والتسليم بما يأمر به وينهى عنه؛ لأنَّه السبيل الوحيد الذي يؤمن للإنسان سعاده الدنيوية والأخروية معاً.

٨. إنَّ الهدف الأساسي المذكور لا آتة لا يتنافى مع السعادة الدنيوية فقط، بل إنَّه يساعد في تأمينها وتحقيقها.

٩. عدم إقامة النظام العادل في المجتمع يؤدِّي إلى وضع أصناف العراقيل أمام حركة التقرب إلى الله، من هنا وضع الأنبياء الإلهيون على رأس سلم أولوياتهم مسألة التصدي للطواغيت ومواجهة المستكبرين.

الدرس الرابع

عصمة الأنبياء

من جملة الخصائص التي يتحلّى بها الأنبياء خاصية العصمة. وهي لغة: المنع والحفظ.^١
والمراد بعصمة الأنبياء الإلهيين:

أولاً: العصمة عن الخطأ والاشتباه في مرحلة تلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه.
ثانياً: العصمة تعني التنزه من اقتراف أنواع الذنوب.
ولكي يتّضح جلياً المراد من العصمة لا بدّ من دراسة كلا الفرعين بصورة مستقلة.

العصمة في تلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه

يتلقّى الأنبياء الإلهيون الوحي - من أجل هداية البشرية وتحقيق سعادتها والأخذ بيدها إلى الكمال اللاتق بشأنها - بصورة صحيحة ودقيقة جداً ويفهمونه بالدقّة نفسها، ثمّ إيصال تلك الأمانة إلى الناس على أتم وجه وبلا أدنى نقص أو خلل. وعلى هذا

١. ذكر ابن فارس في المعقاييس: إن العصم: أصل واحد صحيح يدلّ علي إمساك ومنع وملازمة. وقال الراغب في المفردات: العصم: الإمساك. وجاء في الصحاح إن العصمة تعني المنع. وجاء في آيات الذكر الحكيم بمعنى الحفظ والمنع، كما في قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ١٧) وقوله سبحانه ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي مِنِ الْآَمَاءِ﴾ (هود: ٤٣).

تصل الرسالة الموحاة من الله تعالى إلى يد البشرية كما نزلت على الأنبياء من دون أن يتطرق لها خلل أو نقص عمدًا أو سهوًا.

وقد اجمع على هذه الحقيقة جمهور المتكلمين المسلمين سنة وشيعة، كذلك يدعمها الدليلان العقلي والنقلي على حد سواء.

الدليل العقلي: الحقيقة أن نفس الدليل العقلي الدال على لزوم بعثة الأنبياء يدل على المطلوب هنا؛ لأن حاجة الإنسان إلى الهداية الخاصة عن طريق الوحي والنبوة إنما تتحقق حينما يكون الوحي مصوناً من الخطأ في جميع المراحل الثلاث (التلقي، الفهم، التبليغ).

فإنه تعالى، بما أنه حكيم، شاءت إرادته أن يوصل رسالته إلى الناس مصونة عن أي نقص أو خلل؛ ولأنه عليم فهو يعرف كيف يوصل تلك الرسالة كاملة وعلى يد أي شخص من عباده؛^١ ولأنه قدير، فهو يستطيع أن يجعل بينه وبين عباده واسطة جديرة بحمل الأمانة ويصونها من كل خلل أو زلل في إيصال الرسالة وتبليغها.

الدليل النقلي: يشير القرآن الكريم في الآيات الأخيرة من سورة الجن إلى حقيقة هي أن الله تعالى يحفظ نبيه بالحفظة والمراقبين، ويصونه صيانة كاملة حتى يبلغ الوحي الإلهي بصورة صحيحة، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا^٢.

١. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام: ١٢٤.

٢. الجن: ٢٦ - ٢٨. يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الآيات المذكورة: فإن الله يسلك ما بين الرسول ومن أرسل إليه وما بين الرسول ومصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة - ومن المعلوم أن سلوك الرصد من بين يديه ومن خلفه لحفظ الوحي من كل تخليط وتغيير بالزيادة والنقصان يقع فيه من ناحية الشياطين وبلا واسطة أو معها. (الميزان في تفسير القرآن: ٥٤/٢٠).

العصمة من الذنوب

اتفقت الشيعة على عصمة الأنبياء عن ارتكاب المعاصي صغيرها وكبيرها، سهواً وعمداً منذ الطفولة وحتى الوفاة، بل تعتقد أنهم معصومون عن السهو والنسيان أيضاً.^١ الجدير بالذكر أنه ليس المقصود من عصمة الأنبياء عدم صدور الذنب منهم، بل لا بد من الاعتقاد بأن العصمة ملكة نفسانية تمنع المتّصف بها من الفجور مع قدرته عليه وفي شتى الظروف والحالات.

هناك الكثير من الناس الذين لم تصدر منهم الفحشاء طيلة حياتهم، لكن قلّ ما تجد من يدعي أنه لا يرتكب الفحشاء والذنوب مهما كانت الظروف التي يتعرّض لها. فالفارق كبير بين عدم اقتراف الذنب وبين وجود الملكة المانعة عن الوقوع فيه في شتى الشروط والحالات.^٢

ثم إن هناك الكثير من الأدلة العقلية والثقيلة الدالة على عصمة الأنبياء من الذنوب، نشير إلى بعضها:

الدليل العقلي: إن الله تعالى بعث الأنبياء لهداية الناس إلى الصراط المستقيم وإرشادهم إلى الطريق القويم. فلو فرضنا صدور الذنب منهم فلا يتحقّق حينئذٍ الهدف المذكور؛ لأنه إنمّا يتحقّق أساساً إذا تمتّع الأنبياء والرسل بمثل هذه العصمة، فإذا لم يلتزموا بالأحكام الإلهية التي كلّفوا بإبلاغها إلى الناس، انتفى الوثوق بكلامهم، فلم يتحقّق الغرض المنشود من بعثهم وإرسالهم.

١. اختلف الشيعة والسنة في هذه المسألة. فذهب البعض إلى عصمة الأنبياء من الكبائر، والبعض الآخر إلى أنهم معصومون في ما بعد البلوغ، وطائفة ثالثة ذهبت إلى أن العصمة تكون بعد البعثة. أما الحشوية وبعض أهل الحديث فقد أنكروا عصمة الأنبياء وقالوا بإمكان صدور الذنب منهم عمداً قبل البعثة وبعدها. (شرح الأصول الخمسة: ٥٧٣-٥٧٥؛ شرح التجريد للقرطبي: ٤٦٤؛ المواقيف: ٣٥٩؛ كشف المراد: ٢١٦).

٢. من هنا نرى الجرجاني يعرف العصمة بأنّها: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها. (التعريفات: ٦٥).

الدليل النقلي: جاء وصف الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم بوصف المخلص^١ منها قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ^٢.

ومن جهة أخرى نرى الشيطان عندما أقسم بأنه يضل جميع بني آدم استثنى منهم المخلصين: ﴿قَالَ قَبِعَزَّكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ^٣.
ومن الواضح أن إبليس إنما استثنى المخلصين؛ لأنه لا يقدر على إغوائهم وإلا لما قصر في إغوائهم وضلالهم. فالظاهر من آيات الذكر الحكيم أنه لا سبيل للشيطان في إغواء الأنبياء وضلالهم.

سر عصمة الأنبياء من الذنوب

لكي يتضح لنا سرّ عصمة الأنبياء من الذنوب جلياً لا بدّ من مقدّمة ضرورية هي: إن الإنسان موجود مختار تصدر أفعاله عن اختيار وانتخاب. فيختار الفعل الذي يراه مفيداً ويتجنب ما يراه مضرّاً، إلّا ضعيفي الإرادة والذين قد فقدوا السيطرة على نفوسهم، فإنهم يقومون بالأفعال المنافية لعقولهم، فالتشخيص إذاً يعني العلم بالمنفعة أو الضرر الكامن في العمل، وهو يلعب دوراً مهماً في الإقدام على الفعل أو تركه.
من هنا نرى الإنسان المحبّ للحياة يستحيل أن يقدم على تناول السمّ أو إلقاء نفسه في النار مع كونه قادراً على القيام به.

إذا عرفنا هذه المقدّمة نقول: إنّ للأنبياء الإلهيين خصيصتين تمنعهم من الوقوع

١. المخلص بفتح اللام من أخلصه الله تعالى؛ وأما المخلص بكسرها فيعني الإنسان الذي أخلص عمله لله تعالى فقط. ولأرب أن منزلة المخلصين بالفتح أسمى بكثير من منزلة المخلصين بالكسر.

٢. ص: ٤٥ - ٤٦؛ راجع: مريم: ٥١؛ يوسف: ٢٤.

٣. ص: ٨٢ و٨٣.

في الذنب: الخاصية الأولى، العلم والإيمان التام بآثار الذنوب وعواقبها الوخيمة، بنحو يعدّ كلّ ذنب عندهم جحيماً مهلكة وسمّاً قاتلاً.

الخاصية الثانية: الإرادة القوية والسيطرة العالية على الميول والأهواء والانفعالات كالغضب النفساني وغيره، فالأنبياء أناس من الطراز الأول ومن المخلصين الذين لا طريق للضعف إلى إرادتهم أبداً.

انطلاقاً من هاتين الخاصيتين لا يصدر الخطأ أو الذنب من جميع الأنبياء وإن كانوا قادرين عليه ومتمكنين منه.^١

خلاصة البحث

١. العصمة. لغة: المنع والحفظ. والمراد بعصمة الأنبياء الإلهيين: أ) العصمة عن الخطأ والاشتباه في مرحلة تلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه. ب) التزّه من اقتراف أنواع الذنوب.
٢. نفس الدليل العقلي الدالّ على لزوم بعثة الأنبياء يدلّ على العصمة؛ لأنّ هداية الإنسان عن طريق الوحي والنبوة إنّما تتحقّق حينما يكون الوحي مصوناً من الخطأ في (التلقي، الفهم، التبليغ). وأنّ الله تعالى، حكيم، عليم، قدير، فهو يريد ويعلم ويقدر على إيصال تلك الرسالة كاملة علي يد شخص من عباده جدير بحمل الأمانة. وقد دلّ القرآن الكريم على هذه الحقيقة أيضاً.
٣. تعتقد الشيعة بعصمة الأنبياء - منذ الولادة وحتى الوفاة - عن ارتكاب المعاصي مطلقاً، بل تعتقد أنّهم معصومون عن السهو والنسيان أيضاً.

١. يرى الشهيد المطهري: إنّ العصمة من الذنوب نابعة من كمال الإيمان وشدة التقوى. فلا ضرورة - لوصول الإنسان إلى مقام العصمة - لوجود قوة خارجية تردعه عن الوقوع في الذنوب، كما لا ضرورة لخلق المعصوم مسلوب القدرة؛ لأنّ الإنسان الفاقد للقدرة على اقتراف الذنوب أو الذي تلازمه قوة خارجية تردعه دائماً عن الذنب، لا يعدّ امتناعه عن الذنب كملاً، مثله مثل من حبس في زنزانه لا يستطيع فيها القيام بأيّ ذنب أو اقتراف أيّ خطيئة، فإنّ ذلك لا يكشف عن صلاحه وأمانته. (مجموعة آثار: ١٦١/٢).

٤. عصمة الأنبياء تعني وجود ملكة نفسانية تمنعهم من اقتراف الذنوب في شتى الظروف والحالات.

٥. الدليل العقلي على عصمة الأنبياء: إن الله تعالى بعثهم للهداية فلو لم يلتزموا بالأحكام الإلهية التي كُلِّفُوا بإبلاغها إلى الناس وصدر الذنب منهم، لانتفى الوثوق بكلامهم، فلم يتحقق الغرض المنشود من بعثهم وإرسالهم.

٦. الدليل النقلي على عصمة الأنبياء: (أ) إن الله تعالى وصف كثيراً من أنبيائه بالمخلصين. (ب) يستفاد من القرآن الكريم أن الشيطان عاجز عن إضلال المخلصين.

٧. السر في عصمة الأنبياء، أولاً: العلم والإيمان التام بآثار الذنوب وعواقبها الوخيمة. ثانياً: الإرادة القوية والسيطرة العالية على الميول والأهواء والانفعالات.

الدرس الخامس

طرق إثبات النبوة

النبوة مقام شامخ ومنزلة عظيمة جداً ومن يتصدى لهذا المقام الرفيع يكون مقدساً ومبجلاً لدى المؤمنين وتعتبر طاعة وظيفه الناس ومسؤوليتهم.

من هنا يمكن للطامعين بالقداسة والمتحنيين للفرص إدعاء ذلك المقام السامي كذباً للانتفاع بجزاياه الظاهرية واستغلالها وكذلك بسط هيمنتهم وسلطتهم على الناس. من هنا اقتضت الضرورة أن تحدد الطرق التي يميز من خلالها بين النبي الصادق والمتنبئ كذباً. وأن هناك طرقاً ثلاثة للوقوف بنحو قاطع على صدق مدعي النبوة في دعواه، هي:

١. جمع القرائن والشواهد

من الطرق المعتمدة لإثبات صدق مدعي النبوة هي دراسة الأمور التي تحيط به، من قبيل: المحيط الذي ظهرت فيه الدعوة، تاريخ حياته، خصوصياته الأخلاقية، محتوى الرسالة التي يدعو إليها، وغير ذلك من القضايا التي تتعلق به، ثم الوصول من خلال جميع القرائن والشواهد الدالة إلى صدق دعواه.

٢. تنصيب النبي السابق على نبوة النبي اللاحق

إذا ثبتت نبوة نبي بدلائل مفيدة للعلم بنبوته، ثم نصّ هذا النبي على نبوة نبي لاحق

يأتي من بعده يحمل خصائص وصفات معينة ومحددة، فإذا ما بعث نبي تنطبق عليه تلك الملامح والخصوصيات كان ذلك حجة قطعية على نبوته لدى أتباع النبي السابق، العالمين بتلك البشارة فلا يشك حينئذٍ بصدق كونه مبعوثاً من الله تعالى.

٣. المعجزة

يزود الأنبياء الإلهيون - عموماً - بمعجزة تثبت للناس صدق دعوتهم، بل المستفاد من آيات الذكر الحكيم أن الناس أنفسهم كانوا يطلبون المعجزة من الأنبياء وكلما كان الهدف من وراء هذا الطلب الوصول إلى الحقيقة ومعرفة الواقع، حينئذٍ نجد الأنبياء يستجيبون له ويأتون بالمعجزة الدالة على صدقهم، لكن في كثير من الأحيان يكون طلب المشركين للمعجزة سخرية واستهزاء بالنبي وغير ذلك من الأهداف التي لانمت إلى طلب الحقيقة ومعرفة الواقع بأي صلة، بل نجد المشركين يطلبون ذلك منه بعد أن اتضح للجميع صدق دعواه وثبت كونه محققاً ومن الطبيعي ألا يستجاب لطلبهم ولا يأتي النبي بمعجزة جديدة.

تعريف المعجزة

المُعْجَزَةُ لغة، بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العَجَز: عدم القدرة.^١ واصطلاحاً هي: أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة.^٢ ومن الواضح أن الظواهر التي تحدث في العالم على طائفتين:

١. لسان العرب: مادة «عجز».

٢. عرف الطوسي المعجزة بقوله: هو ثبوت ما ليس بمعتاد أونفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوى. (كشف المراد: ٣٥٠) وقيد مع «خرق العادة» المأخوذ في التعريف زاندا؛ لأنه نفس قيد «ما ليس بمعتاد» المأخوذ في نفس التعريف.

١. الأمور العادية، أي الأمور التي يمكن اكتشاف علّة وسبب تحققها من خلال دراسة العلل والأسباب دراسة تجريبية وتحليلية.

٢. الأمور الخارقة للعادة وغير العادية، أي الظواهر التي لا يمكن اكتشاف جميع عللها وأسبابها من خلال التحليل والتجربة الحسية، بل توجد شواهد تدلّ على وجود (نوع آخر من العلل والأسباب) تقف وراءها وتؤثر في تحققها. والمعجزة من هذا القبيل من الأفعال. كذلك يمكن تصنيف الأمور الخارقة للعادة إلى صنفين:

١. الأمور التي ليس لها علل عادية، ولكن في نفس الوقت عللها وأسبابها غير العادية قابلة للإدراك إلى حد ما حيث يمكن التوصل إليها من خلال التجربة والممارسة والرياضات الخاصة، ومن نماذج هذا الصنف الأعمال التي تصدر عن المراتضين.

٢. الأمور التي يتوقّف تحققها على الإذن الإلهي الخاصّ ويستحيل صدورها من غير المؤمنين والمهتدين بالهداية الإلهية. من هنا نرى هذه الأمور تنسم بصفتين أساسيتين:

الأولى: إنها غير قابلة للتعليم والتعلّم.

والأخرى: يستحيل أن تغلب أو تقهر من قبل قوة أخرى مهما كانت.

فإذا ما صدر من مدعي النبوة فعل يحمل الخاصيتين المذكورتين حينئذٍ يطلق عليه عنوان المعجزة ويعدّ دليلاً على صدق دعوته.^١

١. لا ريب أن الاستدلال بالمعجزة على صدق ادعاء النبوة يتوقّف قبل ذلك على إثبات وجود الله أولاً وإثبات بعض صفاته ثانياً. ويمكن ترتيب مقدمات البرهان بالنحو التالي: ١. إن الله حكيم. ٢. الحكيم لا ينقض غرضه؛ يعني لا يصدر منه فعل مناف لغرضه أو يخالفه في النتيجة أو يمنع الوصول إلى الهدف. ٣. الهدف والغرض الإلهي هو هداية الناس، يعني أن الله تعالى يريد لعباده الهداية والابتعاد عن الضلال. ٤. وضع المعجزة تحت متناول مدعي النبوة كذباً يؤدي إلى إضلال الناس وبالنتيجة ينافي الغرض الإلهي.

فالمحصل من المقدمات المذكورة أنه يستحيل أن يضع الله تعالى المعجزة تحت يد مدعي النبوة كذباً.

خلاصة البحث

١. لإثبات صدق مدعي النبوة في دعواه، هناك ثلاث طرق: (أ) جمع القرائن والشواهد.
(ب) تنصيب النبي السابق. (ج) المعجزة.
٢. المعجزة لغة: عدم القدرة أو التعجيز. واصطلاحاً هي: أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى علي يد مدعي النبوة.
٣. الأمور الخارقة للعادة، هي الظواهر التي لا يمكن اكتشاف جميع عللها وأسبابها من خلال التحليل والتجربة الحسية، بل توجد شواهد تدلّ على وجود علل وأسباب أخرى تقف وراءها وتؤثر في تحققها.
٤. بعض الأمور الخارقة للعادة وإن لم يكن لها علل عادية، ولكن في نفس الوقت عللها وأسبابها غير العادية قابلة للإدراك إلى حد ما حيث يمكن التوصل إليها من خلال التجربة والممارسة والرياضات الخاصة، والبعض الآخر منها يتوقف تحققه على الإذن الإلهي الخاص ويستحيل صدوره من غير المؤمنين والمهتدين بالهداية الإلهية. والمعجزة من هذا القبيل.
٥. المعجزة غير قابلة للتعليم والتعلم. ويستحيل أن تغلب أو تقهر من قبل قوة أخرى.

الدرس السادس

نبي الإسلام

لمحة تاريخية

شهدت الجزيرة العربية سنة ٥٧٠ ميلادية ولادة إنسان يحمل اسم محمد بن عبد الله، شاءت الإرادة الإلهية أن يكون هو النبي الخاتم للرسالات السماوية بعد أربعين عاماً قضاها مقرونة بالعفة والنزاهة والصدق والأمانة، فبعث ﷺ برسالته إلى الأمة وكانت تلك هي مرحلة التحول الكبير، بل أكبر تحول شهده التاريخ البشري.

قضي النبي الأكرم ﷺ ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة في وسط المجتمع المكّي يدعوهم إلى الإسلام الحنيف ويرشدهم إليه، وقد تحمّل في هذا المجال أشدّ أنواع العذاب وصنوف الأذى لكنّه ﷺ مع كلّ تلك المعاناة استطاع أن يربي ثلة من الصالحين والشخصيات البارزة، ثمّ شدّ الرحال مهاجراً إلى المدينة المنورة ليتخذ منها مركزاً ومنطلقاً في حركته الدعوية فقصى فيها عشر سنوات من عمره الشريف يدعو الناس إلى الإسلام بحرية تامة ويواجه المستكبرين من جبابرة وعتاة قريش وغيرها من قبائل الجزيرة العربية، تمكن في نهاية الأمر من التغلّب عليهم وإخضاع الجزيرة العربية لإرادته وإدخالها تحت راية الإسلام الحنيف، وكان الوحي ينزل عليه خلال تلك

الفترة الطويلة بآيات القرآن الكريم بصورة تدريجية، فكان يتلوها على الناس ويبينها لهم ويرشدهم إلى مفاهيمها السامية.

كانت الحوادث والوقائع التي واجهت النبي الأكرم ﷺ في تلك الفترة تثير الحيرة وتبعث على الإعجاب بتلك الشخصية الكبيرة والسامية التي استطاعت التغلب على كل تلك الصعاب وتجاوز كل المحن لتكون قدوة للأحرار والخيرين على مر التاريخ. وكانت تلك الحوادث بمقدار من الشمولية والسعة، بحيث لا يمكن التعرض لها في هذا المجال، وقد أفرد لها الكثير من الباحثين مصنفات خاصة يمكن الرجوع إليها في مطالعتها.

طرق إثبات نبوة النبي الأكرم ﷺ

قلنا في الأبحاث السابقة أن هناك ثلاث طرق لإثبات صدق مدعى النبوة. ومن الممكن اعتماد الطرق المذكورة لإثبات صدق ادعاء النبي الأكرم ﷺ، وأنه مبعوث بحق من قبل الله تعالى.

١. جمع القرائن

تعتبر الخلفية التاريخية لحياة الإنسان شاهداً وطريقاً مناسباً للوثوق بصدقه وسلامه سريرته أو عدمها، ونحن عندما نراجع فترة الأربعين عاماً التي قضاها ﷺ في الوسط الاجتماعي قبل البعثة الشريفة نجدها تحكي وبوضوح عن تحليه ﷺ بالنزاهة، الأمانة، الصدق، الاستقامة في جميع نواحي الحياة. ولقد كان ثقة الناس به إلى حد كان يلقب في أوساطهم «بالصادق الأمين»، بل كانت تلك الخصال بدرجة من الوضوح والاستحكام، بحيث لم يتمكن حتى أشد خصومة عناداً - بعد البعثة - من إنكارها، بل لم يتمكنوا من وصفه بأي رذيلة من خيانة أو ظلم أو كذب أو ما شابه ذلك.

كذلك يحكي تاريخ صدر الإسلام عن السجايا والأخلاق السامية التي كان ﷺ يتصف بها كحسن الخلق، الصبر، العفو، الفتوة والأريحية... إلخ. اتجاه خصومه، بل نجد كل ما ينبغي توفرة في الأنبياء والرجال الصالحين متوفراً في شخصية النبي الأكرم ﷺ. بالنحو الاتم والأكمل، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار كون النبي الأكرم ﷺ لم يدرس على يد أي إنسان كان وعاش وترعرع وهو أمي،^١ ومع كونه أمياً وعاش وسط مجتمع جاهلي، لكنه ﷺ جاء بكتاب ومعارف تبهر العقول والألباب فقد جاء للبشرية بحقائق سامية في مجال التوحيد والمعارف الإلهية، ومعرفة الإنسان وما يتعلق به ورسم لهم أفضل السبل ووضع لهم أحسن المناهج الحياتية، بل جاءهم بكتاب لا نظير له في تاريخ البشرية على الإطلاق.

وعندما نضع هذه الحقيقة إلى جانب سائر القرائن الأخرى من قبيل: مدى تأثير النبي الأكرم ﷺ وجاذبيته في تغيير مجتمعه، إيمانه بأهدافه التي يدعو إليها، عدم التوسل بالأساليب غير الأخلاقية لتحقيق غاياته، سرعة التحول الذي حصل وتأثير كلامه وثبات تعاليمه، بالإضافة إلى صدق وإخلاص وطهارة اتباعه ومريديه الذين استثاروا بنوره الشريف واهتدوا بهداه، كل ذلك لا يبقى أدنى مجال للشك والارتياب بأن محمد بن عبدالله ﷺ نبي من أنبياء الله الصادقين بعث لهداية البشرية وسعادتها.

٢. تنصيب النبي السابق

يتضح من خلال دراسة التاريخ أن الأنبياء السابقين كانوا قد بشروا ببعثة نبي

١. كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في مكة المكرمة - التي تعتبر أكثر مدن الحجاز تقدماً - من الرجال والنساء لا يتجاوز السبعة عشر، كما ذكرت ذلك المصادر التاريخية.

الإسلام ﷺ،^١ ولقد كانت طائفة من أهل الكتاب تعدّ الأيام في انتظار البعثة الشريفة وكانوا يعرفون الكثير من علاماته،^٢ بل إن أهل الكتاب كانوا يخبرون المشركين ويستفتحون عليهم بقرب بعثة نبي من ولد إسماعيل - الذين تشكل منهم القبائل العربية - يسير على المنهج التوحيدي ويصدق بالأنبياء السابقين،^٣ ولقد كان لهذه البشارات الأثر البارز في إيمان بعض علماء اليهود والنصارى ودخولهم في الإسلام،^٤ وإن كان البعض الآخر لجّ في خصامه وعناده انقياداً لوساوس الشيطان واتباعاً للميل النفسية فلم يدخل في الدين الجديد.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الطريق من طرق معرفة النبي، بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟﴾^٥

الجدير بالذكر أنّه مع كل الجهود الحثيثة التي بذلت لإخفاء تلك البشارة من التوراة والإنجيل المحرف وطمس تلك الحقيقة! بقيت هناك إشارات لم يستطع المحرفون إخفاءها يمكن أن تكون حجة وبرهاناً لطالبي الحقيقة والباحثين عن

١. أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في عدد من الآيات الشريفة منها ما ورد في الآية السادسة من سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سَيِّئٌ مَبِينٌ﴾.

٢. قال تعالى في سورة الأعراف: ١٥٧: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

٣. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٨٩).

٤. المائدة: ٨٣: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

٥. الشعراء: ١٩٧.

الواقع، ولقد كانت تلك البشارات سبباً في اعتداء الكثير من علماء اليهود والنصارى إلى جادة الصواب والدخول تحت راية الإسلام الحنيف.^{٢١}

٣. المعجزة

كما مرّ سابقاً أنّ من أهمّ الطرق لإثبات النبوة طريق المعجزة، بأن يأتي مدعي النبوة بما يعجز عنه الآخرون ليثبت من خلاله أنّه مبعوث بحقّ من الباري تعالى، وكذلك لكي يتّضح للناس صدق اتصاله بالله تعالى.

تحدّثت الكتب التاريخية والحديثية عن معجزات النبي الأكرم ﷺ ودونت الكثير من تلك المعاجز، منها: تكلم الحصة في يده ﷺ،^٢ شهادة الذئب برسالته،^٣ انشقاق القمر له،^٤ ومنها: أنّه ﷺ دعا الشجرة فأجابته وجاءته تخد الأرض من غير جاذب ولا دافع،^٥ ثمّ رجعت إلى مكانها،^٦ بالإضافة إلى إخباره بالغيوب في مواضع كثيرة وتنبّه بالكثير من الحوادث والوقائع المستقبلية.^٧

ولقد كان نقل تلك المعاجز بحد من الكثرة وتواتر النقل حتّى عدت من المسلمات التاريخية.^٨

١. من قيل: الميرزا محمد رضا، من كبار علماء اليهود في طهران وصاحب كتاب *اقامة الشهود في رد اليهود*؛ الحاجّ باب قزويني يزدي، من علماء اليهود في مدينة يزد الإيرانية وصاحب كتاب *محضر الشهود في رد اليهود*؛ والأسقف المسيحي البروفسور عبد الأحد داوود صاحب كتاب *محمد في التوراة والانجيل*.

٢. *تعليم العقائد* للأستاذ آية الله مصباح اليزدي: ١٢٦/٢ - ١٢٧.

٣. *دلائل النبوة*: ٦٤/٦ - ٦٥؛ *بحار الأنوار*: ٣٧٣/١٧ و ٣٧٧.

٤. *دلائل النبوة*: ١٦/٦ و ٤٤؛ *بحار الأنوار*: ٣٩٣/١٧ - ٣٩٤.

٥. *دلائل النبوة*: ٢٦١/٢ - ٢٦٨؛ *بحار الأنوار*: ٣٥٥/١٧.

٦. *دلائل النبوة*: ١٣/٦ - ١٧.

٧. راجع: *كشف المراد*: المقصد الرابع، المسألة السابعة.

٨. نقل العلامة المجلسي الكثير من الروايات التي تحدّثت عن معجزاته ﷺ في *بحار الأنوار*: ١٧ و ١٨.

لكن إلى جنب تلك المعجزات الكثيرة هناك معجزة تعدّ من أبرزها وأجلها وهي القرآن الكريم الذي يعدّ معجزة النبي ﷺ الخالدة.

ثمّ هناك الكثير من الأنبياء ممّن جاؤوا بكتب سماوية إلّا أنّ النبي الوحيد الذي اعتبر كتابه معجزة هو النبي الأكرم ﷺ. فالقرآن الكريم كتاب هداية الهية وبرهان قاطع على صدق رسالة النبي ﷺ، وتكمن في هذا الأمر الكثير من الأسرار، منها:

١. بما أنّ دينه ﷺ دينٌ خاتمٌ، وشريعته شريعةٌ خاتمةٌ وخالدةٌ ورسالته رسالة شاملة لكل البشرية زماناً ومكاناً، ولا ريب أنّ الدين الخالد والشريعة الخاتمة بحاجة إلى معجزة خالدة لتكون برهان الرسالة القاطع لكل عصر وجيل، حتّى تتمّ الحجّة على جميع الأجيال والقرون إلى أن تقوم الساعة عندما تلمس تلك المعجزة مباشرة.

٢. إنّ جعل معجزة النبي الأكرم ﷺ من سنخ المعجزة المقروءة (القرآن الكريم) يوفر للبشرية فرصة اكتشاف الكثير من الأبعاد الإعجازية فيه، حيث كلما تطوّر العلم ظهر منها ما كان خافياً على الأجيال السابقة.

المعجزة القرآنية

لا ريب أنّ القرآن الكريم معجزة النبي الأكرم ﷺ إلّا أنّ من الضروري الإشارة إلى ما يعزز ذلك من خلال ذكر الحقائق التالية:

١. يصرح القرآن الكريم بما لا مجال للشك فيه، بأنّه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، بل التحديّ شمل الجن والإنس معاً،^١ بل إنهم عجزوا أن يأتوا بعشر سور،^٢ بل بسورة قصيرة.^٣

١. الإسراء: ٨٨ ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

٢. هود: ١٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٣. يونس: ٣٨ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٢. إنه منذ الأيام الأولى للصراع تحدّى مخالفيه ودعاهم للنزال، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فليذعنوا بأنه ليس من صنع البشر وإنما هو من لدن عليم خبير.^١

٣. يكشف لنا التاريخ الإسلامي أنّ خصوم النبي الأكرم ﷺ وأعداءه في الداخل والخارج تصدّوا منذ الأيام الأولى للدعوة لمحاربتها ومحاولة القضاء عليها وإطفاء النور الإلهي، ولم يألوا جهداً في هذا المجال أبداً. وما زالت الدول الاستكبارية تسير على نفس النهج وبذل الجهود كافة للقضاء على الإسلام وإيقاف حركته المباركة؛ لأنها تشعر بأنّ الإسلام هو الخطر الحقيقي الذي يهدد نفوذها وسلطتها الغاشمة.

٤. مع الأخذ بنظر الاعتبار التحدي القرآني ونوع المنازلة التي اقترحها القرآن الكريم، تكون الاستجابة لها من أيسر الطرق وأقلّها كلفة على المشركين، إذ بإمكانهم أن ينهوا النزال ويكسبوا المعركة بمجرد الإتيان بسورة واحدة على مستوى السور القرآنية.

٥. إنه لم يتمكّن - ولحد الآن - أي شخص من الإتيان بكلام يحكم أرباب اللغة وعلماء البلاغة بأنه يضارع القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته، بل لم يكن نصيب من حاولوا المنازلة إلّا الفضيحة والخيبة على مرّ التاريخ.^٢

اتضح من خلال ما ذكرنا أنّ القرآن الكريم معجزة إلهية جاء بها النبي الأكرم ﷺ. فمحمّد بن عبد الله ﷺ صادق في ادعاء النبوة، وأنّ ما ينزل عليه هو كلام الله ووحى منه تعالى وليس له ﷺ أدنى تصرف فيه.

١. البقرة: ٢٣ - ٢٤: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۚ﴾.

٢. للاطلاع على هذه المحاولات البائسة راجع: البيان في تفسير القرآن ونفحات الإعجاز تأليف آية الله العظمى السيّد الخوئي.

خلاصة البحث

١. إحدى الطرق الدالة على إثبات نبوة النبي الأكرم: جمع القرائن، أنه ﷺ قضى أربعين عاماً من عمره الشريفة مقرونة بالعفة والصدق والتنزّه عن كلّ الرذائل، والتحليّ بكلّ الصفات التي يجب توفرها في القادة الإلهيين، بالإضافة إلى العيش في مجتمع أمي، ولكنّه مع ذلك يأتي بأرقى التعاليم والمعارف وأعمقها على جميع المستويات، مدى تأثيره في تغيير المجتمع وإيمانه بالهدف الذي قام من أجله وكلّ ذلك يكشف عن صدق نبوته ﷺ.

٢. تبشير الديانات السابقة ببعثته ﷺ، من هنا كانت تترقّب بعثته الشريفة طائفة من أهل الكتاب في ذلك العصر لمعرفةهم بعلامات نبوته، بل هذه البشارات مازالت موجودة في التوراة والإنجيل المحرفين أيضاً الأمر الذي أدّى إلى أن يعتنق الإسلام الكثير من علماء اليهود والنصارى.

٣. جاء النبي الأكرم ﷺ بكثير من المعاجز التي سجلتها كتب التاريخ الحديث الإسلامي، منها: تكلم الحصى في كفه، شهادة الذئب برسالته، انشقاق القمر، حركة الشجرة نحوه بالإضافة إلى نبوءاته الغيبية الصادقة.

٤. يعتبر القرآن الكريم أهم وأكبر معاجزه ﷺ. وهذه خصيصة انفرد بها النبي الأكرم ﷺ، حيث هو النبي الوحيد الذي كان كتابه معجزته بالإضافة إلى كونه كتاب هداية.

٥. تكمن في كون القرآن معجزة مجموعة من الأسرار، منها: (أ) بما أنّ دين الإسلام هو الدين الخالد، فلا ريب أنّ الدين الخالد بحاجة إلى معجزة خالدة. (ب) كونه معجزة يوفر للبشرية على مرّ التاريخ فرصة اكتشاف الكثير من الأبعاد الإعجازية فيه.

٦. القرآن الكريم معجزة لأنه: (١) صرح بنحو قاطع بأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بسورة مثله. (٢) إن هذا العجز يكشف عن كونه من لدن خبير عليم وليس من صنع البشر. (٣) إن خصوم القرآن وأعداءه تصدوا له منذ الأيام الأولى للدعوة ولم يألوا جهداً في هذا المجال؛ (٤) إن أيسر منازلة ومواجهة مع الإسلام وأقلها كلفة هي الاستجابة للمنازلة والتحدي الذي طلبه الإسلامي والإتيان بسورة مثله. (٥) لم يتمكن أحد حتى هذه الساعة من الإتيان بكلام يشابه القرآن فصاحة وبلاغة.

الدرس السابع

ختم النبوة

دين أم أديان

من الملاحظ في غالب الدراسات المنصبة على معرفة الدين الإتيان بمصطلح «الأديان» بصيغة الجمع وينسبون لكل نبي ديناً خاصاً من قبيل: دين اليهود، دين المسيح ودين الإسلام، إلّا أنّ المعتمد في الفكر الإسلامي والثقافة القرآنية أنّ دين الله واحد من لدن آدم ﷺ وحتى الخاتم ﷺ، وأنّ جميع الأنبياء يدعون إلى إله واحد.^١ وأنّ تعاليم الأنبياء واحدة والفرق يقع بينهم في جهتين:

(أ) في بعض المسائل الفرعية، حسب مقتضيات الزمان والمكان وخصوصيات الناس.
(ب) مستوى التعاليم التي يطرحها كل نبي، فكل نبي لاحق يأتي - انسجاماً مع قانون تكامل البشر - بتعاليم أرفع مستوى من تعاليم النبي السابق، فعلى سبيل المثال المعارف التي جاء بها النبي الأكرم ﷺ في باب التوحيد والمعاد والإنسان أشمل وأعمق بكثير ممّا جاء به الأنبياء السابقون.

فالإنسان في مدرسة الأنبياء كطالب المدرسة يرتقي من مرحلة إلى مرحلة ويطوي

١. آل عمران: ١٩: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾.

مراحله العلمية من صف إلى صف آخر. من هنا يكون التعبير الصحيح عن القضية بتكامل الدين الواحد لا تعدد الأديان واختلافها.

فلم يستعمل القرآن الكريم مصطلح «الأديان» بصيغة الجمع، بل كل نبي لاحق مؤيد ومصدق لسلسلة الأنبياء الذين سبقوه. فيمكن القول انطلاقاً من هذه الرؤية أنه لو قدر للنبي السابق أن يكون هو اللاحق لجاء بنفس التعاليم التي جاء بها اللاحق.

وقد صرح القرآن الكريم بأن الأنبياء يمثلون سلسلة واحدة، وأن السابق منهم يبشر باللاحق، وأن اللاحق مؤيد ومصدق لما جاء به السابق، وقد عبر القرآن عن تلك الحقيقة بالميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^١.

النبي الخاتم

من ضروريات الدين الإسلامي الاعتقاد بخاتمية النبي الأكرم ﷺ، وأنه يمثل الخاتم لسلسلة الأنبياء الإلهيين فلا نبي بعده ﷺ. فقد صرح القرآن الكريم في سورة الأحزاب الآية بهذه الحقيقة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^٢.

السّر في ختم النبوة

من الأسئلة التي تثار في قضية ختم النبوة أنه لماذا كانت النبوة تتجدد حيناً بعد

١. آل عمران: ٨١.

٢. الأحزاب: ٤٠. «الخاتم ما يختم به الشيء»، ومن هنا سُمي الخاتم خاتماً؛ لأن به تختتم المكاتب والرسائل.

حين فني يرحل ليحلّ محلّه بعد فترة نبي آخر، فما هو السرّ الذي جعل تلك السلسلة تتوقّف وتختتم بالنبي الأكرم (عليه السلام)؟ وللإجابة عن السؤال المطروح لا بدّ من الالتفات إلى ثلاث ملاحظات ضرورية:

١. لم يتمكّن الإنسان القديم^١ بسبب قصوره الفكري من المحافظة على الكتب السماوية التي أنزلت إليه، ولذلك ترى الكتب السماوية السابقة أمّا قد اندثرت بالكامل أو مستها يد التحريف والتبديل، فبقيت الحاجة ماسة لتجديد الرسول والرسالة، لكن البشرية في عصر النبي الأكرم (عليه السلام) تجاوزت مرحلة الطفولة وبلغت من النمو والبلوغ الفكري حدّاً تستطيع من خلاله المحافظة على تراثها العلمي والديني. ومن هنا نرى القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يتعرّض للتحريف أو التلاعب وبقي سالمًا كما نزل أول مرة.

٢. لم يكن الإنسان القديم مؤهلاً لتلقي خطّة كلية ترسم له مسير حياته، بحيث ينطلق منها في مسيرته التكاملية، من هنا كان في كلّ مرحلة بحاجة إلى إرشاد ينسجم مع تلك المرحلة فإن انقضت أتاها الإرشاد المناسب للمرحلة الجديدة وهكذا، لكن وصل الإنسان المعاصر لبعثة النبي الأكرم (عليه السلام) إلى مرحلة من القوة الفكرية، بحيث يستطيع اكتشاف الخطوط الأساسية لحياته من الخطة الكلية التي أنزلت إليه.

٣. ينقسم الأنبياء الإلهيون المبعوثون لهداية البشرية إلى طوائف، فبعضهم جاء بشريعة جديدة والبعض الآخر لم يأت، بل هو مبلغ لشريعة من قبله. من هنا يكون الأنبياء طائفتين، هما: الأنبياء المشرعون والأنبياء المبلغون، وأنّ النسبة الغالبة في الأنبياء هم من الطائفة الثانية، وقد لا يتجاوز عدد الأنبياء من الطائفة الأولى العشرة، وأنّ مهمّة الأنبياء التبليغيين تتمثّل في تبليغ وترويج، وتنفيذ وتفسير الشريعة الحاكمة في عصرهم.

١. المراد من الإنسان القديم، هو الذي كان يعيش قبل بعثة النبي الأكرم (عليه السلام).

يمكن القول - انطلاقاً من الملاحظات السابقة - : إن السرّ في ختم النبوة يكمن في التطوّر والبلوغ الفكري والاجتماعي للإنسان؛ لأنّ الإنسان المعاصر للنبي الأكرم ﷺ قد بلغ حدّاً يمكنه من القيام بالأمور التالية:

١. حفظ وصيانة كتابهم السماوي من الأخطار والتحريفات التي تهدده.
٢. يمكنه تلقي برنامج هدايته وسعاده دفعة واحدة.
٣. تحمل مسؤولية تبليغ وترويج وإقامة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتولّى هذه المهمة العلماء والصالحون من الأمة.
٤. القيام - في ظلّ فتح باب الاجتهاد - بتفسير كليات الوحي وتطبيقها على مواردها وإرجاع المسائل الفرعية - في كلّ عصر - إلى أصولها. وهذه المهمة تقع على عاتق علماء الأمة أيضاً.^١

خلاصة البحث

١. المعتمد في الثقافة القرآنية أنّ دين الله واحد، وأنّ جميع الأنبياء يدعون إليه.
٢. الفرق بين الأنبياء يقع في جهتين: ١. بعض المسائل الفرعية، حسب مقتضيات الزمان والمكان وخصوصيات الناس الذين بعث فيهم. ٢. مستوى التعاليم التي يطرّحها كلّ نبي.
٣. لم يستعمل القرآن الكريم مصطلح «الاديان» بصيغة الجمع، وأنّه يصرّح بأنّ الأنبياء يمثلون سلسلة واحدة، وأنّ السابق منهم يبشر باللاحق وأنّ اللاحق يؤيّد ويصدّق السابق.
٤. النبي الأكرم ﷺ خاتم لسلسلة الأنبياء.

٥. السرّ في ختم النبوة يكمن في البلوغ الفكري والاجتماعي للإنسان في عصر بعثة نبي الإسلام، حيث بلغ حداً يمكنه من القيام بالأمور التالية: ١. حفظ كتابه السماوي.
٢. يمكنه تلقي برنامج هدايته وسعادته دفعة واحدة. ٣. تحمل مسؤولية تبليغ الدين.
٤. القيام - في ظلّ فتح باب الاجتهاد - بتطبيق كليات الوحي على مواردها وإرجاع الفروع إلى أصولها.

الفصل الرابع

مباحث الإمامة

الدرس الأول

الإمامة في الفكر الشيعي

نبذة تاريخية

إنّ أوّل خلاف وقع في الأمة الإسلامية بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ وشطر الأمة إلى طائفتين هو الاختلاف في مسألة الإمامة والخلافة. فلزمت طائفة من الأمة جانب الإمام علي عليه السلام معتقدة بأنّه خليفة رسول الله ﷺ، وطائفة أخرى اختارت السير في ركاب سائر الخلفاء مؤمنة بخلافتهم. من هنا انقسم المسلمون إلى سنة وشيعة.

تصورات خاطئة لتفسير الاختلاف الشيعي السني

يعتقد البعض أنّ الاختلاف الشيعي السني في مسألة الامامة ناشئ من اعتقاد الشيعة بأنّ النبي الأكرم ﷺ نصب علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة من بعده لإدارة المجتمع، ولكن أهل السنة يعتقدون بأنّه لم يثبت ذلك النصب من قبل النبي ﷺ، وإنّما الأمر موكول للأمة هي التي تختار من تشاء حاكماً عليها، فاختارت الأمة رجلاً خليفة عليها، وحينما قربت منه الوفاة أوكل الأمر إلى الخليفة الثاني، وهذا بدوره عهد بالأمر إلى شوري سداسية تنتخب من بينها شخصاً للخلافة فاختارت

الخليفة الثالث، فلما قتل انتخبت الأمة بالانتخاب العام الخليفة الرابع. طبقاً لهذه النظرية يكون الاختلاف الشيعي السني اختلافاً في مسألة تاريخية صرفة وهي هل النبي الأكرم ﷺ نصب علياً عليه السلام خليفة من بعده أولاً؟ فالشعة تدعي النصب والسنة ينفون ذلك، لكن الجميع يسلم بأن الثابت تاريخاً أن الرجال الأربعة تولوا الخلافة بالترتيب: أبو بكر، عمر، عثمان، وعلي عليه السلام.

فاذا كان النبي الأكرم ﷺ كان قد نصب علياً عليه السلام خليفة وإماماً من بعده، لم تتحقق أمنيته ورغبته حيث اغتصب الآخرون مسند الخلافة. لكن الحقيقة أن الاختلاف أعمق من ذلك بكثير؛ لأن الاختلاف الشيعي السني في الإمامة ينطلق من التصور العقائدي للإمامة، وهل هي منصب ومقام ديني تابع للتشريع والنصب الإلهي؟ أو أنه مجرد سلطة وقيادة دنيوية خاضعة للظروف والعوامل الاجتماعية؟

النظرية السنية في الإمامة

يعتقد أهل السنة أن الإمامة هي نفس الحكومة وإدارة شؤون الأمة، وأن الإمام يتولى نفس الشؤون التي يتولاها الحاكم في المجتمع. ويعتقدون أن الإسلام أهمل قضية الإمامة فلم يعين طريقة خاصة لنصب الخليفة والحاكم. فمن الممكن أن يتصدى شخص للخلافة بوصية من الخليفة السابق، أو الشورى، أو انتخاب الأمة المباشر له، بل قد يتصدى للخلافة بالغلبة والسيف.

النظرية الشيعية في الإمامة

تري الشيعة أن الإمامة رئاسة عامة شاملة لجميع شؤون المجتمع الإسلامي الدينية والدنيوية، كذلك ترى الشيعة أن هذه الرئاسة لا تكسب شرعيتها إلا إذا كانت منصوبة ومشرفة من قبل الباري تعالى، بل حتى ليس للنبي استقلالية في اختيار نائبه وخليفته من بعده، وأن القضية تابعة للإرادة والأمر الإلهي.

من هنا تكون الإمامة كالنبوة منصباً إلهياً، فكما أنّ بعث النبي واختيار الرسول منحصر بالله تعالى كذلك نصب الإمام منحصر به سبحانه.

كما تعتقد الشيعة، أنّ الإمامة ليست مجرد حكومة ظاهرية، بل الإمامة مقام معنوي وروحاني رفيع المستوى جداً، وأنّ الإمام بالإضافة إلى قيامه بإدارة شؤون المجتمع يتحمّل مسؤولية هدايته في شتى الأمور الدينية والدنيوية. فهو يهدي الأرواح والعقول ويصون شريعة النبي الأكرم ﷺ من كلّ خطر يحيط بها أو تحريف يحاول التطرّق إليها، وكذلك يحقّق الأهداف التي بعث النبي من أجلها.

كذلك ترى الشيعة أنّ المتصدّي لهذا المقام السامي أصالة - لا نيابة - محيط بكلّ الحقائق الدينية إحاطة علمية، وأنّه مصون من الخطأ في بيان الأحكام والمعارف الدينية، بالإضافة إلى كونه معصوماً من الوقوع في الذنب.

ومن معتقدات الشيعة في الإمامة، أنّ للإمام المعصوم ﷺ جميع مناصب النبي الأكرم ﷺ إلّا النبوة، وأنّ كلامه في بيان المعارف والأحكام والقوانين الإسلامية حجة، وأنّ طاعته في سائر الشؤون الحكومية واجبة.

المقارنة بين مقام الإمامة والنبوة

إذا قلنا: إنّ النبوة هداية إلهية، فالإمامة قيادة إلهية. فإذا كان شأن النبي بيان الطريق للناس وتوضيح السبل لهم، فإنّ مهمّة الإمام مساعدة البشرية في قطع تلك السبل واجتيازها. من هنا يكون مقام الإمامة أعلى من مقام النبوة انطلاقاً من ذلك نرى إبراهيم الخليل عليه السلام نال مقام الإمامة بعد سنين من نبوله مقام النبوة وبعد الاختبارات الكثيرة التي تعرض لها: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^١

يستفيد من الآية المباركة الأمور التالية:

١. إنَّ مقام الإمامة أعلى من مقام النبوة.
 ٢. إنَّ مقام الإمامة مقام ومنصب الهي.
 ٣. لا يمكن لغير المعصوم التصدي لمثل هكذا منصب؛ لأنَّ غير المعصوم يرتكب المعصية، وارتكاب المعصية ظلم، ومقترف الظلم ظالم.
- الجدير بالذكر أنَّ القول بأنَّ مقام الإمامة أفضل من مقام النبوة لا يعني بحال من الأحوال تفضيل شخص الإمام على شخص النبي؛ لأنَّ الكثير من الأنبياء ومنهم النبي الأكرم ﷺ وهبهم الله تعالى مقامي النبوة والإمامة معاً.

محاوَر الخلاف الأساسية في مسألة الإمامة

يمكن تلخيص محاور الخلاف الأساسية بين الشيعة والسنة في مبحث الإمامة في الأمور التالية:

١. تعتقد الشيعة أنَّ الإمام خليفة الرسول ﷺ ولا بدَّ أن ينصب من قبل الله تعالى.
 ٢. يتحلَّى الإمام بالعلم الإلهي والعصمة من الخطأ.
 ٣. العصمة من الذنب.
- إلا أنَّ المدرسة السنية لا ترى تلك الأمور شرطاً في الإمام.

خلاصة البحث

١. تعتقد المدرسة السنية بأنَّ الإمامة تعني الحكومة، وأنَّ الإمام يتولَّى نفس الشؤون التي يتولاها أي حاكم في المجتمع، ويعتقدون أنَّ الإسلام أهمل قضية الإمامة فلم يعبِّر طريقة خاصّة لنصب الخليفة والحاكم. فمن الممكن أن يتصدَّى شخص للخلافة بوصية من الخليفة السابق، أو الشورى، أو انتخاب الأمة المباشر له، بل قد يتصدَّى للخلافة بالغلبة والسيف.

٢. الإمامة عند الشيعة رئاسة عامة شاملة لجميع شؤون المجتمع الإسلامي الدينية والدنيوية. وتعتقد الشيعة أنّ هذه الرئاسة لا تكتسب شرعيتها إلّا إذا كانت منصوبة من الله تعالى، وأنّ الإمامة كالنبوة منصب إلهي.

٣. من معتقدات الشيعة، أنّ للإمام المعصوم عليه السلام جميع مناصب النبي الأكرم ﷺ إلّا النبوة، وأنّ كلامه في بيان الحقائق والقوانين والمعارف الإسلامية حجة، وأنّ طاعته في سائر الشؤون الحكومية واجبة، فهو محيط بكلّ الحقائق الدينية إحاطة علمية ومصون من الخطأ في بيان المعارف، ومعصوم من الذنوب كلّها.

٤. تدلّ الآية ١٢٤ من سورة البقرة على: ١. إنّ مقام الإمامة أعلى من مقام النبوة. ٢.

إنّ مقام الإمامة منصب إلهي. ٣. ينحصر التصدي لهذا المنصب في المعصوم فقط.

٥. محاور الخلاف الأساسية بين الطائفتين في مسألة الإمامة ثلاثة: ١. لا بدّ أن

ينصب الإمام من قبل الله تعالى. ٢. لا بدّ أن يتحلّى الإمام بالعلم الإلهي والعصمة من الخطأ. ٣. عصمة الإمام من الذنب.

الدرس الثاني

ضرورة وجود الإمام

تمهيد

تحتل مسألة الإمامة مكانة خاصة في الفكر الإسلامي، لذلك نرى البحث والجدال محتدم فيها دائماً بين المدرستين الشيعية والسنية. وقد ألف علماء الشيعة ومفكروهم الكثير من المصنفات لإثبات عقائدهم الخاصة في هذا المجال، ذكروا خلالها الكثير من الأدلة المحكمة والقوية التي تدعم المعتقد. وقد كانت بحد من السعة والشمول، بحيث لا يسع المجال هنا حتى لذكر صورة إجمالية عنها.

تدور أبحاث الإمامة على محورين أساسيين: المحور الأول: أصل ضرورة وجود الإمام. والمحور الثاني: بيان الأدلة النقلية الكثيرة التي جاء بها النبي الأكرم ﷺ عن الباري تعالى لإثبات إمامة علي بن أبي طالب وأبنائه الاثني عشر عليه السلام.

إثبات ضرورة وجود الإمام

تعتقد الشيعة بضرورة الإمامة شأنها شأن ضرورة النبوة، فكما أنّ الحكمة الإلهية اقتضت ضرورة بعثة النبي وإرسال الرسل لهداية البشرية، كذلك ضرورة الإمامة، وإلّا حصل النقص في طريق هداية البشرية وسعادتها.

ذكرت الكتب الكلامية الشيعية الكثير من الأدلة العقلية والنقلية الدالة على ضرورة وجود الإمام المعصوم. نقتصر هنا على ذكر دليل عقلي واحد، وهذا الدليل يقوم على خمس مقدمات، هي:

١. اقتضت حكمة الخالق البالغة - كما مرّ في مباحث النبوة - ضرورة إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى سبيل السعادة.

٢. إنّ الرسالة الإسلامية رسالة شاملة وخالدة لا تنسخ، وإنّ النبي الأكرم ﷺ هو خاتم الأنبياء.^١

٣. إنّما ينسجم ختم النبوة مع الحكمة من بعثة الأنبياء عندما تلي الشريعة الخاتمة جميع متطلّبات البشر المادية والمعنوية وتؤمّن بقاءها إلى نهاية العالم.

٤. صحيح إنّ الله تعالى ضمن صيانة القرآن الكريم وحفظه من التحريف والتغيير،^٢ لكن ليس جميع الأحكام والقوانين الإسلامية تستنبط من القرآن، بل القرآن

١. يعدّ هذا الأصل من الأصول الضرورية في الإسلام، فإن أدنى نظرة لآيات الذكر الحكيم تكشف لنا عن شمولية وخلود الدين الإسلامي. فهناك الكثير من الآيات التي تخاطب الناس بقولها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ (البقرة: ٢١؛ النساء: ١٧٤؛ فاطر: ١٥) ويقول تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ (الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٥؛ يس: ٦٠)؛ وجاء في آيات أخرى أنّ الهداية شاملة لجميع البشر (البقرة: ١٨٥، ١٨٧؛ آل عمران: ١٣٨؛ إبراهيم: ١، ٥٢؛ الجاثية: ٢٠؛ الزمر: ٤١؛ النحل: ٤٤؛ الكهف: ٥٤؛ المحشر: ٢١). وأثبت في كثير من الآيات أنّ نبوة النبي للعالمين جميعاً (الأنبياء: ١٠٧؛ الفرقان: ١)؛ وجاء في الآية ١٩ من سورة الأنعام أنّ الدعوة الإسلامية شاملة لكلّ من بلغه القرآن الكريم، فكما أنّ الآيات المذكورة دلّت على عمومية الدين الإسلامي وشموليته بألفاظ خاصّة تدلّ على العموم، من قبيل: بني آدم، الناس والعالمين، كذلك دلّت على نفي محدوديته من خلال الإطلاق الزماني خاصّة في مثل قوله تعالى ﴿يُظَاهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣؛ الصف: ٩). فلم يبق مجال لأدنى شك في شمولية الدين وعموميته وخلوده.

٢. الحجج: ٩: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

في الغالب يشير إلى الخطوط العامة، وأما التفصيل فقد تكفل به النبي الأكرم ﷺ مستعيناً بالعلم الإلهي الذي زوده به تعالى على تبينها وتفسيرها للناس.^١

٥. لم تسمح الظروف الصعبة والعقبات التي وضعت في طريق النبي الأكرم ﷺ بأن يوصل ﷺ جميع الأحكام والقوانين إلى عموم الناس، بل كانت الظروف بنحو من الشدة، بحيث لم يكن ﷺ يضمن للثلة القليلة التي آمنت معه سلامتها وحفظها، من هنا نرى الاختلاف وقع في قضايا لا ينبغي الاختلاف فيها كفضية الاختلاف في كيفية وضوء النبي الذي كان يمارسه عملياً أمامهم في كل يوم أكثر من مرة، بالإضافة إلى كونه من الأمور الابتلائية لسائر المسلمين في كل يوم ولا توجد مصلحة شخصية تدعو للتحريف فيه، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق بالأمور المعقدة أو التي تدعو للتحريف لصلتها بأهواء النفعيين ومنافع الأحزاب والتكتلات؟! لا ريب أنّ التحريف يكون، أخطر وأعمق.^٢

يتضح جلياً من خلال الالتفات إلى المقدمات الخمسة المذكورة أنّ الدين الإسلامي إذا أراد - باعتباره ديناً كاملاً - أن يستجيب لكلّ متطلبات الإنسان إلى نهاية تاريخ البشرية، لا بدّ من أن يرسم طريقاً في نفس المتون الدينية لتأمين المصالح الضرورية للمجتمع، تلك المصالح التي تعرّضت بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ لخطر التهديد والضياح.

ويتمثّل هذا الطريق في نصب الخليفة الجدير واللائق بخلافة الرسول الأكرم ﷺ؛ خليفة يمتلك العلم اللدني حتّى يستطيع من خلاله بيان حقائق الدين بتفاصيلها وأبعادها

١. النحل: ٤٤: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

٢. ذكر العلامة الأميني في كتاب الغدير: ٢٠٨/٥ وما يليها من الصفحات أسماء «٧٠٠» من الوضاعين والكذابين في الحديث، نسب إلى بعضهم أكثر من ألف حديث.

المتنوعة، وكذلك يمتلك ملكة العصمة كي لا يقع فريسة للأهواء النفسية والشیطانية في تحريف الدين عمداً أو سهواً، كذلك يتمكن من القيام بالدور التربوي الذي كان يؤذيه النبي الأكرم ﷺ لإيصال النفوس المستعدة لأعلى مراتب الكمال، كذلك يتمكن - مع توفر الظروف الاجتماعية المناسبة - من التصدي للحكومة وتدير شؤون المجتمع وتفعيل القوانين الاجتماعية الإسلامية لبسط الحق والعدل في الأرض.^١

علم الإمام وعصمته

إن ختم النبوة إنما ينسجم مع الحكمة الإلهية إذا كان مقترناً مع نصب الإمام ﷺ، الإمام الذي يمتلك جميع خصائص نبي الإسلام ﷺ إلاً النبوة. وعلى هذا تثبت ضرورة وجود الإمام ولزوم اتصافه بالعلم الإلهي ومقام العصمة.

نصب الإمام من قبل الله

يمكن القول استناداً إلى ما مرّ، أن الركن الثالث من عقائد الشيعة في مسألة الإمامة يقوم على التسليم بكون نصب الإمام وتعيينه يتم من الله تعالى فقط؛ لأنه تعالى هو الذي يعرف من تتوفر فيه صفات الإمامة من العلم والعصمة؛ وذلك لأن العلم والملكات النفسية من الأمور غير المحسوسة التي لا تخضع لتجربة البشر مباشرة.

وينبغي الالتفات إلى أن العصمة لا تعني مجرد عدم اقتراف الذنب طيلة الحياة، بل تعني كون الإنسان بنحو لا يقترب معه الذنب مهما كانت الظروف والحالات المحيطة به. وهذا ما لا يمكن إحرازه إلا عن طريق الوحي.

كذلك يمكن - إلى حد ما - معرفة مدى علم الإنسان ومعارفه من خلال الرجوع

١. اعتمدنا في تحرير هذه المطالب على الأبحاث القيمة للأستاذ مصباح اليزدي في كتاب تعليم

إلى مؤلفاته وكلماته، لكن لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على هذا الطريق لإثبات صحة جميع ما يقوله وما يصدر عنه.

بالإضافة إلى ما مرّ يمكن إثبات لزوم نصب الإمام من خلال البرهان التالي:
من شؤون الإمامة، الولاية والحكومة وقيادة المجتمع، وهي منحصرة بالله تعالى أصالة. فالولي والحاكم والقائد المطلق هو الله، ووظيفة الإنسان الطاعة والتسليم له. من هنا لا تجوز طاعة الآخرين إلّا من وهبه الله تعالى هذا المقام.

خلاصة البحث

١. الدليل العقلي لضرورة وجود الإمام، هو: (١) اقتضت حكمة الخالق ضرورة إرسال الرسل لهداية الناس. (٢) الرسالة الإسلامية رسالة خالدة لا تتسخ، وأنّ النبي الأكرم ﷺ هو خاتم الأنبياء. (٣) يجب على الشريعة الخاتمة أن تلي جميع مطلّبات البشر وتؤمن بقاءها إلى نهاية العالم. (٤) لم يكن القرآن الكريم بصدد بيان تفاضيل الأحكام والقوانين وأنما إلّاها على عاتق النبي الأكرم ﷺ. (٥) لم تسمح الظروف الصعبة والعقبات التي وضعت في طريق النبي الأكرم ﷺ بأن يوصل جميع الأحكام والقوانين إلى عموم الناس، بل إنّ ما بينه لهم هو الآخر معرض للخطر. يتّضح جلياً من خلال الالتفات إلى المقدمات الخمسة المذكورة أنّ الدين الإسلامي إذا أراد - باعتباره ديناً كاملاً - أن يستجيب لكلّ مطلّبات الإنسان إلى نهاية تاريخ البشرية، لا بدّ من أن يرسم طريقاً في نفس المتون الدينية لتأمين المصالح الضرورية للمجتمع، تلك المصالح التي تعرّضت بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ لخطر التهديد والضيايق. ويتمثّل هذا الطريق في نصب الخليفة الجدير واللائق بخلافة الرسول الأكرم ﷺ.

٢. بالإضافة إلى ما يشته الدليل المذكور من ضرورة وجود الإمام، يثبت أيضاً وجوب العصمة والعلم الإلهي للإمام.

٣. إنَّ الله تعالى هو وحده الذي يعرف من تتوفر فيه تلك الخاصيّة، فيجب أن يكون نصب الإمام وتعيينه منحصرًا بالله لا يشاركه غيره.
٤. الدليل الآخر على لزوم نصب الإمام من قبل الله تعالى: من شؤون الإمامة، الولاية والحكومة وقيادة المجتمع، وهي منحصرة بالله تعالى أصالة. فالولي والحاكم والقائد المطلق هو الله، ووظيفة الإنسان الطاعة والتسليم له. من هنا لا تجوز طاعة الآخرين إلّا من وهبه الله تعالى هذا المقام.

الدرس الثالث

إمامة الإمام علي عليه السلام والأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام

إمامة الإمام علي عليه السلام في القرآن

لم يتعرض القرآن الكريم للتصيص على شخص معين - اسماً ونسباً - في قضية الإمامة، ولعلّ الهدف من وراء اعتماد هذا الأسلوب هو صيانة القرآن الكريم من أن تمسه يد التحريف والتغيير، ولعلّ هناك حكماً أخرى تكمن في هذا الأسلوب لم ندرك كنهها، لكن هناك كليات وردت في آيات متعددة وبصور مختلفة في خصوص إمامة الإمام علي عليه السلام فقام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بتبيينها وتفسيرها بصراحة لا لبس فيها، بحيث لم يبق مجال للترديد والإيهام لطالب الحقيقة.

إنّ الآيات التي دلّت على جدارة الإمام علي عليه السلام لتسّم هذا المنصب كثيرة أنهاها العلامة الحلي في كتابه نهج الحقّ وكشف الصدق إلى ثمان وثمانين آية. تكشف تلك الآيات - استناداً إلى الأحاديث النبوية المفسّرة لها والواردة في الكتب المشهورة عند أهل السنّة - عن أبعاد شخصية الإمام عليه السلام وإمامته.^١

كذلك قام العلامة القاضي سعيد المرعشي في كتاب إحقاق الحقّ بإحصاء أربع

١. نهج الحقّ وكشف الصدق: ١٧٢ - ٢١١.

وتسعين آية أخرى تدلّ على إمامة الإمام عليه السلام استقفاها من سبعة وثلاثين كتاباً من الكتب المعتمدة عند أهل السنة.

ونحن هنا نكتفي بآية واحدة من تلك الآيات الدالة على إمامته عليه السلام:

آية الولاية

يطلق عنوان آية الولاية على الآية الخامسة والخمسين من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

وقد جاء في الكثير من الأحاديث المنقولة عن الفريقين الشيعة والسنة، أن هذه الآية نزلت في شأن الإمام علي عليه السلام، كما أجمع على ذلك المفسرون والمحدثون الشيعة واعترف به الكثير من العلماء السنة، عندما تصدق بخاتمه وهو راعٍ^١.

روى العلامة المرعشي في كتاب *إحقاق الحق* عن خمسة وثلاثين مصنفاً من المصنفات الحديثية والتفسيرية لأهل السنة ما يؤكد بأن الآية نزلت في شأن الإمام علي عليه السلام.

ومع كل هذه الروايات لا يبقى مجال للشك والتردد في كون المراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ هو الإمام علي عليه السلام. نعم، هناك حاجة للخوض في تحديد المراد من «الولي» الوارد في الآية الشريفة.

معنى الولي: الولي، الولاية، الولاء، المولى والأولى، وغير ذلك كلّها مشتقة من مادة «ولي» (و، ل، ي).

وقد استعملت هذه المادة في القرآن كثيراً، منها ١٢٤ مرة كهيئة اسم و١١٢ مرة على هيئة فعل.

المعنى الأصلي للكلمة كما يقول الراغب الإصفهاني في «مفردات القرآن» وابن

١. إحقاق الحق: ٣٩٩/٢ وما يليها.

فارس في مقاييس اللغة: الواو واللام والياء: أصل صحيح يدل على قرب. ^١ بمعنى أن كلمة ولي تستعمل لو حصل شيان بحيث لا توجد بينهما فاصلة كما في قولنا «ولي زيد عمرو» أي اقترن به وقاربه.

إن استعمال الكلمة في موارد من قبيل الصداقة والنصرة والاعتقاد، توكلي الأمر، منطلق من هذه الحثية أيضاً، بمعنى أن جميع الموارد تنطوي على قرب واتصال ومباشرة، ولكي نحدد المعنى المقصود لا بد من البحث عن القرائن الموجودة في الكلام.

يتضح من خلال ما ذكر أن المراد من كلمة الولي الواردة في آية الولاية: إن أشد الموجودات قرباً للمسلمين هو الله والرسول وعلي عليه السلام.

ومن الواضح جداً أن المراد من القرب هنا هو القرب المعنوي لا المادي. ولازم هذا القرب المعنوي، نيابة الولي في جميع شؤون الموكلي عليه القابلة للنيابة. وعلى هذا الأساس، أن جميع التصرفات التي يمكن أن يقوم بها الشخص وتكون قابلة للنيابة يمكن للولي النيابة فيها. من هنا استعملت كلمة الولاية بمعنى المتصدي وصاحب الاختيار. ^٢

وواضح أن الله تعالى ولي عباده في تدبير شؤونهم الدنيوية والأخروية وولي أمر المؤمنين في تدبير أمر دينهم ودعوتهم وهدايتهم نحو الكمال، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو ولي

١. مقاييس اللغة: ١٤١/٦: مفردات غريب القرآن: مادة «ولي» الوَلَاءُ والتَّوَلَّى: أن يَحْصُلَ شَيْئَانِ فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهم.

٢. قال الراغب الإصفهاني في مفردات غريب القرآن: والْوَلَايَةُ النُّصْرَةُ، والْوَلَايَةُ: تَوَكَّلِي الأمر، وقيل: الْوَلَايَةُ وَالْوَلَايَةُ نَحْو: الدَّلَالَةِ وَالذَّلَالَةِ، وحقيقته: تَوَكَّلِي الأمر. والْوَلِيُّ وَالْمَوْكَلَّى يستعملان في ذلك كل واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل. أي: المُوَالِي، وفي معنى المفعول. أي: المُوَالِي. قال الطبرسي في مجمع البيان، ذيل الآية ٢٥٧ من سورة البقرة: الولي، من الولي وهو القرب من غير فصل. وهو الذي يكون أولى بالغير من غيره وأحق بتدبيره. ومنه الوالي؛ لأنه يلي القوم بالتدبير بالأمر والنهي. ومنه المولي من فوق؛ لأنه يلي أمر العبد بسد الخلة. ويقول ابن فارس في المقاييس أيضاً: ١٤١/٦: وكل من ولي أمر آخر فهو وليه.

المؤمنين أيضاً بيعث وإذن من الله تعالى. فتحصل أن ولاية علي عليه السلام المذكورة في الآية تحمل نفس مفهوم الولاية الأصلي ولازم ذلك أن الإمام يكون هو الأولي بالتصرف بالمال والنفس والعرض والدين.^١

تأويل أهل السنة

إن أكثر علماء أهل السنة يسمون بأن آية الولاية نازلة في شأن علي عليه السلام، حتى أن الزمخشري في تفسيره/الكشاف يجب عن الإشكال الوارد حول السبب في استعمال كلمة «الذين» بصيغة الجمع إذا كان المراد منها علياً عليه السلام وهو مفرد:

فإن قلت: كيف صح أن يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً، ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه، ولينه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية.^٢

يقول الفخر الرازي في تفسير الآية:

تظاهرت الروايات على أن هذه الآية نزلت في حق علي عليه السلام، وأجمعوا على أن إتياء الزكاة حال الركوع لم يكن إلّا في حق علي عليه السلام.^٣ ونقل السيوطي في الدر المنثور ذيل الآية المذكورة، عدداً من الروايات التي تؤكد جميعها أن الآية المباركة نزلت في علي عليه السلام.

ثم إن أقصى ما سعى إليه علماء أهل السنة هو محاولة توجيه الآية بنحو ينسجم مع مبانيهم الفكرية والعقائدية، حيث قالوا: إن المراد من كلمة «الولي» المحب، لا الأولي بالتصرف والاختيار.

١. راجع: /إمام شناسي، العلامة محمد الحسيني الطهراني: ١٩٩/٥ - ٢٦٥؛ المراجعات: المراجعة ٣٨؛

مجموعة الآثار: ٢٦٨/٣ - ٢٨٩.

٢. الكشاف: ٥٠٥/١.

٣. التفسير الكبير: ٣٠/١٢.

لكن هذا التوجيه - إضافة إلى ما مرّ - لا ينسجم مع الحصر الوارد في الآية؛ لأنّ معنى ذلك نفى وصف الحبّ عن غير الله تعالى ورسوله وعلي عليه السلام!

إمامة الإمام علي عليه السلام في السّنة

هناك الكثير من الروايات الصادرة عن النبي الأكرم عليه السلام في مصادر الفريقين تدلّ على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته من بعده عليه السلام.

تكشف تلك الروايات عن مدى اهتمام النبي الأكرم عليه السلام بقضية الإمامة، وأنه عليه السلام منذ السنوات الأولى للرسالة المباركة كان مأموراً من قبل الباري تعالى في إبلاغ هذا الأمر الخطير للمسلمين، وكان عليه السلام دائماً يستغل كل مناسبة لإبلاغه وإيصاله إلى مسامع الناس.

وبما أنّ استعراض كلّ تلك الروايات يحتاج إلى مصنّف خاص ولايسع المجال هنا للتعرّض إليها نحاول أن ندرس رواية واحدة تتصل بواقعة غدير خم دراسة مفصلة، ثمّ نلحقها ببعض الروايات:

حديث الغدير

حديث الغدير يتعلّق بحادثة وقعت في أواخر عمر النبي الأكرم عليه السلام عند عودته من حجّه الأخير، في مكان يقال له: «غدير خم» وهو مكان التي تشعب منه طرق الحجاج المدنيين والمصريين والعراقيين.

ولقد تعرّض المؤرخون وأصحاب الحديث لبيان واقعة الغدير ومجرياتها، حيث قالوا: أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الخروج إلى الحجّ في السنة العاشرة من الهجرة، فقدم معه خلق كثير لأداء مراسم الحجّ، تلك الحجّة التي سمّيت بحجّة الوداع، فلما قضى مناسكه وانصرف، راجعاً إلى المدينة، ومعه من كان من الجموع المذكورة، ووصل

إلى منطقة رابغ علي بعد ثلاثة أميال من الجحفة،^١ نزل جبرئيل الأمين في منطقة يقال لها: غدير خم، وبقوله عن الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.^٢

فأمر رسول الله ﷺ أن يرد من تقدّم منهم، ويحبس من تأخر عنهم، حتّى إذا أخذ القوم منازلهم، نودي بالصلاة، صلاة الظهر، فصلّى بالناس جماعة، وكان يوماً شديد الحرارة، فلما انصرف من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أكتاف الإبل التي صنعت له، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته، فقال:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضل ولا مضل لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد أيها الناس، ألا وإنّي أوشك أن أفارقكم وإنّي مسؤول وإنكم مسؤولون فما أنتم قائلون؟

فقام من كلّ ناحية مجيب يقولون: نشهد أنك عبد الله ورسوله وأنتك قد بلغت رسالاته وجاهدت في سبيله وصدعت فجزاك الله خير ما جازي نبياً عن أمته.

قال: ألسنتم تشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حقّ والنار حقّ والبعث بعد الموت حقّ؟ قالوا: بلى.

قال: فإنّي فرط على الخوض، فانظروني كيف تخلفوني في الثقلين.

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر، عترتي، وإن اللطيف الخبير

١. الجحفة أحد مواقيت الإحرام تشعب منها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين.

٢. المائدة: ٦٧.

تَبَأْنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلِيَّ الْحَوْضَ، فَلَا تَقْدَمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا، وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُمَا فَتَهْلِكُوا.

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَرَفَعَهَا، حَتَّى رَوَى بَيَاضَ آبَاطِهِمَا، وَعَرَفَهُ الْقَوْمُ أَجْمَعُونَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مَوْلَايَ، وَأَنَا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَا أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ.

ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادْ مَنْ عَادَاهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّه وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ، وَانْصِرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدْرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ.

دراسة سند الحديث

حديث الغدير من الأحاديث المعروفة لدى المسلمين وقد نقله كل من الفريقين بطرق وأسانيد متعددة واذعنوا بتواتره، كذلك بحثه بصورة مستقلة - فضلاً عن علماء الشيعة - كثير من كبار علماء أهل السنة، كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠هـ ق) وأبي العباس أحمد بن أحمد بن سعيد الهمداني (المتوفى ٣٣٣هـ ق) وأبي بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمي البغدادي (المتوفى ٣٥٥هـ ق) وغيرهم.^١

ولكي يتضح مدى اهتمام التابعين وتابعي التابعين والعلماء والفقهاء، بنقل هذا الحديث وضبط أسانيدته، نشير هنا إلى عدد رواياته من أهل السنة في كل قرن بصورة مختصرة ونحيل التفصيل فيه إلى الموسوعات التي صُنِّفَتْ في هذا المجال. فالذين نقلوا الحديث هم:

١. مئة وعشرة من الصحابة.

١. ذكر العلامة الأميني في كتاب موسوعة الغدير: ١٥٢/١ - ١٥٧ أسماء الذين صنفوا في الغدير مع بيان خصوصيات تلك المصنفات.

٢. أربعة وثمانون من التابعين.
 ٣. ستة وخمسون عالماً من علماء القرن الثاني.
 ٤. اثنان وتسعون من علماء القرن الثالث.
 ٥. ثلاثة وأربعون من علماء القرن الرابع.
 ٦. أربعة وعشرون من علماء القرن الخامس.
 ٧. عشرون من علماء القرن السادس.
 ٨. عشرون من علماء القرن السابع.
 ٩. تسعة عشر عالماً من علماء القرن الثامن.
 ١٠. ستة عشر عالماً من علماء القرن التاسع.
 ١١. أربعة عشر عالماً من علماء القرن العاشر.
 ١٢. اثنا عشر عالماً من علماء القرن الحادي عشر.
 ١٣. ثلاثة عشر عالماً من علماء القرن الثاني عشر.
 ١٤. اثنا عشر عالماً من علماء القرن الثالث عشر.
 ١٥. تسعة عشر عالماً من علماء القرن الرابع عشر.
- ونقله من المحدثين الكبار، أحمد بن حنبل الشيباني بأربعين سنداً، ابن حجر العسقلاني بخسمة وعشرين سنداً، الجزري الشافعي بثمانين سنداً، أبو سعيد السجستاني بمئة وعشرين سنداً، أمير محمد اليمني بأربعين سنداً، النسائي بمئتين وخمسين سنداً، أبو العلاء الهمداني بمئة سند، وأبو العرفان حبان بثلاثين سنداً.^١

١. اعتمدنا في الإحصائيات المذكورة على المجلد الأول من كتاب الغدير للعلامة الأميني (المتوفى ١٣٩٠ هـ) وللعلماء الشيعة مصنفات كثيرة في حديث الغدير سنده ودلالته، بالإضافة إلى موسوعة الغدير المعروفة، منها: غاية المرام، تأليف العلامة السيد هاشم البحراني (المتوفى ١١٠٧ هـ) وعقبات الانوار، تأليف السيد مير حامد حسين الهندي (المتوفى ١٣٠٦ هـ).

أتضح من خلال ما ذكرنا أن واقعة الغدير وخطبة النبي الأكرم عليه السلام في ذلك اليوم من مسلمات التاريخ الإسلامي التي لا يمكن التشكيك فيها ومن شكك فيها فلا بد أن يشكك في كل الوقائع التاريخية الأخرى.

دلالة حديث الغدير

النقطة المحورية في هذا الحديث قوله عليه السلام: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه». المقصود من المولى في هذا الحديث الشريف - ومن خلال القرائن الكثيرة الحافة به - هو الأولي بالتصرف. فيكون الحديث دالاً على أن علياً عليه السلام ولي المؤمنين بعد النبي الأكرم عليه السلام وأنه أولى بهم من أنفسهم. ومن هذه القرائن:

١. قوله عليه السلام في بداية الحديث: «أست أولى بكم من أنفسكم؟» وبعد أن أخذ الإقرار منهم أردفها بقوله: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه»، فالتسويق بين العبارتين يوجب اتحاد المعنى المقصود من «المولي» فيهما وهو «الأولي بالتصرف».

٢. ختم النبي عليه السلام خطبته بقوله: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وهذا الدعاء يكشف عن عظمة المنصب الذي تسنمه وحظي به علي عليه السلام وليس هو إلّا مقام الزعامة والولاية.

٣. أخذ النبي الأكرم عليه السلام من الناس الإقرار بالشهادة، ثم أورد بعده عبارة «من كنت مولاه» في سياق الشهادة بوحداية الله ورسالة النبي عليه السلام. ولا يصح السياق كاملاً إلّا إذا كان المبين في هذه العبارة يحمل نفس القيمة التي تحملها المفردات السابقة عليها.

٤. بعد أن أنهى النبي الأكرم عليه السلام كلامه وقبل أن يفرق المسلمون نزل جبرئيل على النبي عليه السلام بقوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...» عندها قال الرسول الأكرم عليه السلام: «الله أكبر على إكمال الدين وتمام النعمة ورضا الرب برسالي والولاية

لعلي من بعدي». فهل يمكن أن نتصور شيئاً يكمل الدين به وتتم به النعم، ويكون قريناً لرسالة النبي الأكرم ﷺ، غير إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؟
وهناك قرائن أخرى تدلّ على عظمة وأهمية القضية التي أمر النبي الأكرم ﷺ بتليغها إلى الناس.^١

إطلالة على روايات أخرى

١. لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.^٢
أمر رسول الله ﷺ أن يصنع له طعام، وجمع بني عبد المطلب، فقال لهم:
أبكم يوازرني ويعيتني فيكون أخي وخلفتي ووصي من بعدي؟
فاجمع القوم، فقال علي عليه السلام: أنا أبايك وأواذك.
فقال ﷺ:
- هذا أخي ووصي وخلفتي من بعدي ووارثي فاسمعوا له وأطيعوا.^٣
٢. لما هاجر النبي الأكرم ﷺ إلى المدينة، آخى بين الصحابة ولم يتخلف سوى علي عليه السلام فقال: يا رسول الله آخيت بين الصحابة دوني.
فقال له ﷺ: ألم ترض أن تكون أخي وخلفتي من بعدي؟ وأخي بينه وبينه.
٣. هناك الكثير من الروايات التي تؤكد أن النبي الأكرم ﷺ طلب من الصحابة التسليم على علي عليه السلام بإمرة المؤمنين:
سَلِّمُوا عَلَى عَلِيٍّ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ^٤

١. لمزيد الاطلاع على هذه القرائن راجع: الغدير: ٣٧٠/١ - ٣٨٣.

٢. الشعراء: ٢١٤.

٣. راجع: العمدة لابن بطريق: ١٢١ - ١٢٢ و ١٣٣ - ١٣٤؛ غاية المرام: ٣٢٠؛ شواهد التنزيل: ٤٢٠/١؛

الغدير: ٢٧٨/٢ - ٢٧٩.

٤. الكافي: ٢٩٢/١، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين ٢٩٢.

٤. ورد في روايات كثيرة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاطب علياً عليه السلام بقوله:

أنت سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين.^١

خاطبه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

هذا ولي كل مؤمن ومؤمنة.^٢

٥. نقل متواتراً عن طريق الفريقين أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خاطب علياً عليه السلام بقوله:

أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لاني بعدي.^٣

وهذا يعني أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد اعتبر منزلة علي عليه السلام منه على غرار منزلة

هارون من موسى عليه السلام، بما فيها الوصية والخلافة، ولم يستثن من منازل ومراتب هارون من موسى إلا النبوة.

إمامة سائر الأئمة عليهم السلام

بين النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إمامة سائر الأئمة بعبارات شتى، ويمكن تصنيف الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال إلى ست طوائف:

١. جاء في الطائفة الأولى عناوين من قبيل: أهل البيت، العترة، الذرية، وذوي

القربي. كذلك بينت الصفات الكلية للأئمة من ولد فاطمة الزهراء عليها السلام المؤهلين لهذا

المنصب الإلهي. والروايات في هذا الصدد كثيرة نقلتها كتب الصحاح والجوامع

الحديثية لأهل السنة، وكذلك ذكرت بالتفصيل في المصادر الشيعية مثل: عبقات

الأنوار، الغدير، المراجعات، وإحقاق الحق.

٢. الطائفة الثانية التي تعرضت للحديث عن انتقال الإمامة إلى الإمام الحسن عليه السلام

١. العمدة: ٢١٥ - ٢٢٣؛ الغدير: ١١٢/٣ - ١٢٤.

٢. راجع: مناقب المغازلي: ٦٥ - ٦٦.

٣. العمدة: ١٧٣ - ١٨٥؛ مسند أحمد: ٣٢/٣؛ الغدير: ٥١/١ و ١٩٧/٣ - ٢٠١.

والإمام الحسين عليه السلام. وقد ذكر صاحب كتاب إحقاق الحقّ قسماً من تلك الروايات في المجلد التاسع عشر من الكتاب.

٣. الطائفة الثالثة، وهي التي حصرت عدد الأئمة في اثني عشر إماماً دون التعرّض لذكر أسمائهم بصراحة. وقد تجاوز عددها مئة وثلاثين رواية بالإضافة إلى أربعين رواية في نفس المضمون، حيث بينت أنّ الأئمة وخلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله بعدد نقباء بني إسرائيل.^١

٤. الطائفة الرابعة، هي الطائفة التي تعرّضت - في ضمن بيان عدد الأئمة - للإشارة إلى ذكر اسم أولهم وآخرهم. وذكر في أربع وتسعين رواية أخرى ذكر آخرهم عليه السلام فقط.^٢

٥. الطائفة الخامسة، جاء في ١٣٩ رواية، إنّ عدد الأئمة اثنا عشر إماماً مصرحة بأنّ تسعة منهم من ذرية الإمام الحسين عليه السلام. وفي مئة وسبع روايات ذكر اسم آخرهم عليه السلام.^٣

٦. الطائفة السادسة التي تعرّضت لذكر أسمائهم عليهم السلام بنحو مفصل، مجموع تلك الروايات خمسون رواية. نشير إلى واحدة منها كنموذج:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن قوله يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ عليه السلام عرفنا الله ورسوله فمن أولي الأمر؟ قال: هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين بعدي أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام ثمّ الحسن، ثمّ الحسين ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ علي بن موسى، ثمّ محمد بن علي، ثمّ علي

١. راجع: منتخب الأئمة، لطف الله الصافي: ١٠ - ٥٨.

٢. المصدر: ٥٨ - ٦٤.

٣. المصدر: ٦٥ - ٩٦.

٤. النساء، ٥٥.

بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سمّي وكنّي حُجَّةَ اللَّهِ في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي الذي يفتح الله على يده مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته غيبة لا يثبت على القول في إمامته إلّا من امتحن الله قلبه بالإيمان.^١

الأئمة الاثنا عشر في روايات أهل السنة

من المناسب هنا الإشارة إلى بعض الروايات التي وردت في كتب أهل السنة المعتمدة والتي تعرّضت للحديث عن خلفاء النبي الأئمة الاثني عشر:

١. أخرج البخاري، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: كلّهم من قريش.^٢

٢. روي مسلم عن، جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلّهم من قريش.^٣

٣. وروى مسلم، عن جابر بن سمرة، قال: دخلت مع أبي علي النبي ﷺ فسمعتة يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، ثم تكلم بكلام خفي عليّ قال: فقلت لأبي ما قال؟ قال: قال كلّهم من قريش.^٤ وروى مسلم، عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش.^٥

١. منتخب الأثر: ١٠١.

٢. صحيح البخاري: ٨١/٩.

٣. صحيح مسلم: ٣/٦.

٤. المصدر.

٥. المصدر، لمزيد الاطلاع راجع: مسند أحمد: ٨٦، ٨٩، ٩٧، ١٠٧؛ منتخب الأثر: ١٦؛ تنبيه المودة: ٤٤٦.

خلاصة البحث

١. لم يتعرض القرآن الكريم للتنصيب على شخص معين في قضية الإمامة. ولعلّ الهدف من وراء اعتماد هذا الأسلوب هو صيانة القرآن الكريم من التحريف، لكن هناك كليات وردت في آيات متعددة وبصور مختلفة في خصوص إمامة الإمام علي عليه السلام قام النبي الأكرم ﷺ بتبيينها وتفسيرها بصراحة لا لبس فيها، بحيث لم يبق مجال للتريد والإبهام.

٢. أكدت الأحاديث الكثيرة المنقولة عن الفريقين الشيعة والسنة، أن الآية الخامسة والخمسين من سورة المائدة نزلت في شأن الإمام علي عليه السلام.

٣. المعنى الأصلي لكلمة «الولي» القرب بين الشئيين بدون فاصلة، وأن استعمال الكلمة في موارد من قبيل الصداقة والنصرة والاعتقاد، تولي الأمر، منطلق من هذه الحثية أيضاً.

٤. القرب نوعان، مادي ومعنوي، ومن الواضح جداً أن المراد من القرب في الآية هو القرب المعنوي لا المادي. ولازم هذا القرب المعنوي، نيابة الولي في جميع شؤون المولى عليه القابلة للنباية.

٥. ورد في صدر آية الولاية، ولاية الله ورسوله، ويعد هذا قرينة أخرى على أن الولي في الآية يراد به نفس المعنى الأصلي، ولازمه أولوية التصرف في الأنفس والأموال والأعراض والدين.

٦. إن أكثر علماء أهل السنة يسلمون بأن آية الولاية نازلة في شأن علي عليه السلام، لكنهم قالوا: إن المراد من كلمة «الولي» المحب، لا الأولى بالتصرف والاختيار، لكن هذا التوجيه لا ينسجم مع الحصر الوارد في الآية؛ لأن معنى ذلك نفي وصف الحب عن غير الله تعالى ورسوله وعلي عليه السلام!

إمامة الإمام علي عليه السلام والأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام ٢٠٩

٧. ورد في حديث الغدير المتواتر لدى الفريقين أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم. فمن كنت مولاه فعلي مولاه.

٨. هناك قرائن كثيرة تدلّ على أنّ المراد من الولي «هو الأولي بالتصرف». فيكون الحديث دالّاً على أنّ علياً عليه السلام ولي المؤمنين بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّه أولى بهم من أنفسهم. منها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الحديث: ألسن أولى بكم من أنفسكم؟ وبعد أن أخذ الإقرار منهم أردفها بالدعاء لعلي وهو يكشف عن عظمة المنصب الذي تسنمه علي عليه السلام، وكذلك مجيء عبارة: «من كنت مولاه» في سياق الشهادة بوحداية الله ورسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ نزول جبرئيل عليه السلام بآية إكمال الدين وإتمام النعمة.

الدرس الرابع

الإمام الثاني عشر عليه السلام

كما مرّ سابقاً، هناك روايات كثيرة تدلّ على أنّ عدد الأئمة الذين يتناوبون على خلافة رسول الله ﷺ ويحملون لواء الهداية للبشرية، اثنا عشر إماماً، تصدّى منهم بالفعل أحد عشر إماماً وأدوا وظيفتهم الإلهية في الدفاع عن الدين وقيمه في أحلك الظروف وأصعب المواقف التي خلقها الطواغيت وسلاطين الجور، حتّى رحلوا عليه إلى الرفيق الأعلى شهداء في سبيل الدين والعقيدة.

بعد شهادة الإمام الحادي عشر (سنة ٢٦٠هـ) بدأت إمامة الامام الثاني عشر من الأئمة المعصومين عليه السلام، الحجة المهدي عليه السلام، ومازالت مستمرة حتّى هذه اللحظة وستستمر إلى ما شاء الله تعالى الأمر الذي يقتضي التركيز على إمامته عليه السلام وتوضيح الكثير من الحقائق ذات الصلة بإمامته.

ولد الإمام المهدي وحجة الله في النصف في شعبان سنة ٢٥٥هـ في مدينة سامراء. اسمه «م ح م د» وكنيته كنية النبي الأكرم ﷺ أبو القاسم^١.

١. وقع الاختلاف بين علماء الشيعة في بيان الروايات الناهية عن ذكر اسمه عليه السلام فذهب فريق منهم إلى كون المنع سياسياً يتعلّق بعصر الغيبة الصغرى فقط، وهناك فريق آخر من العلماء ذهب إلى أنّ المنع يشمل جميع الأعصار ولا يخصّ بالغيبة الصغرى فقط. (للاطلاع على تلك الآراء راجع: النجم الثاقب: الباب ٢/٤٨٠٤٩).

من ألقابه عليه السلام: الحجة، القائم، ولي العصر، الخلف الصالح، صاحب الزمان، بقية الله، وأشهرها المهدي.

للإمام المهدي عليه السلام غيبتان: صغرى وكبرى، بدأت الغيبة الصغرى منذ ولادته عليه السلام وانتهت سنة ٣٢٩ هـ ق، بعدها بدأت الغيبة الكبرى منذ ذلك العام ومازالت مستمرة حتى يأذن الله تعالى بظهوره عليه السلام.

البشارات بظهوره عليه السلام في الأحاديث النبوية

وردت في مصادر الفريقين - الشيعة والسنة - روايات متواترة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مفادها أنه عليه السلام بشر بظهور مصلح في آخر الزمان اسمه المهدي يزيح الجهل عن كاهل البشرية ويبسط مكانهما العلم والعدل، ويمكن الأمر لحكومة الدين في الأرض وإن كره المشركون.

من تلك الروايات:

لَوْلَمْ يبقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا بَعْدَ أَنْ مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجورًا.^١

ونظراً لأهمية الإحصاءات والأرقام نرى من الضرورة الإشارة إلى عدد الروايات الواردة في خصوص الإمام المهدي عليه السلام من طرق الفريقين: وها نحن نأتي في المقام بفهرس الروايات التي رواها السنة والشيعة، فنقول:

١. الروايات التي تبشّر بظهوره (٦٥٧) رواية.

٢. الروايات التي تصفه بأنه من أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (٣٨٩) رواية.

٣. الروايات التي تدلّ على أنه من أولاد الإمام علي عليه السلام (٢١٤) رواية.

٤. الروايات التي تدلّ على أنه من أولاد فاطمة عليها السلام بنت النبي (١٩٢) رواية.

١. راجع: مسند أحمد بن حنبل: ٩٩/١ و ١٧/٣ و ٧٠.

٥. الروايات التي تدلّ على أنه التاسع من أولاد الحسين عليه السلام (١٤٨) رواية.
٦. الروايات التي تدلّ على أنه من أولاد الإمام زين العابدين عليه السلام (١٨٥) رواية.
٧. الروايات التي تدلّ على أنه ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام (١٤٦) رواية.
٨. الروايات التي تدلّ على أنه يملأ العالم قسطاً وعدلاً (١٣٢) رواية.
٩. الروايات التي تدلّ على أن للإمام المهدي غيبة طويلة (٩١) رواية.
١٠. الروايات التي تدلّ على أنه يعمر عمراً طويلاً (٣١٨) رواية.
١١. الروايات التي تدلّ على أنه الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت (١٣٦) رواية.^١

الإمام المهدي عند أهل السنة

لقد كان تواتر روايات الإمام المهدي عليه السلام بحثاً من الواضوح حتى صرح الكثير من علماء أهل السنة به، منهم:

العلامة الشوكاني في التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح، الحافظ أبو عبد الله الكنجي الشافعي (ت ٦٥٨ هـ) في البيان في أخبار صاحب الزمان، الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) في فتح الباري.^٢

من هنا لا يعتبر الاعتقاد بظهور الإمام المهدي عليه السلام من مختصات الفكر الشيعي، بل هو من معتقدات عموم أهل السنة أيضاً مع فارق واحد هو أن الكثير منهم لا يعتقدون بولادته فعلاً. حتى الوهابية التي لا يخفى عداؤها للشيعية على أحد لم تستطع إنكار هذه الحقيقة. فقد جاء في البيان الصادر عن رابطة العالم الإسلامي عام ١٩٧٦ م:^٣

١. نقلاً عن الألفيات للشيخ السبحاني: ١٣٣/٤ - ١٣٤.

٢. لمزيد التحقيق راجع: آية الله صافي، نويد أمن وأمان، فقد توصل في تحقيقه إلى أن سبعة عشر عالماً من كبار علماء أهل السنة صرحوا بتواتر الأحاديث الواردة في خصوص الإمام المهدي عليه السلام.

٣. تعذّر رابطة العالم الإسلامي من أكبر مراكز الوهابية ومقرّها في مكة المكرمة. وقد أصدرت البيان المذكور رداً على سؤال حول ظهور الإمام مذيّل بتوقيع من المدير العام.

حينما يظهر الفساد في العالم وينتشر الكفر والظلم، يملأ الله الأرض بواسطته (المهدي) عدلاً وقسطاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً، وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر النبي الأكرم عنهم في الصحاح. والأخبار الواردة عن المهدي كثيرة جداً رواها الكثير من الصحابة منهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف ...^١

كذلك هناك الكثير من العلماء من غير الشيعة صنفوا كتباً مستقلة حول ظهور الإمام المهدي، منهم: أبو نعيم، أخبار المهدي؛ ابن حجر الهيتمي، القول المختصر في علامات المهدي المنتظر وإدريس عراقي المغربي، المهدي.

سرّ غيبة الإمام المهدي عليه السلام

لاكتشاف هذا السرّ لابدّ من أن نلقي إطلاقة على تاريخ الأئمة الأطهار بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ بايع أكثر الناس الخليفة الأول أبا بكر، ثمّ عمر، ومن بعدهما بايعوا عثمان كخليفة ثالث للمسلمين. وفي عصره ضج الناس من الظلم الحكومي وعدم كفاءة المتصدّين لإدارة شؤون الدولة فناروا ضد عثمان، الأمر الذي انجر إلى قتله. بعدها بايع الناس الإمام علياً عليه السلام، لكن لم يسمح للإمام التصدي للحكومة أكثر من أربع سنوات وعدّة أشهر تخللتها ثلاث حروب كبرى تصدّى فيها لأصحاب الجمل في معركة الجمل، ومعاوية في صفين، والخوارج في النهروان، حتّى استشهد عليه السلام علي يد أحد الخوارج.

بعد ذلك استشهد الإمام الحسن عليه السلام مسموماً على يد معاوية، وبعد شهادته نصب معاوية ابنه يزيد المعروف بتعاطية الخمر وانتهاك حرمة الشريعة، حاكماً على المسلمين. وهكذا أخذ المجتمع الإسلامي ينحرف رويداً رويداً عن سنة النبي الأكرم ﷺ ويتجه بالاتجاه الذي ليس فيه للإسلام اسم ولا رسم. من هنا انتفض الإمام الحسين عليه السلام

١. ذكر في هذا القسم أسماء عشرين من صحابة رسول الله ﷺ، لم نذكرهم روماً للاختصار (سيره يشوايان، مهدي يشوايي: ٧٠١-٧٠٣).

بوجه هذا الوضع المتردي فقدم نفسه الزكية شهيداً في سبيل الدين هو واثنا وسبعون من أهله وأنصاره رضوان الله عليهم، فاستطاع بهذا الشهادة أن يعيد للأمة كرامتها ويجعلها تعود إلى رشدها، واستطاع أن يحفظ الإسلام من خطر الاندثار، لكن الشروط الاجتماعية لم تكن متوفرة لإقامة حكومة إسلامية. من هنا نرى سائر الأئمة انتهجوا منهجاً فكرياً ثقافياً فقاموا بتربية وتعليم وتهذيب الكثير من النفوس المستعدة، وقاموا بنشر المعارف والأحكام الإسلامية الحقّة، في نفس الوقت كانوا يسعون - بالمقدار الذي تسمح به الظروف - إلى حث الناس على الثورة والقيام ضد الطواغيت وزرع بذور الأمل في نفوس الناس بإقامة الحكومة الإلهية وكان مصيرهم عليه السلام الشهادة واحداً تلو الآخر.

وكانت ثمرة قرنين ونصف من السعي الجاد والحديث لهؤلاء القادة الإلهيين انتشار المعارف والأحكام الدينية في المجتمع الإسلامي وتجاوز الإسلام مرحلة خطورة الاندثار والزوال.

لكن الذي أربع السلطة في ذلك الوقت أكثر من كل شيء، الوعد بظهور الإمام المهدي عليه السلام، ذلك الموعد الذي بظهوره يعم العدل والقسط في رباع المعمورة وتقلع جذور الظلم والطغيان. من هنا نرى الحكام المعاصرين للإمام الحسن العسكري عليه السلام وضعوا الإمام تحت الرقابة الشديدة يرصدون ولادة ابنه الموعد ليقتلوه.

لقد أشرقت الأرض بنور الإمام وشاء الله تعالى أن يصونه من كيد الأعداء ليدخرة من أجل نجاة البشرية. ولهذا بقي أمره في طي الكتمان حتى أنه لم يعلم بولادته من أصحاب الإمام العسكري طيلة السنوات الخمس التي قضاها مع أبيه إلا بعض الشيعة. وبعد وفاة الإمام العسكري عليه السلام كان الواسطة بينه وبين عامة الناس نوابه الخاصين (عثمان بن سعيد العمري، محمد بن عثمان بن سعيد، الحسين بن روح النوبختي، وعلي بن محمد السمری) بعدها بدأت مرحلة الغيبة الكبرى إلى اليوم الذي تأهل البشرية لقبول حكومة العدل الإلهي العالمية فيظهر بأمر الله تعالى.

انطلاقاً من هذا يمكن معرفة السر الأساس وراء غيبته حفظ حياته من شرّ الظالمين؛ لأجل تحقيق أهداف الإسلام وقيمه العالية.

وهذا ما أشارت إليه الروايات أيضاً، روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إنّ للغلام غيبة قبل أن يقوم. قال: قلتُ ولم؟ قال: يخاف.^١

بطبيعة الحال هناك حكم آخر وراء غيبة الإمام عليه السلام، كما أشارت إلى ذلك الروايات، منها اختبار الأمة وتمحيصها، فقد روى عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال:

إذا فقد الخامس من ولد السابع قاله الله وعليكم في أديانكم لا يزيلكم أحد عنها يَابُنِي إِنَّهُ لَا بُدَّ إِنَّهُ لَا بَدَّ لَصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْبَةٍ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنْ كَانَ يَقُولُ بِهِ، إِنَّمَا هِيَ مُحَنَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ امْتَحَنَ بِهَا خَلْقَهُ.^٢

فوائد وجود الإمام في عصر الغيبة

كما مر سابقاً أنّ الروايات الكثيرة الواردة عن النبي الأكرم عليه السلام والأئمة الأطهار عليهم السلام أشارت إلى غيبة الإمام، وفورت الأرضية لإثارة السؤال التالي: ما الفائدة من وجود الإمام في عصر الغيبة؟ نشير هنا إلى نموذج من الإجابات الصادرة عن النبي الأكرم عليه السلام وأئمة الهدى عليهم السلام في هذا المجال:

عن جابر الأنصاري أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هل ينتفع الشيعة بالقائم عليه السلام في غيبته؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إي والذي بعثني بالنبوة إنهم ليتفعون به ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن جُلَّ لها السحاب.^٣

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

١. الكافي: ٣٣٧/١؛ منتخب الأثر: ٢٦٩.

٢. الكافي: ٣٣٧/١؛ بحار الأنوار: ١٥٠/٥١.

٣. راجع: تعليم العقائد: ٢٠٨/٢ - ٢١٠.

٤. بحار الأنوار: ٩٣/٥٢، ٢٥٠/٣٦.

لم تَحُلْ الأرضُ منذ خلق الله آدمَ من حَجَّةٍ لَهِ فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تَحُلُوْا إلى أن تقوم الساعةُ من حَجَّةٍ لَهِ فيها، ولولا ذلك لم يُعْبَدِ الله. قال الرواي: فقلتُ لِلصَّادِقِ عليه السلام: فكيف ينتفعُ الناسُ بِالْحَجَّةِ الْغَائِبِ المستور؟ قال: كما ينتفعون بِالشَّمْسِ إذا سترها السَّحَابُ.^١

وهذا التشبيه الوارد في روايات أخرى أيضاً واضح جداً. فالشمس وراء السحاب لا ترى لكنها موجودة، تمنح الأرض الدفء والنور، وهما عنصران أساسيان في حياة النباتات والحيوانات. هكذا الإمام المهدي عليه السلام موجود في عصر الغيبة يحيا كسائر الناس ويعيش في أوساطنا لكننا لانراه، معنا لكننا غافلون عنه ولوجوده بركات جمّة وفيوضات عظيمة.

فقد شبه الإمام في روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام بأنّه قلب العالم وأنّ قطب الرّحا ومركز العالم، ومن دونه لا تبقى السماوات والأرض. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت.^٢

وعن الإمام زين العابدين:

نحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض، إلّا ياذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها.^٣

كذلك هناك الكثير من الناس - وإن كانوا مجهولين - التقوا بالإمام في زمن الغيبة ففضى لهم الإمام حاجاتهم المادية والمعنوية.

أضف إلى ذلك أنّ نفس وجوده المبارك يبعث على الشعور بالأمن والاستقرار

١. المصدر: ٩٢/٥٢.

٢. الكافي: ١٧٩/١.

٣. الأملاني: ١١٢/المجلس ٣٥. إكمال الدين: ٢٠٧/الباب ٢١، الحديث ٢٢.

والحيوية لدى المؤمنين، ويعتدّ عاملاً فاعلاً في تحريك الناس نحو الإعداد الروحي والاستعداد لاستقباله ﷺ.

خلاصة البحث

١. ولد الإمام المهدي ﷺ سنة ٢٥٥هـ وبدأت إمامته عام ٢٦٠هـ وما زالت مستمرة.
٢. بدأت الغيبة الكبرى من حين ولادته ﷺ وانتهت عام ٣٢٩هـ، حيث شرعت الغيبة الكبرى التي ما زالت مستمرة حتى يأذن الله تعالى بظهوره.
٣. تواتر الروايات في مصادر الفريقين عن النبي الأكرم ﷺ بأنه سيظهر مصلح في آخر الزمان اسمه المهدي يزيح الجهل عن كاهل البشرية ويبسط مكانهما العلم والعدل، ويمكّن الأمر لحكومة الدين في الأرض وإن كره المشركون.
٤. كان تواتر روايات الإمام المهدي ﷺ بحد من الوضوح حتى صرح الكثير من علماء أهل السنة به. من هنا نرى عموم أهل السنة يعتقدون بظهور المهدي ﷺ.
٥. السرّ الأساسي وراء غيبته حفظ حياته من شرّ الظالمين. وهناك حكم آخر وراء غيبة الإمام ﷺ، كما أشارت إلى ذلك الروايات، منها اختبار الأمة وتمحيصها في عقائدها.
٦. الإمام قلب العالم وقطب الرحا ومركز العالم، ومن دونه لا تبقى السماوات والأرض، بل تسيخ بأهلها. من هنا فإنّ لوجود الإمام فائدة وإن كان غائباً ويتنفعون به كارتفاع الشمس جللتها الغيوم.
٧. كذلك قام الإمام في زمن الغيبة بتلبية حاجات الكثير من الناس المادية والمعنوية. أضف إلى ذلك أنّ نفس وجوده المبارك يبعث على الشعور بالأمن والاستقرار والحيوية لدى المؤمنين.

الفصل الخامس

مباحث المعاد

الدرس الأول

المعاد ومكانته في الفكر الإسلامي

يعتبر المعاد^١ من الأصول الاعتقادية في الدين الإسلامي. ووفقاً لهذا الأصل، فإن جميع البشر الذين جاؤوا إلى هذه العالم ورحلوا عنه والذين سيأتون ويرحلون بعد مدة، كلهم سينشرون في عالم آخر ليقفوا أمام محكمة العدل الإلهي فينال المحسن ثوابه والمسيء عقابه، فذاك إلى الجنة وهذا إلى النار، وكلاهما يحيا حياة أبدية. إن الإيمان بهذا الأصل يعد شرطاً أساسياً في تحقق صفة المسلم، فمن أنكر هذا الأصل يخرج عن زمرة المسلمين.

ثم إذا استعرضنا تاريخ الأنبياء نجدهم - ابتداءً بآدم وانتهاءً بالخاتم - كلهم دعوا بعد التوحيد، إلى أصل المعاد وضرورة الإيمان بالحياة الأخروية.

الإيمان بالمعاد رديف الإيمان بالله

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن عالم ما بعد الموت، يوم القيامة،

١. المعاد لغة: مصدر ميمي يستعمل اسم مكان وزمان وهو مشتق من مادة «عود» بمعنى الرجوع. وقد استعمل كلمة «معاد» في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية ٨٥ من سورة القصص: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَصَادِقِهِ﴾ ويراد بالمعاد هنا مكة. وقد استعمل المعاد هنا بمعناه اللغوي. وسيأتي الكلام عن المعاني الأخرى للمعاد في القرآن الكريم.

كيفية البعث والنشور، الميزان، الحساب وغير ذلك من الأبحاث ذات الصلة بعالم الآخرة.^١ وتكشف كثرة الآيات القرآنية عن القيمة السامية لهذا المعتقد في الفكر الإسلامي ودوره في سعادة البشرية، من هنا نجد القرآن الكريم وفي أكثر من موضع يردف الإيمان بالله بالإيمان بالمعاد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.^٢

وقد وردت في بعض تلك الآيات الإشارة إلى، المصير الأسود لمنكري المعاد،^٣ وفي طائفة أخرى منها إشارة إلى النعيم الخالد^٤ والعذاب الخالد.^٥ كذلك تعرض القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى العلاقة بين الأعمال الصالحة والنتائج الأخروية وبأساليب متنوعة، وأن المعاد أمر ممكن^٦ وواقعة ضرورية.^٧

١. قام بعض الباحثين بإحصاء ما يرجع إلى المعاد في القرآن فبلغ زهاء ألف وأربعمئة آية، وكان السيد العلامة الطباطبائي رحمته الله يقول: بأنه ورد البحث عن المعاد في القرآن في آيات تربو على الألفي. (راجع: *الإلهيات*، جعفر السبحاني: ١٦٥/٤ - ١٦٦).

٢. راجع: البقرة: ٨، ١٢٦، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٦٤؛ آل عمران: ٣٨، ٣٩، ٥٩، ١١٤؛ النساء: ١٦٢؛ المائدة: ٦٩؛ التوبة: ١٨، ١٩، ٢٩، ٤٤، ٤٥، ٩٩.

٣. راجع: الإسراء: ١٠؛ الفرقان: ١١؛ سبأ: ٨؛ المؤمنون: ٧٤.

٤. راجع: الرحمن: ٤٦ وما بعدها؛ الواقعة: ١٥ - ٣٨؛ الدهر: ١١ - ٢١.

٥. راجع: الحاقة: ٢٠ - ٢٧؛ الملك: ٦ - ١١؛ الواقعة: ٤٢ - ٥٦.

٦. راجع: الأحقاف: ٣٣؛ الإسراء: ٤٩ - ٥٠.

٧. الحج: ٦ - ٧.

الدرس الثاني

ضرورة المعاد

أدلة ضرورة المعاد

أشار القرآن الكريم وفي آيات كثيرة منها إلى الأدلة والبراهين الدالة على ضرورة المعاد. للاطلاع على تلك الأدلة نشير إلى بعضها بصورة مختصرة:

١. صيانة الخلقة من العبث

لا ريب أن الحياة الدنيوية لا تمثل الهدف النهائي من وراء خلق الإنسان؛ وذلك لأن الحياة الدنيوية حياة مؤقتة والحياة المؤقتة قصيرة من جهة ومليئة بالآلام والمحن وفي نهاية المطاف الموت والعدم، من هنا لو انتفى المعاد، حينئذ تنحصر حياة الإنسان بالحياة الدنيوية فتتحوّل إلى حالة عبثية لا طائل من ورائها ولا غاية تشدها: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ»^١.

٢. المعاد مقتضى العدل الإلهي

يعيش المحسنون والمفسدون في هذه الدنيا - غالباً - في محيط واحد وأنهم

١. المؤمنون: ١١٥.

يوضعون في صف واحد بالنسبة للاستفادة من النعم الدنيوية، بل قد ينعم المفسدون بصورة أكثر ويعيش المحسنون الحرمان والعوز. من هنا يقتضي العدل الإلهي أن يفصل بين الفريقين لينال كلّ منهم جزاء أعماله، وبما أنّ هذا الأمر لا يتحقّق في الحياة الدنيا فلا بد من وجود عالم آخر يتحقّق فيه ذلك الأمر: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^١.

٣. المعاد مقتضى الرحمة الإلهية

اتصف الله تعالى بالرحمة التي لا حد لها ولانهاية، وهذه الرحمة الواسعة تقتضي عدم انقطاع فيضه سبحانه بمجرد موت الإنسان، بل لا بدّ أن يبقى فيضه لينهل منه الصالحون والمؤمنون: ﴿...كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَنَكُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾^٢.

أهداف وشبهات منكري المعاد

يسعى الإنسان في هذه الدنيا - غالباً - ليعيش حالة التحلل والتحرر من القيود والإلزامات ليطلق العنان لسمعته ولسانه وبصره و...، ومن جهة أخرى نرى الاعتقاد بالمعاد والحضور أمام محكمة العدل الإلهي والمحاسبة على ما اقترفه من أعمال يوصد الطريق أمامه ويكبله بقيود كثيرة ويقيد أعماله وحركاته بضوابط لا يحقّ له تجاوزها. من هنا نرى الناس يرفضون الإذعان لعقيدة المعاد التي أخبر بها الأنبياء:^٣

١. الجاثية: ٢١.

٢. الأنعام: ١٢.

٣. راجع: الأستاذ جواد آملّي، ده مقالة پیرامون المبدأ والمعاد عشر مقالات حول المبدأ والمعاد:

﴿يُخَسِّبُ الْإِنْسَانَ أَثْنَ الْجَمْعِ عِظَامَهُ﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يُسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ^١.

إن اتباع الهوى والشهوات يوفر الأرضية المناسبة، لإنكار المعاد واستبعاد وقوعه في أذهان المبطلين وعدم الإيمان به متذرعين بذرائع مختلفة. وعندما نستعرض آيات الذكر الحكيم نراها قد أشارت إلى تلك الحجج والذرائع والأسباب المدعاة لمقاومة فكرة المعاد بصور مختلفة، منها:

١. إنه لا دليل على وقوع المعاد: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾^٢.

٢. عقيدة المعاد من أساطير الأولين: ﴿قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ^٣.

٣. إنه تقول على الله والجنون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْبئُكُمْ إِذَا مَرُّتُمْ كُلِّ مَرْقَبٍ إِنَّكُمْ لَئِي خَلَقَ جَدِيدٌ﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ...^٤.

٤. المعاد وحشر الموتى سحر مبین: ﴿...وَلَيَنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^٥.

٥. الطلب بإعادة آباءهم، لو كان المعاد حقاً اعيدوا آباءنا إن كنتم صادقين: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٦.

١. القيامة: ٣ - ٦.

٢. الجاثية: ٣٢.

٣. المؤمنون: ٨٢ - ٨٣.

٤. سبأ: ٧ - ٨.

٥. هود: ٧.

٦. الجاثية: ٢٥.

٦. إحياء الموتى أمر شديد الصعوبة.^١

٧. إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إحياء الموتى: ﴿...قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.^٢

٨. إن انتشار ذرات بدن الإنسان البالي يوجب اختلاط تلك الذرات، فكيف يمكن تمييز بعضها عن بعض.^٣

خلاصة البحث

١. أصل المعاد يحكي بأن الناس سينقلون إلى عالم آخر غير عالم الدنيا، لينال المحسن ثوابه والمسيء عقابه في حياة خالدة سرمدية.
٢. ورد في آيات كثيرة من الذكر الحكيم اقتران الاعتقاد بالله تعالى بالاعتقاد بالمعاد، وهذا يكشف عن المنزلة الرفيعة للمعاد في الفكر الإسلامي.
٣. انتفاء المعاد يعني عبثية خلقة الإنسان وانعدام الهدف من ورائها؛ لأن الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون هي الهدف النهائي من خلقة الإنسان.
٤. يقتضي العدل الإلهي أن يفصل بين المحسنين والمفسدين، لينال كلّ منهم جزاء أعماله. وبما أن هذا الأمر لا يتحقق في الحياة الدنيا فلا بدّ من وجود عالم آخر يتحقق فيه ذلك.

٥. الرحمة الإلهية الواسعة تقتضي عدم انقطاع فيضه سبحانه بمجرد موت

١. لم يصرح القرآن بهذا الاعتراض وإنما يمكن اقتناصه من خلال الآيات الكثيرة التي تؤكد على سهولة القيامة بالنسبة لله تعالى مما يحكي عن كونه الشبهة مثارة في ذلك الوقت، كقوله تعالى في سورة ق الآية ٤٤: ﴿...ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ والتغابن: ٧؛ الروم: ٢٧.

٢. يس: ٧٨.

٣. لم يصرح القرآن بهذه الشبهة، لكن جاء الرد عليها في الآية الثالثة من سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ غَالِبًا الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

- الإنسان، بل لا بد أن يستمرّ فيضه لينهل منه الصالحون والمؤمنون دائماً.
٦. لأن الاعتقاد بالمعاد يوصد الطريق أمام الانجرار وراء الشهوات والغرائز ويكبل الإنسان بقيود كثيرة. من هنا نرى الكثير من الناس يرفضون الإذعان لهذه العقيدة ليبقى طريق الشهوات مفتوحاً أمامهم.
٧. من الحجج التي تدرع بها منكرو المعاد: ١. إنه لا دليل على وقوع المعاد. ٢. عقيدة المعاد من أساطير الأولين. ٣. إنه تقول على الله الجنون. ٤. المعاد وحشر الموتى سحر مبین. ٥. لو كان المعاد حقاً اعيدوا آباءنا إن كنتم صادقين. ٦. إحياء الموتى أمر في غاية الصعوبة. ٧. إحياء الموتى فوق القدرة الإلهية. ٨. انتشار ذرات بدن الإنسان البالي يوجب اختلاطها فتغيب عن علم الله تعالى.
٨. جواب جميع تلك الشبهات يتمثل في كلمة واحدة وهي أنهم ما قدروا الله حقّ قدره.

الدرس الثالث

حقيقة الموت

من القضايا التي تعم إثارته بين الناس ويكثر البحث عنها قضية الموت، فهل الموت يعني نهاية المطاف والانعدام المطلق أو هو يمثل انتقالاً من حالة إلى حالة ورحلة من عالم إلى آخر؟ هذا السؤال يعدّ التساؤل الأساسي من بين الأسئلة التي أثارها الإنسان على مرّ تاريخه، وسيبقى كذلك، حيث يبقى كلّ إنسان يبحث عن الإجابة الشافية عنه.

يعتبر الرجوع إلى القرآن الكريم أفضل طريق لتحصيل الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال. فقد استعمل القرآن للتعبير عن الموت مصطلح «التوفي» حيث ورد في كثير من آيات الذكر الحكيم التعبير عن الموت بالتوفي.^١ والتوفي لغة يعني أخذ الشيء كاملاً. فإذا أخذ شخص شيئاً ما كاملاً من دون نقص يقال له في اللغة العربية: توفي الشيء. توفيت المال أخذته من دون نقص.^٢ رد القرآن الكريم على الذين أنكروا

١. النساء: ١٥، ٩٧؛ الانعام: ٦١؛ محمد: ٢٧؛ المائدة: ١١٧؛ النحل: ٢٨، ٣٢، ٧٠، ١٠٤، ٤٦؛ الرعد: ٤٠؛ غافر: ٧٧؛ الأنفال: ٥٠؛ الزمر: ٤٢، السجدة: ١١؛ الاعراف: ٣٧.

٢. لا بدّ من الالتفات إلى أن التوفي ومشتقاتها «الوفاة» تختلف عن «الفوت»؛ لأنّ الفوت يعني الانعدام المطلق، أمّا الوفاة فتعني: تسليم الأمانة إلى صاحبها.

المعاد بذريعة أن الإنسان إذا مات تحلل جسده واختلطت ذراته مع التراب فلا يمكن إعادته بحال من الأحوال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾^١ قائلًا: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^٢.

يستفيد من الآيات التي عبرت عن الموت بالتوفي أن الموت يمثل عملية استلام وقبض؛ بمعنى أن الإنسان عندما يموت يقع بتمام وجوده وشخصيته في يد الملائكة الموكلين كاملاً من دون أي نقص. من هنا من آيات الذكر الحكيم ثلاث أمور، هي:

١. لا يعد الموت فناء وانعداماً للإنسان، بل هو انتقال من عالم إلى آخر واستمرار الحياة البشرية بنحو آخر.

٢. إن الذي يمثل شخصية الإنسان الواقعية هي «الأناء» الواقعية وليس البدن وتوابعه؛ لأن البدن وتوابعه يبقى في هذا العالم ليتحلل وتشتت ذراته وتتفسخ أعضاؤه ولم يقع في يد الملائكة منه شيء أبداً، أن الذي يشكل حقيقة الإنسان وواقعه هو الذي يعبر عنه القرآن الكريم تارة بالروح وأخرى بالنفس.

٣. تكتسب الروح الإنسان من ناحية المرتبة الوجودية مقاماً أعلى ومنزلة أسمى من المادة والماديات، يعني أنها وجود مجرد. وعند الموت تنتقل الروح إلى عالم من سنخ عالم الروح، بعبارة أخرى: إن تلك الحقيقة التي هي فوق عالم المادة هي التي تؤخذ مجدداً.^٣

العلاقة بين الموت والنوم

الجدير بالذكر أن القرآن الكريم عبر عن النوم بالتوفي أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم

١. السجدة: ١٠.

٢. السجدة: ١١.

٣. راجع: مجموعة آثار: ٥١٠/٢ - ٥١١.

بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمَ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^١

وهذا التعبير عن النوم يحكي عن التشابه النسبي بينه وبين الموت. وقد بينت الآية التالية بوضوح سنخية الحالتين: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^٢﴾.

وقد ورد في الرواية السؤال عن الموت؟ فأجاب الإمام الباقر عليه السلام:

هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة، إلا أنه طويل مدته^٣

يتضح من خلال الآيات والروايات أن الموت حالة تسانخ النوم، والبعثة والنشور في عالم الآخرة حال تشبه اليقظة. فالنوم موت ضعيف وقصير الأمد، والموت نوم شديد وطويل الأمد، وفي الحالتين تنتقل روح الإنسان من عالم إلى عالم آخر، إلا أن الإنسان عند النوم لا يحس غالباً وعندما يستيقظ لا يشعر بأنه رجع من عالم آخر، بخلاف الموت فإن كل شيء معلوم لديه.^٤

خلاصة البحث

١. استعمل القرآن للتعبير عن الموت مصطلح «التوفي» وهو أخذ الشيء كاملاً. ويراد منه أن حقيقة الموت تمثل عملية استلام وقبض، أي أن الإنسان عندما يموت يقع بتمام وجوده وشخصيته في يد الملائكة الموكلين كاملاً من دون أي نقص.

١. الانعام: ٦٠.

٢. الزمر: ٤٢.

٣. معاني الأخبار: ٢٨٩؛ المحجة البيضاء: ٨/٢٥٥.

٤. لمزيد الاطلاع راجع: معاد شناسي (المعاد): ١/المجلس الخامس.

٢. التعبير عن الموت بالتوفي يكشف عن كون الذي يمثل شخصية الإنسان الواقعية هي «الانا» أو الوجود المجرد عن المادة، وهو أسمى وأرفع من البدن وتوابعه.

٣. عبر القرآن الكريم عن النوم بالتوفي، وهذا يكشف عن التشابه النسبي ووحدة السخية بينهما.

٤. روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه عبر عن الموت بقوله: هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة، إلا أنه طويل مدته.

الدرس الرابع

البرزخ

يستفاد من الآيات والروايات المتواترة أنّ الإنسان لا ينتقل بعد الموت إلى عالم القيامة الكبرى وإنما هناك مرحلة وسطية بين الحياة الدنيا والقيامة الكبرى يعبر عنها بعالم البرزخ.

والبرزخ لغة: الحاجز بين الشيئين. وهو ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ.^١ وفي تفسير علي بن إبراهيم القمّي: البرزخ أمر بين أمرين، وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة.^٢

وقد وردت كلمة البرزخ في القرآن الكريم ثلاث مرات، واحدة منها تتعلق بالفاصلة بين الموت والقيامة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.^٣

تحكي الآية المباركة عن ندم الإنسان بعد الموت، وطلبه العودة إلى الحياة الدنيا لعله يتدارك ما فاتته فيها، إلا أنّ الجواب يأتيه بالرفض القاطع ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

١. مجمع البحرين: ٢/٤٣٠.

٢. تفسير القمّي: ٩٤/٢؛ وراجع: بحار الأنوار: ٢١٤/٦.

٣. المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠. وجاءت كلمة البرزخ في الآية ٢٠ من سورة الرحمن والآية ٤٥ من سورة الفرقان.

كذلك يستفيد من كثير من آيات الذكر الحكيم أن الإنسان ما بين الموت والقيامة الكبرى، يعيش حياة خاصة لها مميزات من قبيل، أنه يشعر ويحس بها، يتكلم ويسمع، يلتذ ويتألم، يفرح ويحزن، فهو بين سعيد وشقي، ويمكن تصنيف تلك الآيات التي يصل عددها إلى خمس عشرة آية إلى عدة أصناف:^١

١. الآيات التي تتحدث عن الحوار الذي يحدث بين الناس - سواء كانوا صالحين أم طالحين - وبين الملائكة بعد الموت مباشرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^٢﴾.

فالآية المباركة تذكر كيف أن الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وعاشوا في محيط فاسد، يسألونهم عن حالهم في الدنيا وظلمهم لأنفسهم.... فيتذرع هؤلاء بأنهم كانوا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لماذا لم تتركوا موطن الشرك والفساد وتنجوا بأنفسكم من الظلم، والكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض الله الواسعة.^٣

٢. الآيات التي تشير إلى الحوار والحديث الذي يتم بين الملائكة والصالحين والذي يكشف عن تنعم الصالحين بالنعم الإلهية قبل القيامة الكبرى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^٤﴾.

١. مجموعة الآثار: ٥١٤/٢ - ٥١٩.

٢. النساء: ٩٧.

٣. ومن هذه الطائفة، الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون التي مرت الإشارة إليها.

٤. النحل: ٣٢؛ راجع: يس: ٢٦ - ٢٧.

٣. الآيات التي تحدث مباشرة عن الحياة السعيدة لبعض الناس والشقاء الذي يصيب البعض الآخر بعد الموت وحتى القيامة الكبرى، وتؤكد أن الطائفة الأولى تعيش النعيم والسعادة والأخرى تعيش العذاب والشقاء، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ يُبَشِّرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^١

والآيات صريحة في الدلالة على حياة الشهداء في سبيل الله وتنعمهم، وأنها غير قابلة للتأويل بحال من الأحوال. كذلك تدل على علمهم بمن بقوا وراءهم في الحياة الدنيا ولم يحن أجلهم بعد: ﴿...وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^٢

والآية صريحة في أن آل فرعون يعذبون بنوعين من العذاب: الأول: سوء العذاب وهو العرض على النار غدوًّا وعشيًّا قبل القيامة الكبرى ومن دون أن يدخلونها. والثاني: أشد العذاب في القيامة الكبرى حين يأتي الأمر الإلهي ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وقد أشير إلى أن العذاب الأول يتم غدوًّا وعشيًّا خلافاً للعذاب الثاني؛ وذلك لأن الأول يتعلق بعالم البرزخ، ولعله لعدم انقطاع أهل البرزخ عن الدنيا بالكلية فتكون لهم نسبة ما إلى الغداة والعشي، الصباح والمساء واليوم والأسبوع، والشهر والسنة، خلافاً للقيامة.^٣

١. آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠. صحيح إن الآيات نازلة في شهداء أحد إلا أن مضمونها عام يشمل الجميع، وأن خصوص المورد لا يخص المورد.

٢. غافر: ٤٥ - ٤٦.

٣. راجع: العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٥/١٧. الجدير بالذكر أن النار التي يعرض عليها آل فرعون هي نار الآخرة. (راجع: العلامة الطباطبائي، انسان از آغاز تا انجام: ٧٩). طبعاً هناك بعض الآيات البرزخية تشير إلى نار يدخلها الأشقياء، كالآية ١٠٦ من سورة هود.

البرزخ في الروايات

هناك الكثير من الروايات التي تحدثت عن عالم البرزخ وأحواله وأحكامه.^١ منها الرواية المفصلة المنقولة بأسانيد مختلفة والتي ذكرتها المصادر الحديثية المعتبرة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، مثل له أهله وماله وولده وعمله، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنني كنت عليك لحريصاً شحيحاً فما عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك، ثم يلتفت إلى ولده، فيقول: والله إنني كنت لكم لمحِباً وإنني كنت عليكم لمحامياً، فماذا عندكم؟ فيقولون: نوديك إلى حفرتك ونواريك فيها، ثم يلتفت إلى عمله فيقول: والله إنني كنت فيك لزاهداً وإنك كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك، ويوم حشرك، حتى أعرض أنا وأنت على ربك.^٢

فإن كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ربحاً وأحسنهم منظرأً وأزينهم ريشاً، فيقول: أبشر بروح من الله وريحان وجنة نعيم، وقد قدمت خير مقدم. فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح ارتحل من الدنيا إلى الجنة. وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله، فإذا أدخل قبره أتاه ملكان وهما فتانا القبر يجران أشعارهما وينحنان الأرض بأنياهما وأصواتهما كالرعد العاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: الله ربّي ومحمد نبيي والإسلام ديني. فيقولان: ثبتك الله بما تحب وترضى وهو قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾^٣، فيفسحان له في قبره مد بصره ويفتحان له

١. لمزيد الاطلاع راجع: بحار الأنوار: ج ٦؛ الكافي: ج ٣؛ المحجة البيضاء: ج ٨.

٢. هذا المقطع من الرواية يحكي عن تجسم الأعمال في البرزخ.

٣. إبراهيم: ٢٧. يستفاد من خلال استشهاد الإمام عليه السلام بهذه الآية المباركة أن الله تعالى جعل البرزخ

امتداداً للحياة الدنيا. (راجع: انسان از آغاز تا انجام: ٨٣).

باباً إلى الجنة،^١ ويقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم، وهو قوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.^٢

وأما إن كان لربه عدواً، فإنه يأتيه أقيح من خلق الله ريشاً، وأنتنهم ريحاً فيقول: أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم، وأنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يجسه، فإذا أدخل في قبره أتاه ممتحناً القبر، فألقيا أكفانه، ثم قالاً له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا هديت. فيضربان بأفوخه بمرزبة ضربة ما خلق الله من دابة إلا تذر لها، ما خلا الثقلين، ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يقولان له: نم بشر حال، فإنه من الضيق مثل ما فيه القناة من الزج، حتى أن دماغه ليخرج ممّا بين ظفره ولحمه، ويسلط الله عليه حيات الأرض وعقاربها وهوامها فتشه حتى يبعثه من قبره، وأنه ليتمنى قيام الساعة ممّا هو فيه من الشر.^٣

السؤال والحساب بعد الموت

استندأ إلى ما ورد في الرواية السابقة وروايات كثيرة أخرى، أن الملكين منكراً ونكيراً يأتيان إلى الميت ويسألانه عن عقائده، كالوحيد والنبوة والدين الذي يتعبد به. وهذه الأسئلة كسائر الحوادث تقع بعد الموت وفي عالم البرزخ، ولا يشاهدها إلا أصحاب الرؤية البرزخية.

١. قال العلامة الطباطبائي: ورد في الكثير من الروايات أن الإنسان بعد أن يموت يفتح له باب إلى الجنة ويقال له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم. أو باب إلى النار، ثم يقال له: نم بشر حال! لكن لم تصرح أي من الروايات بأن الميت يدخل الجنة، وإنما المصرح به - باتفاق الروايات - أنه يشاهدها فيرى مكانه فيها فمن هناك يهب عليه نسيم الراحة والسرور، ويقال له: نم قرير العين. (راجع: انسان از آغاز تا انجام: ٨٣).

٢. الفرقان: ٢٤. والمقيل اسم مكان من القيلولة وهي النوم قبل منتصف النهار، وإطلاقها على البرزخ باعتبار أن نسبة البرزخ إلى القيامة كالنوم لليقظة. وهكذا جاء في هذه الرواية أن الملائكة تخاطب الميت: (نم قرير العين).

٣. راجع: تفسير علي بن ابراهيم القمي: ١/٣٤٠؛ تفسير العياشي: ٢/٢٧٧؛ الكافي: ٣/٢٣١ - ٢٣٣؛ أمالي الطوسي: ١/٣٥٧ - ٣٥٩.

كذلك ورد في الروايات الكثيرة^١ أنَّ السؤال والمؤاخظة في القبر يختصان بالمؤمنين والظالمين فقط ولا يشملان المستضعفين والمتوسطين. روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام:

لا يسأل في القبر إلَّا مَنْ مَخَضَ الْإِيمَانَ مُحَضًّا أَوْ مَخَضَ الْكُفْرَ مُحَضًّا
وَالْآخَرُونَ يُلْهَوْنَ عَنْهُمْ.^٢

وروى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن ضريس الكناسي عن أبي جعفر عليه السلام:
قال: قلت له: جعلت فداك ما حال الموحدين المقربين بنبوته محمد صلى الله عليه وآله من

المسلمين المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام ولا يعرفون ولا يتكلم؟
فقال: أَمَا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ فِي حَفْرِهِمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا فَمَنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ
وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ عَدَاوَةٌ، فَإِنَّهُ يَخْدُ لَهُ خَدًّا إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ بِالْمَغْرِبِ فَيَدْخُلُ
عَلَيْهِ الرُّوحُ فِي حَفْرَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ فَيَحَاسِبُهُ بِحَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ،
فَأَمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَمَّا إِلَى النَّارِ، فَهَؤُلَاءِ الْمَوْقُوفُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ. قال: وكذلك يفعل
بالمستضعفين والبله والأطفال وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم.^٣

الميت يزور أهله

روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام:

إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَزُورُ أَهْلَهُ فَيَرِي مَا يَحِبُّ وَيَسْتَرُّ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ^٤

وفي رواية أخرى:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ إِلَّا وَهُوَ بَاتِي أَهْلَهُ عِنْدَ زَوَالِ

١. وصلت تلك الروايات إلى حد الاستفاضة، (راجع: انسان از آغاز تا انجام: ٨٤).

٢. الكافي: ٢٣٥/٣، الحديث ١.

٣. إشارة إلى الآية ١٠٦ من سورة التوبة: ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُوزَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يَعْذِبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٤. الكافي: ٢٣٠/٣، الحديث ١.

الشمس فإذا رأى أهله يعملون بالصالحات حمد الله على ذلك، وإذا رأى الكافر أهله يعملون بالصالحات كانت عليه حسرة.^١

وقد وردت روايات كثيرة في هذا المضمون وجاء في بعضها أن الميت يزور أهله في صورة طائر لطيف يسقط على جدرانهم ويشرف عليهم.^٢ وهو من باب تجسم الأرواح.

خلاصة البحث

١. يعيش الإنسان بعد الموت مرحلة وسطية بين الحياة الدنيا والقيامة الكبرى يعبر عنها بعالم البرزخ. والبرزخ لغة: الحاجز بين الشئين.
٢. هناك ثلاث طوائف من الآيات تشير إلى الحياة البرزخية بين الموت والقيامة الكبرى: أ) الآيات التي تتحدث عن الحوار الذي يحدث بين الناس - سواء كانوا صالحين أم طالحين - وبين الملائكة بعد الموت مباشرة. ب) الآيات التي تشير إلى بشارة الملائكة للصالحين من العباد وقولهم لهم: "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل، ٣٢). ج) الآيات التي تتحدث مباشرة عن الحياة السعيدة لبعض الناس والشقاء الذي يصيب البعض الآخر بعد الموت وحتى القيامة الكبرى. (آل عمران، ١٦٩، ١٧٠؛ المؤمن، ٤٥ - ٤٦).
٣. ورد في الروايات أن الملكين منكرًا ونكيرًا يأتيان إلى الميت ويسألانه عن عقائده، وأن السؤال والمواخظة في القبر يختصان بالمؤمنين والظالمين فقط ولا يشملان المستضعفين والمتوسطين.
٤. إن المؤمن يزور أهله فيرى ما يحب ويستتر عنه ما يكره.

١. المصدر، الحديث ٢.

٢. المصدر، الحديث ٣؛ وتدل على ذلك الآية ١٧١ من سورة آل عمران، حيث جاء فيها: ﴿فَرَجَحْنَ بَسَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الدرس الخامس

القيامة في القرآن الكريم^١

يمثل القرآن الكريم وكلمات المعصومين عليه السلام الطريق الوحيد لمعرفة وقائع القيامة وأحكامها، فعندما نراجع القرآن الكريم نراه يؤكد علي أن القيامة الكبرى تقترب مع حدوث تحولات كبيرة وأحوال عظيمة في النظام الكوني، بنحو يطوي فيه بساط عالم ليحل محله عالم آخر ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، ثم يبعث الله تعالى جميع الناس ليشاهدوا وليروا نتائج أعمالهم. ونحن هنا نحاول أن نستعرض باختصار مضامين تلك الآيات المباركة.

تزلزل الأرض، الجبال، البحار

في ذلك اليوم العصيب تزلزل الأرض زلزلاً عظيماً وترج رجة مهولة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾^٢ و ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾^٣ فتخرج الأرض ما فيها ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ

١. اعتمدنا في تدوين هذا الفصل الكتاب القيم *تعليم العقائد* الجزء الثالث الدرس الخمسون للأستاذ مصباح الزيد.

٢. الزلزلة: ١.

٣. الواقعة: ٤٤ راجع: الحج: ١ والمزمل: ١٤.

أَنْفَقَالَهَا^١، وتذك الأرض والجبال دكاً،^٢ وتسجّر البحار وتفجر،^٣ وتسير،^٤ وتفت كالسويق الملتوت،^٥ فتضطرب وترتجف وتكون تلة من الرمل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مِهْبِلًا﴾،^٦ ثُمَّ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾،^٧ وبعد ذلك ينسفها الله نسفاً،^٨ فاذا بها كالسراب ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.^٩

انقلاب السماء والكواكب

في ذلك اليوم يخسف القمر،^{١٠} وتكور الشمس ويزال نورها،^{١١} وتنطمس وتتكدر تلك الكواكب العظيمة التي يتجاوز حجم بعضها حجم الشمس بملايين المرات^{١٢} ويضطرب نظام حركتها وتنتثر،^{١٣} وتجمع الشمس والقمر،^{١٤} وتضطرب السماء التي

١. الزلزلة: ٢؛ راجع: الانشقاق: ٤: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.
٢. الحاقة: ١٤: ﴿وَحِيلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾؛ الفجر: ٢١: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾.
٣. التكوين: ٦: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾؛ الانفطار: ٣: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ﴾.
٤. الكهف: ٤٧: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَخَشَرْنَا عَنْهُمْ قُلُوبُ الْعَادِثِينَ مِنْهُمْ أَهْلًا﴾؛ النحل: ٨٨: ﴿وَتَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.
- الطور: ١٠؛ التكوين: ٢.
٥. الواقعة: ٥: ﴿وَنُفِثَ الْجِبَالُ نُفْثًا﴾؛ وراجع الحاقة: ١٤.
٦. المزمل: ١٤.
٧. القارعة: ٥؛ المعارج: ٩.
٨. طه: ١٠٥ - ١٠٧: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾؛ المرسلات: ١٠.
٩. النبأ: ٢٠.
١٠. القيامة: ٨: ﴿وَيَخْسَفُ الْقَمَرُ﴾.
١١. التكوين: ١٤: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.
١٢. التكوين: ٢: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.
١٣. الانفطار: ٢: ﴿وَإِذَا الْكُوكَبَاتُ انْتَثَرَتْ﴾.
١٤. القيامة: ٩: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

كانت سقفاً محفوظاً يحيط بالأرض وتدور كالرحا،^١ وتشقق وتذوب كالزيت،^٢ وتطوى السماء كطي السجل للكتب،^٣ فتكون السماء كالفضة المذابة،^٤ ويملاً الفضاء دخان مبين.^٥

التفخة الأولى في الصور

ينتقل القرآن الكريم بعد بيان تلك الحوادث المربعة إلى الحديث عن التفخ الأول في الصور، الذي يوجب موت كل الأحياء في السماوات والأرضين.^٦ فلم يبق في الأرض أثر لأي نوع من أنواع الحياة؛ وتعم الكون الوحشة والاضطراب والفرع الشديد إلا من علموا بسر الكون وحقيقة العالم وملئت قلوبهم بالمعرفة والعشق الإلهي وهم عباد الله المخلصون فهم آمنون من ذلك الفرع.^٧

التفخة الثانية في الصور

بعدها تبدأ مرحلة الحياة الخالدة،^٨ حيث تشرق الأرض بنور ربها،^٩ فينفخ في الصور

١. الطور: ٩: ﴿يَوْمَ تَنفُخُ السَّامَةُ مَوْزَاً﴾؛ الحاقة: ١٦.
٢. الرحمن: ٣٧: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾؛ وراجع: الحاقة: ١٦؛ المزمل: ١٨؛ الرسائل: ٩؛ النبأ: ١٩؛ الانفطار: ١؛ الانشقاق: ١.
٣. الانبياء: ١٠٤: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكَتَبِ﴾؛ التكوثر: ١١.
٤. المعارج: ٨: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾.
٥. الفرقان: ٢٥: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ..﴾؛ الدخان: ١٠: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.
٦. الزمر: ٦٨: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾؛ الحاقة: ١٣؛ يس: ٤٩.
٧. النمل: ٨٧ - ٨٩: ﴿وَيَوْمَ يَنفُخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ﴾؛ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون.
٨. إبراهيم: ٤٨: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَتَرَوُنَّ اللَّهَ الْقَاجِدَ الْقَهَّارَ﴾؛ الزمر: ٦٧؛ مريم: ٣٨؛ ق: ٢٢.
٩. الزمر: ٦٩: ﴿وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا..﴾.

النفخة الثانية التي توجب إحياء الموتى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^١ ولا يقتصر الأمر على الإنسان، بل يعم الحيوانات أيضاً^٢ فما هي إلا لحظة واحدة فإذا الجميع يحشرون أحياء^٣ سراعاً خاشعين كأنهم فراش مبثوث^٤ ينسلون إلى ربهم^٥ قد جمعوا في محشر عظيم^٦ يظنّ المجرمون منهم أنهم مالبثوا في عالم البرزخ غير ساعة أو يوم أو عدة أيام^٧

ظهور حاكمية الله وانقطاع الأسباب والأنساب

إنّ عالم الآخرة عالم تتجلى فيه الحقائق^٨، فهناك يظهر للجميع بأنّ الحاكمية الحقّة والسلطة الواقعية لله تعالى فقط،^٩ حيث تفرق الخلائق في عالم من الخوف والرعب وتبهرهم الهيبة الإلهية فلا ينبس أحد منهم بكلمة فالكُلّ سكوت مرعوبون،^{١٠} لا يهيم

١. الزمر: ٦٨؛ الكهف: ٩٩؛ ق: ٤٢، ٢٠؛ النبأ: ١٨؛ النازعات: ١٣ - ١٤؛ المدثر: ٨؛ الصافات: ١٩.
٢. الانعام: ٣٨: ﴿...مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ التكوين: ٥.
٣. النحل: ٧٧: ﴿...وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَنَجٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ الكهف: ٤٧: ﴿...وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾؛ القمر: ٥٠؛ النبأ: ١٨.
٤. ق: ٤٤: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ﴾؛ المعارج: ٤٣.
٥. القارعة: ٤: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾؛ القمر: ٧.
٦. يس: ٥١: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾؛ المطففين: ٣٠؛ القيامة: ١٢، ٣٠؛ وراجع: آيات: الحشر، النشر، لقاء الله، الرجوع إلى الله، الرد إلى الله.
٧. الكهف: ٩٩: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جُمُعًا﴾؛ التغابن: ٩؛ النساء: ٨٧؛ الانعام: ١٢؛ آل عمران: ٩؛ هود: ١٠٣.
٨. الروم: ٥٥: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ النازعات: ٤٦؛ يونس: ٤٥؛ الإسراء: ٥٢؛ طه: ١٠٣ - ١٠٤؛ المؤمنون: ١١٣؛ الأحقاف: ٣٥.
٩. العاديات: ١٠: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾؛ إبراهيم: ٢١؛ الطارق: ٩؛ ق: ٢٢؛ الحاقة: ١٨.
١٠. الحج: ٥٦: ﴿إِنَّكَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾؛ الفرقان: ٢٦؛ غافر: ١٦؛ الانططار: ١٩.
١١. هود: ١٠٥: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِينِهَا﴾؛ طه: ١٠٨: ﴿وَحُشِّنَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾؛ طه: ١١١: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾؛ النبأ: ٣٨.

المرء في ذلك الموقف إلّا نفسه، فالأب يفر من ابنه والابن من أبيه وهكذا الأم من ولدها والصاحب من صحابته ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^١ وتنقطع جميع الأسباب^٢ والأنساب^٣ و﴿الْأَخْلَآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^٤ فهم في حسرة وندم على ما فرطوا في الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾^٥.

محكمة العدل الإلهي

بعد ذلك كله تنعقد محكمة العدل الإلهي وتوضع الموازين الحقة فتحضر أعمال العباد^٦ ويستلم كل إنسان كتاب أعماله ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾^٧ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً^٨، وتكون الامور يومئذٍ بدرجة من الوضوح، بحيث ﴿لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾^٩ فلا يقال له ماذا فعلت وماذا اقترفت؟ فالكل واضح جلي بارز للعيان.

وشهود هذه المحكمة الإلهية هم الملائكة، الأنبياء وعباد الله المخلصون، بل

١. عيس: ٣٤ - ٣٧؛ المعارج: ١٠ - ١٤؛ لقمان: ٣٣.

٢. البقرة: ١٦٦: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

٣. المؤمنون: ١٠١: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

٤. الزخرف: ٦٧.

٥. الأنعام: ٣١؛ مريم: ٣٩؛ يونس: ٥٤.

٦. آل عمران: ٣٠: ﴿يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾؛ التكوين: ١٤؛ الإسراء: ٤٩.

٧. الإسراء: ١٣ - ١٤؛ الحاقة: ١٩ و ٢٥؛ الانشقاق: ٧ و ١٠.

٨. الرحمن: ٣٩.

٩. الزمر: ٦٩: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالتَّائِبِينَ وَالشَّاهِدِينَ﴾؛ النساء: ٤١: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾؛ البقرة: ١٤٣؛ آل عمران: ١٤٠؛ النساء: ٦٩؛ هود:

يومئذٍ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١، والحق هو المعيار والميزان ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾^٢، وتعتقد المحكمة الإلهية على أساسى العدل والقسط فلا ظلم يومئذٍ ولا عدوان^٣؛ ويرى كل منهم ثمرة عمله^٤، فينال الصالحون جزاءهم مضاعفاً^٥ ﴿ويومئذٍ لا تحمل نفس أثمه إثم نفس أخرى﴾^٦، إلّا المضلين فإنهم يحملون أوزاهم وأوزار من أضلوهم^٧، من دون أن ينقص من إثم أولئك شيء، وفي ذلك اليوم لا يقبل من المجرم فدية ولا عدل^٨، ولا تقبل فيه شفاعة^٩، إلّا من ارتضى الله شفاعته فشفعون انطلاقاً من الشروط والمعايير التي وضعها الله تعالى لايجاوزن ذلك^{١٠}.

١. النور: ٢٤؛ يس: ٦٥؛ فصلت: ٢٠ - ٢١.

٢. الاعراف: ٨ - ٩؛ الانبياء: ٤٧؛ المؤمنون: ١٠٢ و ١٠٣؛ القارة: ٦ - ٨.

٣. يونس: ٥٤: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾؛ الجاثية: ١٧؛ النمل: ٧٨؛ الزمر: ٦٩، ٧٥.

٤. النجم: ٤٠ - ٤١: ﴿وَأَنْ سَعْيُهُمْ سَوْفَ يَرَى﴾ * ثُمَّ يَجْزَاؤُا الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾؛ البقرة: ٢٨١ - ٢٨٦؛ آل عمران:

١٦١، ٢٥؛ الأنعام: ٧٠؛ هود: ١١؛ إبراهيم: ٥١؛ طه: ١٥؛ غافر: ١٧؛ الجاثية: ٢٢؛ الطور: ٢١؛ المدثر:

٣٨؛ يس: ٥٤؛ الزمر: ٢٤.

٥. الأنعام: ١٦٠: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

٦. النجم: ٣٨: ﴿أَلَا تَرَى زُرَّةً وَزُرَّةً أُخْرَى﴾؛ الأنعام: ١٦٤؛ فاطر: ١٨؛ الزمر: ٧.

٧. النحل: ٢٥: ﴿يُخِيلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛

العنكبوت: ١٣. و يستفيد من هذه أن الذين يسعون في صلاح الناس وهدايتهم ينالون ثوابهم ومثل

ثواب من هدوهم إلى الطريق القويم، وهذا ما تؤيده الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام أيضاً.

٨. البقرة: ٤٨: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ﴾؛ آل عمران: ٩١؛ لقمان: ٣٣؛ المائدة: ٣٦؛ الحديد: ١٥.

٩. المدثر: ٤٨: ﴿فَمَا تَتْلُوهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؛ البقرة: ٢٥٤، ١٢٣.

١٠. النبأ: ٢٨: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾؛ البقرة: ٢٥٥؛ يونس: ٣؛ مريم: ٨٧؛

طه: ١٠٩؛ سبأ: ٢٣؛ الزخرف: ٨٦؛ النجم: ٢٦.

يساقون أما إلى الجنة أو النار

بعد البت في أفعال العباد يصدر الحكم الإلهي^١ فيميز الله الخبيث من الطيب،^٢ فالمؤمنون وجوههم نضرة مستبشرة يساقون إلى الجنة راضين مرضيين،^٣ والكافرون وجوههم مسودة يساقون إلى النار بذلك وهوان،^٤ ولكن الجميع يمرون عبر طريق النار ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ﴾^٥ ويعيش الكافرون والمنافقون في ظلام دامس.

يعيش المنافقون في الحياة الدنيا إلى جانب المؤمنين وجوارهم من هنا نراهم ينادونهم في ذلك اليوم العصيب ﴿انظُرُونَا تَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فيأتيهم الرد ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فلما يلتفت المنافقون يضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿يَسُورُ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^٦.

ثم ينادي المنافقون المؤمنين مرة أخرى ويقولون: ﴿يَنَادُوا نُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا

١. الأعراف: ٤٤ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

٢. الأنفال: ٣٧ ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾؛ الروم: ١٤ - ١٦، ٤٤، ٤٣؛ الشورى: ٧؛ هود: ١٠٥ - ١٠٧؛ يس: ٥٩.

٣. الزمر: ٧٣ ﴿وَيَسِقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾؛ آل عمران: ١٠٧؛ مريم: ٨٥ القيامة: ٢٣ - ٢٤؛ المطففين: ٢٤؛ الغاشية: ٣٨ - ٣٩.

٤. الزمر: ٦٠ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لَلنَّكَارَتِينَ﴾؛ آل عمران: ١٠٦؛ الانعام: ١٢٤؛ يونس: ٢٧؛ مريم: ٦٨؛ طه: ١٠١، ١٢٤، ١٢٦؛ إبراهيم: ٤٣؛ القمر: ٨؛ المعارج: ٤٤؛ الغاشية: ٢؛ الاسراء: ٧٢؛ عبس: ٤٠ - ٤١.

٥. مريم: ٧١ - ٧٢.

٦. الحديد: ١٣.

بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ
بِاللَّهِ الْغُرُورُ * قَالِيَوْمَ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبُئْسَ الْمَصِيرُ^١.

يصف القرآن الكريم صورة اقتراب المؤمنين من أبواب الجنة في قوله تعالى
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^٢. وأما الكافرون فيصفهم دخولهم النار بقوله
تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا
بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾^٣.

الجنة

أشارت آيات الذكر الحكيم إلى صفات الجنة التي أعدت للمتقين، منها كثرة
حدائقها وتعددتها ووفرة نعمها وأن عرضها كعرض السماوات والأرض ﴿وَسَارِعُوا
إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^٤ وسهولة
اقتطاف وتناول ثمارها^٥ وطيب مساكنها^٦ ووفرة الانهار الصافية التي تجري من

١. الحديد: ١٣ - ١٥؛ النساء: ١٤٠.

٢. الزمر: ٧٣.

٣. الزمر: ٧١ - ٧٢؛ التحريم: ٦؛ الأنبياء: ١٠٣.

٤. آل عمران: ١٣٣، الحديد: ٢١.

٥. الحاقة: ٢٢ - ٢٣: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾؛ الدهر: ١٤؛ النبأ: ٣٢.

٦. التوبة: ٧٢: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٍ طِيبَةً فِي
جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ أَكْثَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. الفرقان: ٧٥؛ الزمر: ٢٠؛ سبأ: ٣٧.

تحتها،^١ بل ﴿...فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...﴾^٢، و﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾^٣، بل لهم فيها أكثر مما يشاؤون.^٤

كذلك تعرّضت الآيات المباركة إلى لباس المؤمنين في الجنة والزينة التي يحلون بها ﴿يَخْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾^٥، وأنهم يجلسون متقابلين على أفضل أنواع الأسرة متكئين على أفضل الوسائد المزينة بأنواع الزينة والمرصعة بأفضل المجوهرات،^٦ يحمدون الله ويسبحونه^٧ لا يسمعون فيها لغواً^٨ و﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾^٩ ولا يمسهم فيها تعب ونصب ولا لغوب واعياء،^{١٠} ولا خوف ولا حزن^{١١} قد نزع الله تعالى ما فيه قلوبهم من غل وأحقاد وأدران.^{١٢}

١. البقرة: ٢٥: ﴿وَنَقَرُ اللَّيْلِ أَمَانًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. آل عمران: ١٥.

٢. محمد: ١٥؛ الدهر: ٢١، ١٨، ٦؛ المطففين: ٢٨.

٣. النحل: ٣١؛ الفرقان: ١٦؛ الزمر: ٣٤؛ فصلت: ٣١؛ الشورى: ٢٢؛ الزخرف: ٧١.

٤. ق: ٣٥: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

٥. النحل: ٣١؛ الحج: ٢٣؛ فاطر: ٣٣؛ الدخان: ٣٣؛ الدهر: ٢١؛ الأعراف: ٣٢.

٦. الصافات: ٤٤: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾؛ الكهف: ٣١؛ الحجر: ٤٨؛ الطور: ٢٠؛ الرحمن: ٥٤، ٥٦.

الواقعة: ١٥ - ١٦؛ الغاشية: ١٣ - ١٦؛ يس: ٥٦.

٧. الأعراف: ٤٣: ﴿...وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا...﴾؛ يونس: ١٠، فاطر: ٣٤؛ الزمر: ٧٤.

٨. مريم: ٦٢: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ النبأ: ٣٥؛ الغاشية: ١١.

٩. الدهر: ١٣.

١٠. فاطر: ٣٥: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ الحجر: ٤٨.

١١. الأعراف: ٤٩: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؛ فصلت: ٣١؛ الزخرف: ٦٨.

الأحقاف: ١٣.

١٢. الأعراف: ٤٣: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾؛ الحجر: ٤٧.

يخدمهم غلمان كأنهم للؤلؤ المكنون^١ و﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيَضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾^٢ و﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِقَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾^٣ و﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾^٤، والأفضل من ذلك كله ﴿يَسَّرُهُمْ رَبُّهُمْ يَرْحَمُهُ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ...﴾^٥، بل لا يمكن تصور مدى الرحمة والفضل الإلهي الذي تقر به عيونهم ذلك اليوم.^٦

والأهم من ذلك خلود هذه السعادة العظيمة والنعم التي لا توصف والرحمة والرضوان والقرب الإلهي،^٧ وأن ذلك الأجر غير ممنون ومقطوع أبداً.^٨

النار

أما جهنم التي هي مثوى الكافرين والمنافقين الذين لم يسطع نور الإيمان على

١. الطور: ٢٤: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾؛ الواقعة: ١٧؛ الدهر: ١٩.
٢. الصافات: ٤٥ - ٤٧؛ ص: ٥١؛ الطور: ٢٣؛ الزخرف: ٧١؛ الواقعة: ١٨ - ١٩؛ الدهر: ٥ - ٦، ١٥ - ١٩؛ النبأ: ٣٤؛ المطففين: ٢٥ - ٢٨.
٣. ص: ٥١؛ الطور: ٢٢: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِقَاكِهَةٍ وَحَمِيمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ الرحمن: ٥٢ - ٦٨؛ الواقعة: ٢٠ - ٢١؛ المرسلات: ٤٢؛ النبأ: ٣٢.
٤. البقرة: ٢٥؛ آل عمران: ١٥؛ النساء: ٥٧؛ الصافات: ٤٨ - ٤٩؛ ص: ٥٢؛ الزخرف: ٧٠؛ الدخان: ٥٤؛ الطور: ٢٠؛ الرحمن: ٧٠، ٥٦، ٧٤؛ الواقعة: ٢٢ - ٣٤، ٣٧، ٣٨؛ النبأ: ٣٣.
٥. التوبة: ٢١؛ التوبة: ٧٢: ﴿...وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾؛ آل عمران: ١٥؛ الحديد: ٢٠؛ المائدة: ١١٩؛ المجادلة: ٢٩.
٦. السجدة: ١٧: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
٧. البقرة: ٨٢: ﴿...وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ البقرة: ٢٥؛ آل عمران: ٣٦، ١٠٧، ١٩٨؛ النساء: ١٢٢، ٥٧، ١٣؛ المائدة: ١١٩، ٨٥؛ إبراهيم: ٢٣؛ الحجر: ٤٨؛ الكهف: ٣، ١٠٨؛ طه: ٧٦؛ الانبياء: ١٠٢؛ المؤمنون: ١١؛ الفرقان: ١٦، ٧٦؛ العنكبوت: ٥٨؛ لقمان: ٩؛ الرمز: ٧٣؛ الزخرف: ٧١؛ الأحقاف: ١٤؛ ق: ٣٤؛ الفتح: ٥؛ الحديد: ١٢؛ المجادلة: ٢٢؛ التغابن: ٩؛ الطلاق: ١١؛ البينة: ٨.
٨. فصلت: ٨: ﴿...لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ الدخان: ٥٦؛ الانشقاق: ٢٥؛ التين: ٦.

قلوبهم أبدأ، فإنها بقدر من السعة بحيث كلما ألقى فيها فوج طلبت المزيد.^٢ ملؤها النار وأنواع العذاب.

ولقد وصفت آيات الذكر الحكيم الصورة المرعبة للنار بصور مختلفة وأشارت إلى حالات متنوعة من أنواع العذاب فيها، منها: الإشارة إلى الأصوات الشديدة المرعبة والحاكية عن الغضب الإلهي التي ترتجف منها قلوب أصحاب النار فيتضاعف خوفهم ووجلهم.^٣ أما وجوههم فهي كالحة مسودة مكفهرة يعلوها القتر والحزن،^٤ حتى تجد ذلك الأثر بادياً على وجوه الملائكة الموكلين بعذابهم فلا تجد أثراً للرحمة والشفقة في قلوبهم.^٥

الصورة الأخرى التي تعرضها الآيات القرآنية لهم هي صورة الأغلال والقيود التي في أعناقهم ورقابهم وأيديهم فهم مقرنين في الأصفاذ والسلاسل^٦ تحيط بهم ألسنة النيران ولهيبها المحرق من كل مكان وجهة ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾^٧ بل الأنكى من ذلك أنهم أنفسهم يتحولون إلى وقود للنار ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾^٨

١. النساء: ١٤٠: ﴿...إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ وعشرات الآيات التي أكدت هذه الحقيقة.

٢. ق: ٣٠: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

٣. هود: ١٠٦: ﴿...لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾؛ النبأ: ١٠٠؛ الفرقان: ١٢: ﴿...سَاعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾؛ الملوك: ٧ - ٨.

٤. آل عمران: ١٠٦: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٥. التحريم: ٦: ﴿...عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

٦. إبراهيم: ٤٩: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ سبأ: ٣٣؛ غافر: ٧١ - ٧٢؛ الحاقة: ٣٢؛ الدهر: ٤.

٧. إبراهيم: ٥٠؛ الانبياء: ٣٩: ﴿...لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ الفرقان: ١٣؛ الهمزة: ٦ - ٧.

٨. البقرة: ٢٤؛ آل عمران: ١٠؛ الانبياء: ٩٨؛ الجن: ١٥؛ التحريم: ٦.

كذلك تصف لنا الآيات الشريفة طبيعة الفضاء الحاكم في النار بأنه فضاء ملؤه الأنين والنحيب والصراخ والعيول والنزاع والتخاصم والويل والثبور ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ لا تدعوا اليوم ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا^١، وكذلك تنتقل الآيات لتصف لنا صورة مرعبة أخرى من صور جهنم وهي صورة الحميم الذي يصب على رؤوسهم ﴿...يَصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^٢، والشراب الذي يُغاثون به شراب يشوي الوجوه ويغلي البطون ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾^٣ إلا أنهم مع شدة حرارة ذلك الماء وتانة رائحته وشدة مرورة طعمه تراهم يقبلون عليه هائمين كالإبل العطاش التي لا تروى.^٤

أما طعامهم فمن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، يقول الله تعالى في وصف ذلك الطعام

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَدًا يَلْتَوُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾^٥

ثم ينتقل القرآن الكريم ليصف لنا اللباس الذي يرتديه أصحاب الجحيم بأنه قطع من النار والمواد المؤلمة شديدة الحرارة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾^٦

١. الفرقان: ١٣ - ١٤؛ الانشقاق: ١١.

٢. الحج: ١٩ - ٢٠؛ الدخان: ٤٨.

٣. الكهف: ٢٩؛ الأنعام: ٧٠. ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ الحج: ٢٠؛ الدخان: ٤٥. ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾.

٤. الواقعة: ٥٤ - ٥٥. ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ فَشَارِبُونَ شَرِبَ الْهَمِيمِ.

٥. الصافات: ٦٢ - ٦٦؛ ص: ٥٧؛ الدخان: ٤٥ - ٦٦؛ الواقعة: ٥٢ - ٥٣؛ النبأ: ٢٥؛ الغاشية: ٦ - ٧.

٦. الحج: ١٩؛ إبراهيم: ٥١.

وهناك صورة أخرى لا تهملها الآيات الكريمة وهي الإشارة إلى طبيعة مجتمع أهل النار والندماء فيه فتقول: إنه مجتمع خليط من المجرمين والكافرين والشياطين والجن، مما يؤدي إلى مضاعفة عذاب الكافرين الروحي، حتى يتمنى الكافر أن يبينه وبينهم بعد المشرقين.^١

أما لغة التعامل بينهم فهي لغة السباب والشتائم واللعن والتبري.^٢ إنهم يعيشون الذل والهوان ولا يسمح لهم بالاعتذار فكلما أرادوا الكلام أو الاعتذار يخاطبون بأقسى كلمات التحقير وهي كلمة «اخساً»^٣ وحينما توصل الأبواب في وجوههم يلجؤون إلى خزنة جهنم طالبين منهم التوسل للتخفيف من عذابهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنَّا تُنَادِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾^٤ فلم يبق أمامهم إلا طلب الموت مرة أخرى، لكن يأتيهم الجواب: كلما إنكم ما كنون ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ۖ﴾^٥ والعجيب أنهم يشاهدون الموت في كل لحظة ويأتيهم الموت من كل مكان إلا أنهم ليس بميتين؛^٦ وذلك لأنه كلما نصجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب.^٧

١. الرخرف: ٣٨ - ٣٩: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۚ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۖ﴾ الشعراء: ٩٤ - ٩٥: ص: ٨٥.
٢. العنكبوت: ٢٥: ﴿...ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ۖ﴾ الأعراف: ٣٨ - ٣٩: الاحزاب: ٦٨: ص: ٥٨ - ٦٤.
٣. المؤمنون: ١٠٨: ﴿قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۖ﴾ الروم: ٥٧: غافر: ٥٢: المرسلات: ٣٥ - ٣٦.
٤. غافر: ٤٩ - ٥٠.
٥. الزخرف: ٧٧.
٦. إبراهيم: ١٧: ﴿وَيَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُمْ بِيَشْعُرُونَ ۚ وَزَوَّاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۖ﴾ طه: ٧٤: فاطر: ٣٦.
٧. النساء: ٥٦: ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...﴾.

صورة أخرى من صور الذل التي تعيشها تلك النفوس المتكبرة والمستعلية في الدنيا الذليلة في جهنم هي صورة الاستجداء والتوسل بالمؤمنين ليفيضوا عليهم قليلاً من الماء أو ممّا رزقهم الله تعالى، ولكنهم لا يسمعون إلّا كلمة: إنّ الله حرمها على الكافرين.^١

هنا يسأل المؤمنون الكافرين عن السبب الذي أذى بهم إلى هذا المصير المشؤوم والسقوط في سقر ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ فيأتي الاعتراف منهم بأنهم كانوا من المتمردين على الأوامر الإلهية ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ *^٢

ثم يبدأ الشجار والتشابك والتخاصم بين المضلين والمضللين ﴿هَذَا قَوْجٌ مَقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، فكل فريق يلقي باللائمة على الفريق الثاني في حصول الانحراف والضلال ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَيْئَسَ الْقَرَارُ﴾ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذَةً عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * ... * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ *^٣ فيقول المضللون للمضلين. ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ *، وفي آية أخرى ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْنُونَ عَلَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^٤

١. الأعراف: ٥٠. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

٢. المدثر: ٤٠ - ٤٧.

٣. ص: ٥٩ - ٦٣.

٤. الصافات: ٢٨ - ٣٠. الأعراف: ٣٨ - ٣٩. ق: ٢٧ - ٢٨.

٥. إبراهيم: ٢١؛ سبأ: ٣١ - ٣٣.

وأخيراً يلتفت الجميع إلى الشيطان ملقين عليه باللائمة في ضلالهم وانحرافهم وطالبين منه أن ينقذهم من الورطة التي أوقعهم فيها والمصير المشؤوم الذي أوصلهم إليه، فيتصل هو الآخر عن المسؤولية ويلقيها في أعناقهم ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي...﴾^١

فلم يبق أمامهم إلا الاعتراف بجرمهم والتسليم بجزاء أعمالهم وخطودهم في نار جهنم.^٢

١. إبراهيم: ٢٢.

٢. البينة: ٦: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾؛ البقرة: ٣٩، ٨١؛ التوبة: ١٧، ٦٣، ٦٨؛ يونس: ٢٧، ٥٢؛ هود: ١٠٧؛ الرعد: ٥؛ النحل: ٢٩؛ الكهف: ١٠٨؛ طه: ١٠١؛ السجدة: ٢٠؛ المؤمنون: ١٠٣؛ الأحزاب: ٦٥؛ الزمر: ٧٢؛ غافر: ٧٦؛ الزخرف: ٧٤؛ المجادلة: ١٧؛ التغابن: ١٠؛ الجن: ٢٣.

الدرس السادس

الشفاعة

يستفيد من آيات الذكر الحكيم والروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام أن الإنسان المؤمن لا يخلد في العذاب وإن كانت أعماله غير مرضية وليست بالمستوى المطلوب. فقد وعد الله تعالى عباده بأن يتجاوز عن ذنوبهم الصغيرة شريطة أن يتجنبوا كبائر الإثم.^١ أما الذنوب الكبيرة، فإنه تعالى يعفو عنها إذا تاب صاحبها توبة نصوحاً، فإن لم يوفق للتوبة في الحياة الدنيا فحينئذ يخفف من عذابه بسبب الآلام والمصاعب التي عاناها في الحياة الدنيا، بالإضافة إلى كون عذاب البرزخ ومواقف يوم القيامة سبباً لتطهيره من الذنوب، فإن بقي من ذنوبه شيء، فحينئذ يأتي دور الشفاعة فيغفر له ذنبه وينجو من عذاب النار بفضل شفاعة من أذن لهم الرحمن، فقد روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

إِذْخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي^٢

من هنا نعلم بأن الشفاعة هي الأمل الأكبر والأخير للمذنبين من المؤمنين، لكن الأمل في الشفاعة لا يمكن أن يكون مبرراً للإنسان في خداع نفسه واقتراف ما يشاء من المعاصي والذنوب؛ وذلك لأن للذنوب - بالإضافة إلى ما يترتب عليه من العقاب

١. النساء: ٣١: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾.

٢. بحار الأنوار: ٣٧/٨ - ٤٠.

الإلهي - أثراً كبيراً في إطفاء شعلة النور الإلهية مما يؤدي في نهاية الأمر إلى سقوط الإنسان في الشقاء والعذاب الدائم، وهذا الخطر موجود دائماً ولا يمكن بحال من الأحوال التهاون فيه وعدم الالتفات إليه.^١

مفهوم الشفاعة

للشفاعة أصل واحد يدل على مقارنة الشئين، من ذلك الشفع، خلاف الوتر، تقول كان فرداً فشفّعته.^٢ والمراد من الشفاعة في الفكر الإسلامي: وساطة الأولياء الإلهيين بين الله تعالى وبين عبده المؤمن ليعفو عنه ويغفر له ذنوبه، وكأنّ الشخص المشفوع له لم يكن مؤهلاً وحده لاستحقاق الرحمة الإلهية، فإذا قرّن بشفاعة الشفع فحينئذ يكون مؤهلاً لشمول الرحمة الإلهية له.

نفي الشفاعة الباطلة وإثبات الشفاعة الحقّة

نعتقد أنّ الشفاعة تنقسم إلى شفاعة مرفوضة وشفاعة مقبولة، مثال الأولى الشفاعة التي يعتقد بها المشركون والتي تستلزم النقص في الله سبحانه، فهذه الشفاعة باطلة وقد صرح القرآن الكريم ببطالانها: ﴿...لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ...﴾.^٣ أمّا الشفاعة الحقّة فهي شفاعة من أذن له الله تعالى بها: ﴿...مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ...﴾.^٤

بل القرآن الكريم صريح في كون الشفع المقبولة شفاعته هو الذي يعلم ويشهد بالحق: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.^٥

١. الروم: ١٠: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

٢. المقاييس: ٢٠١/٣.

٣. الأنعام: ٥١، ٧٠؛ السجدة: ٤؛ الزمر: ٤٤.

٤. يونس: ٣؛ راجع: البقرة: ٢٥٥؛ طه: ١٠٩؛ سبأ: ٢٣.

٥. الزخرف: ٨٦.

خلاصة البحث

١. إن مصير الإنسان المؤمن في نهاية المطاف إلى الجنة.
٢. إذا مات المؤمن ولم يتب بعد، ولم تطهره الآلام والمشاكل الدنيوية ولم يطهره عذاب البرزخ ولا مواقف يوم القيامة فحينئذٍ تصل النوبة إلى نجاته عن طريق الشفاعة.
٣. الشفاعة مشتقة من الشفع، والمراد بها وساطة الأولياء الإلهيين بين الله تعالى وبين عبده المؤمن ليعفو عنه ويغفر له ذنوبه.
٤. الشفاعة التي يؤمن بها المشركون تستلزم النقص على الله تعالى، لذلك حكم القرآن ببطالانها، وهناك شفاعة مقبولة وهي التي تقع بإذن من الله تعالى.
٥. لا يحق الشفاعة إلا لمن يعلم ويشهد بالحق.

المصادر

القرآن الكريم

النهج البلاغة

١. ابن البطريق: شمس الدين، يحيى بن الحسن الأسدي الحلبي، عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ١٤٠٧هـ.

٢. ابن فارس: أحمد بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، أوفست.

٣. ابن منظور الإفريقي: جمال الدين، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر: أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.

٤. أبو جعفر، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ)، الكافي، المكتبة العلمية، طهران.

٥. الاستربادي: محمد جعفر بن سيف الدين، البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات، بوستان كتاب، قم، ١٣٨٢ش.

٦. الأصبهاني: موفق الدين، إسماعيل بن محمد اليتيمي، دلائل النبوة، تحقيق: مساعد بن سليمان، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

٧. الأصفهاني: الراغب، حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، المكتبة الرضوية، طهران، ١٤٠٣هـ.

٨. الأميني: الشيخ عبدالحسين النجفي، موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليه السلام، قم، ط ٢، ١٤٢٤هـ.
٩. البحراني: السيد هاشم الموسوي التويلي، غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام، تحقيق: السيد علي عاشور.
١٠. البخاري: محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، تصحيح و تحقيق: ديب البغاء، دار ابن كثير واليمامة، دمشق، ط ٤، ١٩٩٠م.
١١. الجرجاني: أحمد بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢٠٠٠م.
١٢. الحاكم الحسكاني: عبيدالله بن أحمد النيسابوري (ق ٥٥٠هـ)، شواهد التنزيل لقواعد التفصيل، تحقيق: الشيخ محمدباقر المحمودي، مؤسسة الطبع و النشر التابعة لوزارة الإرشاد، الإسلامي، طهران، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
١٣. الحلبي: العلامة الحسن بن يوسف المطهر، نهج الحق وكشف الصدق، تعليق: عين الله الأرموي، دار الهجرة، قم، ١٤١٤هـ.
١٤. ———، نهج المسترشدين في أصول الدين، تصحيح: محمدهادي اليوسفي الغروي، ط ١، ١٣٥٣ش.
١٥. ———، تجريد الاعتقاد، تصحيح و تعليق: الشيخ حسن زاده آملي، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط ٧، ١٤١٧هـ.
١٦. الرازي: محمد بن عمر بن الحسين، الشهير بالفخر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط ٤، ١٤١٣هـ.
١٧. السبحاني: الشيخ جعفر التبريزي، محاضرات في الإلهيات، نشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم.
١٨. ———، الإلهيات على هدى القرآن والسنة والعقل، بقلم: حسن محمد العاملي، نشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، إيران، ط ٦، ١٤٢٦هـ.
١٩. السيوري: الفاضل المقداد بن عبدالله، إرشاد الطالبين إلى شرح نهج المسترشدين، تحقيق: الرجائي، نشر: مكتبة السيد المرعشي، قم.

٢٠. الشاهرودي: علي نمازي، تاريخ الفلسفة والتصوّف، ترجمه: سيد سجاد رضوي، تحقيق: مرتضى اعدادي خراساني، قم، ط ١، ١٣٩٢ش.
٢١. الشيرازي: الشيخ ناصر مكارم، وجماعة، رسالة القرآن، نشر: مدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، قم، ط ١، ١٣٦٧ش.
٢٢. الصافي: الشيخ لطف الله الكپايگاني، منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام، نشر: مكتب لطف الله الصافي، قم، ط ١، ١٣٨٠ش.
٢٣. الصدوق: أبو جعفر، محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٨١هـ)، معاني الأخبار، دارالمعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢٤. الصدوق: محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، إكمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ٢، ١٤٠٤هـ.
٢٥. _____، الأُمالي، مؤسسة الأعلى، بيروت، ١٤٠٠هـ.
٢٦. الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، نشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة.
٢٧. _____، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٧٠م.
٢٨. الطبرسي: أمين الإسلام، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، مجمع البيان في التفسير القرآن، دارالمعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٨م.
٢٩. الطوسي: أبو جعفر، محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، الأُمالي، تحقيق: قسم الدراسات والنشر في مؤسسة البعثة، دارالثقافة، قم، إيران، ط ١، ١٤١٤هـ.
٣٠. عبد الجبار: القاضي عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥هـ)، شرح الأصول الخمسة، مكتبة الوهية، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
٣١. العياشي: محمد بن مسعود بن عياشي السلمي، كتاب التفسير، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، إيران.
٣٢. القمي: علي بن ابراهيم، تفسير القمي، تصحيح و تعليق: السيد طيّب الجزائري، دارالكتاب العربي، قم، ط ٤، ١٩٨٨م.

٣٣. قنيوي: صدر الدين، محمد بن إسحاق، شرح الأسماء الحسنی، تصحيح: قاسم الطهراني، نشر: دارالهلل، بيروت، لبنان.

٣٤. القوشجي: علي بن محمد (ت ٨٧٩هـ)، شرح القوشجي على التجريد للطوسي، تبريز، إيران، ط ١٣٠٧هـ.

٣٥. الكردي: محمد طاهر، تاريخ القرآن الكريم، السعودية، جدة، ١٣٦٥هـ.

٣٦. الكليني: أبو جعفر، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ)، الكافي، تصحيح: علي أكبر غفاري، طهران، المكتبة العلمية الإسلامية، قم، ط ١٩٨٨م.

٣٧. الماوردي: أبو الحسن، علي بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ)، أعلام النبوة، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧١م.

٣٨. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط ١٤٠٣هـ.

٣٩. المطهري: الشيخ مرتضى، الدوافع نحو المادية، ترجمة: الشيخ محمد علي السخيري، دارالتعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٤٠. ———، الفطرة، مؤسسة البعثة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢م.

٤١. ———، مجموعه آثار الشهيد مطهري، انتشارات صدرا، طهران، ١٣٨٩ش.

٤٢. معرفة: الشيخ محمد هادي، التمهيد في القرآن، نشر: مديرية الحوزة العلمية، قم، ١٤١٠هـ.

٤٣. المغازلي: علي بن محمد بن الواسطي الشافعي، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، نشر: سبط النبي ﷺ، قم، ط ١، ١٣٨٤ش - ١٤٢٦هـ.

٤٤. النوري: الميرزا حسين الطبرسي، النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجة الغائب عليه السلام،

ترجمة: السيد ياسين الموسوي، نشر: مسجد جمكران، قم، ط ١، ١٣٨٦ش - ٢٠٠٠م.

٤٥. النيشابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دارالجليل، بيروت، لبنان.